



أسوأ المهن في التاريخ

[سد لقطة أليفة عام من العمالقة البائسين]

تأليف: توني روبنسون

ترجمة:
د. عبدالله جرادات



مكتبة
ال الفكر
الجديد

أسوأ المهن في التاريخ

(سرد لقصة ألفي عامٍ من العمالة البائسة)

تأليف: توني روبسون

ترجمة: د. عبدالله جرادات

مراجعة: د. أحمد خريص

الطبعة الأولى 1433هـ - 2012م

حقوق الطبع محفوظة

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع كلمة .

HB2673.R6312 2012

Robinson, Tony

[Worst jobs in history]

أسوأ المهن في التاريخ: سرد لقصص ألمي عام من العمالة البائسة / تأليف توني روينسون، ترجمة عبد الله

جرادات، مراجعة أحمد خريص - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة ، مشروع كلمة .. 2012.

من 306 : 17 سم

نوع: 978-9948-01-9948

نوع: 7-9948-01-9948

ترجمة كتاب: The worst jobs in history

1 - المهن- بريطانيا- تاريخ

i- Willecock, David

ج- خريص، أحمد

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Tony Robinson

The Worst Jobs in History

Copyright © Tony Robinson and David Willecock, 2004

First published 2004 by Boxtree

an imprint of Pan Macmillan Ltd



www.kalima.ae

عرب 2380، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 971 2 6515 451، فاكس: 971 2 6433 127



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

أن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة ، مشروع كلمة ، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وذكائه . وتصرح وجهات النشر الموزعة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة .

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ - مشروع كلمة .

ينبغي نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية ، أو التسجيل الفوتografي والتسجيل على أقراص مغروفة أو أي وسيلة نشر أخرى ، بما في ذلك الحفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خططي من الناشر .

أسوأ المهن في التاريخ

(سرد لقصة ألفي عامٍ من العمالقة البائسة)

المحتويات

7.....	المقدمة
13.....	الفصل الأول: أسوأ الوظائف الأولى
59.....	الفصل الثاني: أسوأ الأعمال في القرون الوسطى.....
103.....	الفصل الثالث: أسوأ المهن في العصر التيودوري
143.....	الفصل الرابع: أسوأ المهن في العصر الستيوارتي
185.....	الفصل الخامس: أسوأ المهن في العصر الجورجي.....
235.....	الفصل السادس: أسوأ المهن في العصر الفيكتوري
286.....	ما المهن التي غدت ألقاب عائلات
300.....	دليل أسوأ المهن.....



النظام التبردوري للغوص المكافحة.

قد يجد عالم بانعات السمك وكراسي
التطبيس سارا حتى تجد نصتك على
وشك أن تخطئ في مياه نهر تقترب من
درجة الجهد.

المقدمة

يغوص التاريخ الذي تعلمناه في المدرسة، بالملوك والملكات والمعارك والجنرالات ورؤساء الوزراء، لكنني كنت دائمًا على يقين أنَّ هذا التاريخ إنما يصور نصف الحقيقة، فمعايشة التاريخ البريطاني – بالنسبة إلى معظم الناس – تبدو تجربة فريدة جدًا، فخلُفَ كثيرٌ من الرجال والنساء الذين سرقوا الأضواء، كان ثمة جيش، لا يُؤبه به، يقع على عاتقه القيام بجميع الأعمال الصعبة والخطيرة والمنفعة.

ويشير علم الآثار إلى هذه الحقيقة بشكل لا لبس فيه؛ لأنَّ معظم الاكتشافات ليست دائمًا كنوز ذلك الإنسان الصالح أو العظيم، وإنما الجهد الضئيل لجيش جرار من الناس الاعتياديَّين.

كنت في أثناء عملِي في تابع تيم (Time team)، كثُرًا ما أجد نفسي في مواجهة مع الحقائق المرة لحياة القدماء، الذين مكثوا من العباء أحياً معايشين مع أوضاعهم، على الرغم من تغافل التاريخ عنهم.

ولطالما كنت أريد أن أهُب هؤلاء الناس أصواتًا، وكانت أجهد بالبحث عن طريقة تصوير حياتهم بحيوية وإمتع. ولقد تحدثت قبل ستين مع المؤرخ الدكتور مايلث جونز (Mike Jones) حول حقائق المعركة في عصر الفروسية، وكيف أن فارس القرون الوسطى كان قادرًا على التأقلم مع ظروف القتال القاسية وغير المتوقعة، التي كانت تستمر ثمان ساعات على الرغم من قتل الدروع التي كان يرتديها، وكانت تزن في بعض الأحيان مئات البالوندات.

ووصف لي محادثي – بتفصيل مثير – فريق الدعم الذي كان من مهامه الحرص على جاهزية الفارس المدرع للستمرار في المعركة، وبشكل مشابه تماماً لمهمة فريق الإستاد في سباقات سيارات الفورميولا ون (Formula one). وقد كان أفضل عضو في الفريق – في رأيي – هو حافظ الفارس، الذي يعد الحلقة الأدنى في سلم الوظائف المساعدة، وتتلخص مهماته في التخلص من العرق، والبول، والبراز، الذي تجمع في درع سيده بعد يوم قضاه مهتماً بحصانه.

بدت لي هذه الوظيفة أسوأ وظيفة في العالم، غير أنَّ محادثي كان له رأي آخر، فقد أصرَّ



توني في ملام السليط. إن فكرة جزك من جانب شبان صغار السن جبوردين عبر شوارع آندروليك مرتبطة بباس السليط، وهو طريقة غريبة لاكتشاف معاناة السليط للضحى، ولكن كان على أحدهم أن يقوم بهذا العمل.

كما في مشهد فرقة موتي بايثون المسرحية (Monty Python) الشهير - أن «من يقوم بهذه المهمة كان محظوظاً». ففي العصور الوسطى، كانت هناك طرق عيش أسوأ من هذه بكثير». ولكن، هل كانت هناك مهن أسوأ من هذه بالفعل؟ قررت أن أجد أسوأ المهن على الإطلاق. واعتقدت أنني أكتب - رسمياً - تاريخاً اجتماعياً، غير أن أي شخص كان قد قرأ في التاريخ الاجتماعي، سيعرف لماذا أتردد في استخدام هذا التعبير.

قد تعدد الدراسة المكثفة للمخطوطات الإقطاعية، التي وقفت الانتقال من المحاريث التي تجرها الثيران إلى تلك التي تجرها الخيل، أو التحاليل الإحصائية لاستهلاك السمك الطازج في قرية في «كت»، عملاً أكاديمياً مهماً، لكنها لا تصلح موضوعاً مثيراً للقراءة؛ لأن المؤرخين الاجتماعيين نادرًا ما يضفون هالة وخيالاً على رعاياهم المجهولين، بعكس ما يفعل كاتبو السير مع أبطالهم وبطلاتهم.

عليّ أن أعترف أن اختياري للوظائف كان جلّه شخصياً، فليس هناك من طريقة موضوعية يمكن لنا من خلالها قياس بؤس الإنسان، ويمكن القول: إنني قد استثنيت الأسوأ من أسوأ

المهن، فلقد كانت حقيقة أنك امرأة منجية، في أي وقت قبل القرن العشرين، ممانعة في السوء لأي وظيفة تم ذكرها في هذا الكتاب. وغير التاريخ، يبعث أعداداً لا تُحصى من البالغين والأطفال، بل تُمْتَ الإساءة إليهم من جانب الأغنياء.

إن ما أتوخاه هو أن تعقب شواطئ العمل الهاجرة، فالقارب كأكل الصفادع، وقدر البودرة، والباحث عن الأموات، إنما تؤكد حقيقة أن الماضي يحوي وجهًا مختلفاً ومنفراً إلى حد ما لهذا البلد (بريطانيا). ولقد حددت اختياراتي مستفيضاً من وجهة نظر أحد أفراد القرن العشرين السريعة التغير والمدللة.

ومما لا شك فيه، أن طاقة الإنسان وصره في الماضي كانا أقوى مما هما عليه الآن، فجعل اهتمام الناس في الماضي كان منصبًا على مقدار ما يتقاضون، بغض النظر عن قدرة العمل. ولتكن على الرغم من أن منصب الموظف المسؤول عن تنظيف الحمام المتقل (groom of the stool) في البلاط التيودوري، عذر رفيعاً، لأنّه يجعل شاغله على اتصال مباشر مع الملك، إلا أنني على ثقة تامة أن هناك ألف عمل وعمل قد يفضله ذلك الشخص، على أن يقوم بمحس مؤخرة هنري الثامن الكبيرة.

غير أن تلك الوظائف لم تكن كلها قنطرة، فلقد أخذت في الحسبان عناصر أخرى كالخطورة، فالضابط المعتلي حصانه في القرن الثامن عشر، والمكلف بمهمة الحد من موجة عنيفة من الجرائم، كان مسلحاً بفرس ومسدس وحرب. وثمة وظائف آمنة جدًا، يهد أنها كانت مملة إلى حد قاتل، كناسخ اللوائح الأنوبية، الذي كان عليه أن ينسخ الكشوف المالية الملكية باليد. كانت هذه المهمة لا تنتهي البتة، فقد كانت تستغرق أثني عشر شهرًا لإكمالها. وللهذا، فحالما ينتهي الناسخ من نسخ التقارير، سيكون أمامه عامٌ جديدٌ يتنتظره بتقاريره، ليبدأ العمل من جديد.

وكنت في بعض الأحيان، أستمد إلهامي من أحداث التاريخ العظيمة. فعلى سبيل المثال، قادتني أحداث ملح البارود إلى رجل الملحق الصخري، الذي كان عليه أن يجمع فضلات الإنسان، لما فيها من نترات، من أجل تحويلها إلى ملح بارود. كان شاغلو هذه الوظيفة يتمتعون -بشكل مستغرب - بسلطنة مطلقة، فلقد كانوا يدخلون البيوت القديمة بتفويض من الدولة، ويقطلون الأرضيات الخشبية عنوة، للحصول على الفضلات البشرية الموجودة أسفلها.

وعلى النهج نفسه، القينا النظر على أسوأ الوظائف في بناء كاتدرائيات القرون الوسطى الضخمة، كما نظرنا في بحرية الأدميرال نيلسون، فمعظم البحارة لم يحظوا - عقب موته - بالجلبة التي حظى بها نيلسون عقب موته في ترافلغار (Trafalgar)، ولم يحظ معظمهم بقبلة وداع متأججة. فقد كفتوا في شباك نومهم بعد أن خيطت إلى كرتني مدفعة، ثم ألقى بهم في البحر، (على عكس ما حدث مع نيلسون، الذي تم حفظ جنته في مشروب الزم). وهناك الثورة الصناعية، التي كانت مصدر قرار وسلطة لقلة القليلة من الناس، لكنها في الوقت نفسه، كانت ترقى خصيصةً من الوظائف الفنرة لجمعي غفير، لعل أفضل من يمثلها من قبل الآلات التسييج.

أخذ عدد الوظائف الغامضة والشبيهة، مع حلول الفترة الفيكتورية، ومع تشدد قوانين الصحة والسلامة العامة، وصرامة التشريعات الاجتماعية، بالتناقص. وبدأ بعض العمال كبنات الكبريت في لندن، يطالبون بقليل من التحسينات. ولكن على الرغم من كل هذا، انتقل كثير من المهام الشبيهة إلى العصر الحديث. فعلى سبيل المثال، استمرت وظيفة جامع بعض طائر الغلموت، التي تناصل لدى الفايكنغ - وهي تبدو غريبة لنا الآن - في فلامبورهيد في بورك شاير إبان بدايات القرن العشرين تحت مسمى وظيفي مختلف هو المتسلق (climber).

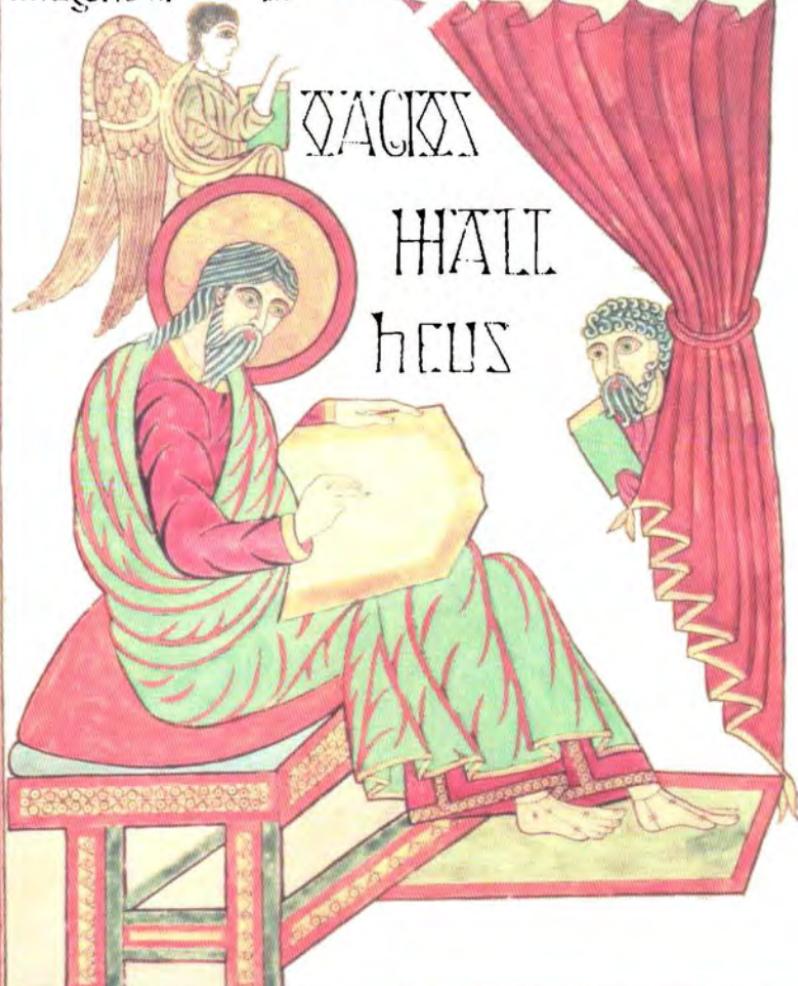
إن حقيقة أن لديك الوقت والمستوى العلمي لقراءة هذا الكتاب قد تعني - حتى ولو ظاهرياً - أن حياتك ليست قاسية كأولئك الناس الذين ستقابلهم عبر صفحات كتابي هنا. أعني أنكم ستعلمون القليل من هذا الكتاب. ولكن، إن كتم قضيتم يوماً سيناً في العمل، وتشعرون أنكم تحت ضغط ما، فأرجو منكم أن تكونوا شاكرين لأنكم لستم من ضمن ملايين لا تخصي، كان لها - عبر التاريخ - مهن أفعى بكثير من مهنيكم، مهما تكن سينه.

παραδοσιοι τις

ΣΑΓΚΩΣ

ΗΑΛΛ

ηεις



تصور سردابات لذفارات الانجليزية القدس ماثيو وهو يحمل كتاباً من ورق الرقي، الذي اعند الرهبان صنعه في عرف السخ
التي تلعب بها الرياح العاتية

الفصل الأول

أسوأ الوظائف الأولى

تغير وجه بريطانيا عبر الهجرة والغزو كما تغير خط الساحل تماماً عبر أمواج بحر الشمال والمحيط الهادئ. فلقد تم اقتلاع ساكنيها الأصليين، وحل محلهم شعب السلتิก الذي وصل زهاء عام 3500 ق.م. وفي عام 80 قبل الميلاد، استقرت في جنوب إنجلترا موجة جديدة من قبائل البلجيك المعقدة. وفي عام 43 بعد الميلاد، أصدر الإمبراطور الروماني كلاديوس، الذي كان يشكو من التنانة، أمراً بغزو بريطانيا واحتلالها بشكل دائم، وذلك لكسب احترام شعبه في الوطن. وعلى الرغم من ثورة الملكة بوديكا الدموية ضد وريث كلاديوس - نيرو، كان هذا الغزو بداية حكم مستمر دام ما يزيد على 400 عام، اخترقت خلالها القيم والثقافة الرومانية مختلف جوانب الحياة البريطانية.

أسوأ المهن الرومانية:

كانت كلمة «مهنة» قبيل الغزو الروماني ذات مدلولٍ غامضٍ إلى حدٍ ما، فالعمل بشكل أساسي، هو ما ينبغي القيام به عندما تكون في حالة السلم. ولكن، عندما تصبح ثقافة الأمة أكثر تعقيداً، يصبح العمل أكثر تشعباً ليضم مهام متعددة ومحددة في آنٍ واحدٍ. كان الرومان يعلمون تماماً طبيعة الوظائف التي يمكن وصفها بالأسوأ. فهم من جعل العبيد - بشكل عام - يقومون بما هو مطلوب منهم. بل إن جميع الفتوح العلمية، التي جلبها الرومان معهم، ترتكز على ظروف صعبة جداً، ونفوس اعتنادت المعاناة القاسية. فالنظام الهندسي الرفيع، الذي منح الرومان نظام التدفئة تحت الأرض، على سبيل المثال، كان يحتاج على الدوام إلى غلام يقوم على خدمته وتنظيفه. وكان هذا الغلام يجرب جميع المرات تحت الأرض، ويسحبها لإزالة السواد الناتج عن عملية الاحتراق، لتنظيف جميع الأنابيب. وعُذَّ هذا الغلام نسخة مبكرة لمظف المداخن الفيكتوري.

ولكن، هل نستطيع أن نستوي ما يقوم به العبيد مهنة؟ على الأرجح لا، فلم يكن لديهم

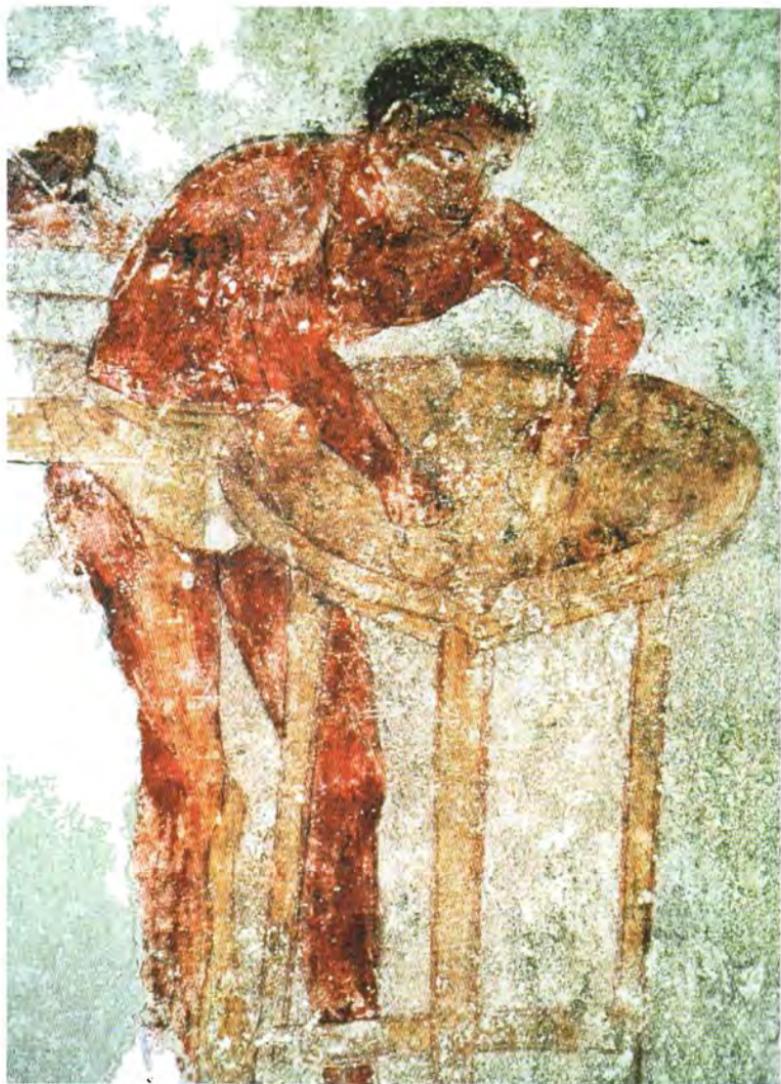
خيار إزاء ما يقومون به، أو مكاناً للقيام به، غير أن بعض المهام التي دخلت ضمن عمل العبيد كانت تؤدي من جانب بعض الرجال والنساء الأحرار. ففي العهد الروماني كانت الإذكيات لمن بعض الأسئلة مثل: من يقوم بهذا العمل؟ وما امتيازات القيام به؟ غير واضحة كما يظن بعضهم. وما زاد الموقف تعقيداً، أن العبيد العاملين في البيوت كانوا يتلقون مصروفها شخصياً، ويستطيعون كسب حرفيتهم. كانت ثمة تراتبية لأعمال العبيد الجيدة والسيئة، وتحصل على عملك وسلوكيك الجيدين أن ترتفق بنفسك في سلم التراتبية. ولقد كانت إحدى تلك الطرائق الاستفراطية حول الإمبراطور نيرو، أنه أحاط نفسه بموظفين ذوي مراكز عالية كانوا في السابق عبيداً، عوضاً من موظفين من أصل أستقراطي نبيل.

ومن المرجح أنك كعبد ستتحقق بعض التحسن في وضعيتك، إذا ما كنت تعمل في بيت العائلة التي تملكه، ولو بتحقير هذا، إذا كنت تعمل في ممتلكاتهم على بعد أميال من بيتهم. وعلى الرغم من هذا يبدأ الكاتب بذكر عمل موكل للعبيد بضطلع به شخص مقرب جداً من سيده، وحرفيه هنا أن يقول إنه مقرب بشكل وثيق. فلقد جلب الرومان معهم إلى بريطانيا تعقيدات الثقافة والمطبخ المتوسطيين. وعندها كان الملك توجيدوبونس (*Togidobnus*) يريد أن يقيم مأدبة رومانية فارهة يحقق في قيامه في تشيرن، فإنه كان بحاجة إلى عبد ليقوم بشيء مفرز جداً.

جامع القيء (Puke Collector):

هذا حقيقتان، قد يعرفهما معظم الناس عن الولايات المتحدة. أولاهما: أن المشاركين المدعىون كانوا يتناولون قوارض ذات زغب بالعسل، وثانيهما: أنهم كانوا يتدفعون إلى مكان يسمى «المقيمة»، للتخلص منها، وإفساح المجال أمام المزيد من الطعام.

في الحقيقة، واحدة من هاتين المعتقدات صحيحة، فالروماني كانوا بالفعل يتناولون القوارض المغطسة في العسل، والمرتبة بمحبوب الخشasha، وذلك بعد أن يتم أحد العبيد باتزاع أحشائها وحشوها، ولم يكن هناك مكان يدعى «المقيمة» في البيت الروماني، كانت الكلمة «المقيمة» تطلق على مجر في المدرج الروماني، وسمى بهذا الاسم؛ لأنه كان يرثى لآلاف الرومان حرية الوصول - في غضون دقائق - إلى الشارع، حيث يستطيعون التعبير.



كان الطعام الرفيع المستوى يعبر عن مكانة مقدمه الاجتماعية. يقوم البيت الروماني الرالبي بتجرب أكبر من طباق للوصول إلى ما يمكن عنده طباق الدرجة الأولى، الذي يعمل في العادة مع مجموعة من عبد المطبخ، كالظاهر في المروحة الجدارية التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي.



قد لا يكون لدى الأرستقراطين الرومان مكان خاص للتقبيل، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا يتقبيلون. حتى إن مستشار نيرو، الفيلسوف سينيكا، قال: إن الرومانيين «يتقبيلون ليتمكنوا من تناول المزيد من الطعام، وهم يأكلون ليتقبيلوا». وصف سيسرو في واحدة من رسائله كيف أن القيصر قد تجنب محاولة اغتياله عندما «أبدى رغبته في التقبيل بعد العشاء»، وبدلًا من الذهاب إلى الحمام حيث كان القتلة، ذهب إلى غرفة نومه وتقبيل فيها.

وتشير كثيرة من الأدلة إلى أن المجتمعين على العشاء لم يكونوا يكتفُّون بمعادرة الغرفة، عندما يكونون بحاجة لأن يجعلوا أنفسهم مغشية، فقد كانوا يتقبيلون في أوانٍ يتم تزويدهم

بها لهذه الغاية، أو ببساطة على أرضية الغرفة. وكان ثمة من ينتقل بين الضيوف، وحولهم، ومن يزحف تحت الكتبات، التي كانوا يسترخون عليها، ويتحين لقيتهم. كان هذا الشخص «جامع القيء». ولم يُستَرِّ هذه الوظيفة من بنات أفكار الكاتب. وتشير فقرة أخرى لسينيكا إلى عادة البصق والتقيؤ المعتقدة والقاتنة: «فعندما كنا نسترخي في الموائد، كان أحد العبيد يمسح البصاق، وكان آخر، وعادةً ما يقع في الأسفل، يجمع قيء المخمورين».

يال له من عمل مقرز! أن يقوم بمسح خليط الطعام الحاد الرائحة، والأخلال المتکلة للخمر الفاليوني، واللحموم المحمرة، والصلصة الرومانية الموجودة في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية، والمحكونة من السمك المخمر، تاهيلك عن القوارض نصف المهدومة.

المأدبة الباذعة التي أمر بها حديث النعمة الروماني ترماليكيو، كما تم تصويرها في الساتير تكون التي كتبها بيرونوس.



تعد «مأدبة ترماليكيو» واحدةً من أشهر أجزاء العمل الأدبي المسمى «ساتيريون»، الذي وضعه بيرونوس، وهي كوميديا رومансية خطّت في عهد نيرو، وهو الوقت ذاته الذي دخلت فيه الثقافة الرومانية بريطانيا. وكان الهدف من هذا العمل إضفاء المرح حول شطط الرجل السوقي المحرر ترماليكيو (Trimalchio) – وقد كان عبداً في الماضي – في تبذير المال. ويعدّ هذا العمل مصدراً رئيساً لمعلوماتنا حول القوارض بالعمل، ويرسم لنا صورةً شفافةً للمهانة التي وصل إليها العبيد، إذ كان يتوقع منهم القيام بكل ما يطلبه أسيادهم.

نادرًا ما كان مينالوس يتوقف عن الكلام، عندما كان ترمالكير يقطّعه بأصابعه، وكان على الخادم، عند سماعه الإشارة أن يحمل إثاء الغرفة لسيده، بينما كان يقضي حاجته، وكان بعد أن يريح مثانته، يطلب منه يفصّل بيده، فيليل رؤوس أصحابه ويحلفها على رأس العبد.

انقلب هنا الشهد، وكلنا دهشة، لمقابلة أغاممنون (Agamemnon) على الباب الخارجي، حيث ثُبّت لوح صغير على ساربته تقول:

«لا يسمح للعبد أن يغادر المبنى ولم يحصله دون الحصول على إذن من سيده، فالعقوبة مئة جلدة.»

وبعد فترة، استلقينا، وقام الأولاد العبيد من الإسكندرية بسكب الماء المبرد بالطلع على أيدينا، بينما كان آخرهن يهتمون بارجلنا، وأزروا أظافرنا الطويلة بخفةٍ ومهارةٍ، ولم يكونوا خلال هذه العملية صامتين، بل كانوا جميعهم يغنون، وهم يقرون بعملهم.

وكان هناك على الصينية حمارٌ من البرونز الكورني، يحمل سلالاً تحوي الزيتون، الأبيض في واحدة، والأسود في الأخرى. وأحاط به من جانبيه طبقان، حُفر على حواهنهما اسم ترمالكير، ووزن الفضة في كلِّ منها، وكانت القوارض المرشوشة بنور الخشاش والعسل تقدم على وصلات تُحتمت إلى الأطباق. وكانت النافذة الحارة على شبكات للشيء من الفضة، وتحتها كان الخوخ الدمشقي وبنور الرمان.

دخل ترمالكير، وهو يمسح جبهه وبفحل بيده بالمعطر، فقال بعد فترة صامتة: «اعذروني أيها البلاء، ولكن عذتي مازالت مضرة عن الطعام منذ بضعة أيام، وانختلف الأطباء حول السبب، لهذا إن أراد أيٌّ منكم أن يقوم بما هو مضطر للقيام به، فليس هناك داعٍ لأن تشعروا بالمحاجل، فلم يولد أيٌّ هنا بلا عيوب أبداً، وإن اعترض على أن يريح أيٌّ منكم نفسه في غرفة طعامي عندما يكون مضطراً إلى ذلك، فالأطباء يتصحّرون بعدم دفعه. كل شيء قد تحتاجونه متوفّر في الخارج، وإذا كان الأمر أكثر جدية، فهناك الماء، والكرسي المغلق، وأي شيء آخر قد تحتاجونه».«

ولكن على الأقل ينفي جامع النبي، ظلال الأسقف التي تعلق على رأسه، ويتمتع بشرف التدفئة المركبة الرومانية. هل فكر جامع النبي عقب مغادرة آخر ضيف متجمد مكان الوليمة، وبعيد انتهاءه من مسح آخر قطرات دهن القوارض المزغبة المتتكل، عن أدوات مائدة سيده، هل فكر من هم أقل حظاً منه؟ أقصد أولئك البيوساء المبتلين، والمرتعشين برداً دوماً في بعض الأراضي القصبية، الذين كانوا يحفرون بحثاً عن المواد الخام المستخدمة في صنع هذه الأدوات؟

عامل مناجم الذهب (Gold Miner):

إن أحد الأسباب التي دفعت الرومانيين إلى غزو بريطانيا، هو الاستيلاء على معادننا ومصادرنا، كان الرصاص مطلوباً بشدة؛ كي يستخدم في صنع أنابيب المياه، وكان عندما يصهر، يخلط مع القصدير لصنع السبائك. وفضلاً عن ذلك، تم استخراج الفضة الموجودة في الركاز لصنع نقود وأدوات للمائدة. وبحلول عام 70 بعد الميلاد، أصبحت بريطانيا المزروعة الأكبر للإمبراطورية من الرصاص والفضة. وأشار الكاتب بلاتياني ذا إيلدر (Pliny the Elder) في كتابه التاريخ الطبيعي إلى توفر هذه المعادن في المستعمرة الجديدة: «إن الرصاص الذي يستخدمه في تصنيع الأنابيب والصفائح يستخرج من إسبانيا والمقاطعات «الغالية» (Gallic) بجهد وفرا، أما في بريطانيا فهو متواافق على السطح بكلمات ضخمة، حتى إنه من قانون تحديد الإنتاج». ولقد فرض هذا التقني بعد أن قام الإسبان بالتقدم بشكوى للإمبراطور فيما يمكن عنه نسخة مبكرة لتوجيهات أنظمة الاتحاد الأوروبي. وتطلب الحصول على هذا المستوى من الإنتاجية -على الرغم من أن المناجم كانت سطحية ومكشوفة- عملاً مضيناً. ولهذا لقيت ما يزيد على 10 بالمائة من القوة العاملة حتفها سنواً.

وعلى الرغم من ذلك، كان هناك في بريطانيا الرومانية عمل مناجم أسوأ من هذا بكثير، ونقصد به ذلك الذي يتم من خلاله البحث عن أنفس المعادن على الإطلاق: الذهب. كان البحث عن الذهب أسوأها؛ لأنه يتطلب الحفر لأعمق كثيرة. ولقد كان الدخول تحت الأرض عملاً شديداً خطورة، وقد يتبارى إلى ذهنه أن هذا العمل كان مخصصاً للبعيد، غير أن هناك أدلة مستمدّة من مناطق أخرى في أوروبا تشير إلى أن الأحرار كانوا يقومون بهذا العمل أيضاً.



تاج ذهبي يعبر عن علو كعب الحضارة الرومانية، ولكن لم يكن ليصاغ لولا وجود مهنة تعدد من أسرأ المهن في التاريخ، لا هي مهنة عامل منجم الذهب.

كان ثمة منجم روماني للذهب في دولاكوثي (Dolaucothi) في ويلز، وظف الرومانيون فيه آخر ما توصلوا إليه من تكنولوجيا، فقد كانوا ينقلون الماء لأميال عبر نظام من القنوات إلى خزانين ضخمين فوق تلة بجاوية، ثم يدعون هذا الماء يتدفق كسيل جارف، لإزالة ما عليها من خضرة وتربة، كاشفاً الصخور الغنية بالكوارتز، التي قد يوجد فيها الذهب. كانت تتم عملية البحث عن الذهب، بعد هذا العرض المفاجئ والأحاذ لقوة الهندسة الرومانية، مسألة عمل شاق جداً. وتقدر كمية الصخور التي أزالها الرومانيون من دولاكوثي خلال الثلاثة عشر عام التي كان خلالها المنجم فاعلاً بنصف مليون طن، ثمت إزالتها جميعاً يدوياً.

قام العيد بهذا العمل، باستخدام أكثر الأدوات بدائية كالمعاول اليدوية، والسلال، والحملات الخشبية المستخدمة في نقل الخامات. ويكون سبب نقل كميات ضخمة من الصخور في الطريقة التي يوجد فيها الكوارتز الذي يضم الذهب. إن معدنا كالفحمة يعُد سهل الاستخراج إذا قورن باستخراج الذهب، فالفحمة يوجد في طبقات جيولوجية متعددة بشكل قطري مع السطح، لكنه دائمًا يمكن على شكل صفاتٍ معروفة بين الطبقات الصخرية ذاتها. وعلى الرغم من أن الكوارتز ناتج لنشاط بركاني قديم، إلا أن عملية تفسيس الخام المذاب دوراً في دفعه في فجوات غير منتظمة في الصخر، ولهذا لا يوجد الكوارتز في الطبقات الصخرية الموزارية للسطح، ولكن يمكن الحصول عليه في العروق المشعّبة عبر الجبل، التي لا يحكمها نظام، فبعضها يرتفع، وبعضها ينخفض، وبعضها قد يتسع ليصبح مساحة ضخمة من الخام، بينما قد يتلاشى ببعضها إلى لا شيء. وتعد عملية تعقب العروق لعبة محظوظة وخيالية للأعمال تقوم على التجربة والخطأ.

لقد اقتضت طبيعة عمل عمال المناجم، الوجود في متأهّلات من الأنفاق. وكانت سقوفها تدعم بالخشب، الذي سرعان ما ينكسر -وفقاً لحركة التربة الطبيعية- كعيدين الكريت. ولهذا، كانت ظروف العمل ضيقة وخطيرة ومظلمة. وعلى الرغم من أن عمال المناجم كان لديهم مصايب توقد بدهن الحيوانات أو زيت الزيتون، إلا أنها بعثت أدخنة كبيرة وضوءاً قليلاً. ومن المحتل أن يشق عمال المناجم طريقهم أحياناً في ظلمة دامسة، كانوا خلالها لا يستطيعون التمييز بين الصخر الطيني، والكوارتز الحاد إلا عن طريق اللمس.

ولتغطي الصخور المحيطة بالطبة الجيولوجية، قام عمال المناجم بتكتيس حزم الخطب على وجه الصخر، وأشعلوا النار فيها، وألقواها مشتعلة يومين متصلين، وذلك لتسخين الصخر إلى درجة حرارة عالية. ولا بد أن الظروف قد أصبحت لا تحتمل لأولئك القائمين على إبقاء النار مشتعلة، مع ازدياد درجة الحرارة واندفاع الدخان عبر الأنفاق. وفي ظل هذه الظروف الخانقة، عُدّت المصايب القائمة عديمة الجدوى، ولكن أسوأ جزء لما يذكر بعد.

يبدأ الصخر، عندما يصبح ساخناً جداً، باللمعان، ثم يبرأ بشكل مفاجئ عبر رشه بالماء أو الخل، فتنفتح عن التقلص المفاجئ الناتج عن اختلاف درجات الحرارة انفجارات عنيفة.

وكان على عمال المناجم المعرضين للاختناق من أدخنة النار المشتعلة ليومين، أن يتعاملوا مع الصخور المتهارة، والحطام المنطابر في ظلام دامس. وكان عليهم أن يزيلوا الصخور المتراسمة عبر الأنفاق الطويلة يدوياً، ويفرغوها قبل أن يستطيعوا اقطاع الكوارتز المنكشف لديهم باستخدام معاولهم. انظر القطعة التالية حول هذا الموضوع:

70. وتشبه الطريقة الثالثة لاستخراج الذهب إنجازات العملاقة. يقوم العمال اعتماداً على ضوء المصايبع، بقطع مرات طويلة في الجبال، كان الرجال يعملون في مناوبيات طويلة تقاد بالصايبع. وقد لا يرون ضوء النهار لأشهر في نهاية الأمر. يسمى المحليون هذه المناجم «العروق الكامنة». وكثيراً ما كانت أسفف هذه المناجم، عرضة للسقوط وسحق العمال ودفهم وهم أحياء، مما جعل الغوص بحثاً عن اللؤلؤ، أو للحصول على سعك أرجواني من أعماق البحر، إذا ما قررن بالبحث عن الذهب، عملاً آمناً. فقد تركنا الأرض وراءنا أكثر خطورة. وكان يتم نصب القاطر على أبعاد متكررة لدعم الجبل فوقها.

71. كان عمال المناجم -سواء في حالات التجيم المكسوفة أو تلك العميقية- كثيراً ما يجدون كتلاً من الصوان، التي كانوا يشقونها بإشعال النار واستخدام الخل. وجعل إشعال النار في المرات العمال يشعرون بحرارة خانقة من الدخان، وكان البديل عن النار استخدام كشارات من الحديد تزن إحداها مئة وخمسين باونداً. ويقوم العمال بعد ذلك بإزالة الخام من طريقهم، عبر حمله على أكتافهم. كان كل عامل حلقة من سلسلة بشرية تعمل في الظلام، ومن ير ضوء النهار هو من يحتل آخر الحلقات في السلسلة.

بلايني، ذا إيلدر، التاريخ الطبيعي، الفصل 33.

لقد كان الوصول إلى العروق يمثل البداية فقط، إذ كان عليهم أن يكسروها إلى قطعٍ صغيرةٍ كي يتم حملها، ثم كانت تنقل إلى العراء. إن الكوارتز قاسي جداً وحش، ونقطاط الذهب فيه ضئيلةٌ للغاية. وللهذا كان يتم تكسير الكوارتز بشكل دقيق، ووضعه في أقمشة صوفية. وبعد ذلك، كان يتم التخلص من الزوائد الصخرية غير غسلها بالماء، تاركة الذهب – الذي يعد أثقل وزناً – في قاع القماش الصوفي، الذي كان يحرق مختلفاً وراءه نقاطاً ذهبية ضئيلة في الرماد.

لا نعرف كم عاماً لقي حتفه في دولاكوني في استخراج الذهب، الذي قد يغدو قطع حلبي للمواطنين الآترياء في جميع أرجاء الإمبراطورية. إن من ذهب إلى الجبال الويلرية في الشتاء، فقط، يستطيع أن يعرف مدى قسوة الأحوال هناك. كان الحصن في دولاكوني أصغر من أن يتسع لجميع القوى العاملة هناك، وللهذا أسكن العبيد في أحشائشهم. لا بد أن عدداً قليلاً منهم قد ذرف دمعة واحدةً عندما هجر النجم في بداية القرن الخامس، وترك هاماً حتى بداية العهد الفيكتوري.

ولكن، إذا كان البحث عن الذهب رمزاً للفترة الاستعمارية، فقد كان رمزاً لتعقيد علم الاقتصاد والثقافة الرومانيين أيضاً. إن ما حدث بعد تركهم بريطانيا لا يمكن تسميه بالتحسن على الإطلاق.

أسوأ الأعمال في العصور المظلمة

وصل ألاريك القوطى (Alaric the Goth) إلى مشارف روما سنة 410 بعد الميلاد. وكانت الإمبراطورية الغربية في تلك اللحظات تتعرض لاحتياجاتٍ متعاقبةٍ من قبائلٍ معاذيةٍ قادمةٍ من الشرق، تكون عداءً للإمبراطورية. وقد امتدت فيالق الإمبراطورية إلى نقاطٍ بعيدةٍ يمكن القول إنها اثرأتُسلياً على الإمبراطورية، لهذا تم استدعاء القوات من الحدود القصبة لحماية القلب الشامي لإيطاليا.

وتزكَّ استدعاء القوات من الحدود فراغاً في السلطة في بريطانيا. وحاول البريتانيون – رومانيون بعد تعرضهم لهجمات من البيكتس (Picts) والإسكتلنديين والإيرلنديين – أن

يستبدلوها بالفيالق مرتبطة من القبائل الجرمانية من السكسونين وظفوا لهذا الغرض. وكان المحاربان هنجرست (Hengest) وهورسا (Horsa) من أوائل من تم استئجارهم. وصل المحاربان بريطانيا عام 450 بعد الميلاد، ومعهم ثلات سفن من المحاربين. وقع فورتيرجرن (Vortigern) – وهو من كان يقود البريطانيين – في حب ابنة هنجرست، ومنه كانت مهراً للزواج منها. وتكمّل المشكلة في أن المرتبطة قد أحبو المكان كثيراً، كما أخبروا أصدقائهم. لهذا لم يتقدّم سوى عام واحد حتى أخذ السكسونيون بالإغارة على القرى والمدن البريطانية.

ورغم المقاومة المستمرة للبريطانيين – الرومانين، إلا أن البلد سرعان ما أصبح مقراً لسلسلة لا ينقطع من القبائل القادمة من شمال أوروبا، فاستقر الجوت (Jutes) في الجنوب، وأغمر الأنجليز (Angles) الشمال والشرق، مانحين اسمهم لأنجليا الشرفية (East Anglia) وأنجل لاند أو إنجلترا. وأحكم السكسونيون قبضتهم على جنوب شرق إنجلترا أو إسكس (Essex)، والمنطقة الغربية (Wessex)، والمنطقة الجنوبية (Sussex)، والمنطقة المتوسطة ميدلسكس (Middlesex). إن قسماً كبيراً من لغتنا مستمدٌ من القبائل الأقل شهرة: الغريزين (Frizians)، الذين جاؤوا من هولندا.

واستسلمت – في ظل هذا الهجوم الوحشي لثقافية وثية حربية – باقي مناطق بريطانيا الرومانية. واضطرب السكان الأصليون من السلتิก (Celtic) إلى اللجوء نحو التلال، وتأسّست الثقافة الكلاسيكية كاملة، وتم طمسها في فترة تسمّيها العصور المظلمة.

استقر الغزاة في تجمعات قبلية، وتحبّوا المدن والمعابد. وأصبحت الصروح الرومانية العظيمة معطلة، وتُنسى من بناءها. وفي هذا الشأن تعبّع قصيدة من القرن العاشر التفكير في البقايا: «إن ما يثير الدهشة هو البناء الذي كان قدره التهدم، وسقوط آبنية المدينة، وعمل العملاقة الذي أصبح كلّه حطاماً، سقطت الأسقف وأصبحت الأبراج دماراً، وانهدمت البوابات، هناك صقيق وبؤس على القصور، وانهدمت الملاجئ العميقية، وتفرّق وفُوض أساسها الرزمن».«

وأصبحت ما تسمى بإإنجلترا اليوم تقع تحت سيطرة ثلاثة حاكميّة قوّة: وسكس في الجنوب، وميرشيا (Mercia) في الوسط، ونورثمبريا (Northumbria)؛ التي كانت متقدّمة شماليّاً حتى

الحدود الإسكندنافية. كان لكل مملكة من هذه الممالك مجتمع له هيكل بالغ التعقيد. وكان على رأسه الملك، وب يأتي تحنه مباشرةً الأرستقراطيون، وهم المحاربون الأشداء الذين قاموا بالقتال ونفذوا إرادة الملك. وبعدهم كان الفلاحون الذين كانوا يقومون بكل شيء آخر. كان أحد الفلاحين يدعى (Ceori) التي اشتقت منها الكلمة (Churlish). وهو رجل حرّ يقع في أدنى المراتب الأنجلو-سكسونية، وقد كان البقاء على قيد الحياة لهؤلاء أسوأ منه.

فلاح العصور المظلمة (Churl):

حمل فلاح العصور الوسطى على كفيه العبء الاقتصادي للإنجليز. وعلى الرغم من أنه كان فلاحاً حرّاً، إلا أن وضعه في العصور المظلمة، وبشكلٍ مثير للسخرية، ساء إلى حيد كبير. فمن المحتل أنه كان في القرن السادس يمتلك قطعة أرض، ومسؤولًا أمام الملك عن أفعاله، لكن وضعه قبل الغزو النورماندي تغير تماماً. فقد أصبح يتطلب منه تقديم الكثير من الخدمات لسيده، وعند وفاته تستقل أرضه إلى مالك الغربة. كانت حياة هذا الفلاح مليئة بالعمل المضني الذي لا نهاية له. ولكن علينا ألا ننفل عنحقيقة أن هذا الرجل لم يكن يحصل بمفرده، وإنما كان رئيس عمالٍ كادح، لأولئك الذين يتحدون من عائلته الممتدة. ولم يكن لهذا الفلاح سوى كرامة تسمى بـ *بُخْر* فقط.

لم تكن زوجته، وأطفاله واثنان من العبيد اللذان يشاركانه القيام بالواجبات بأوفر حظاً منه. فلقد كانوا يعودون متكلبات للفلاح كمعلوله وفاسه. وكان الفلاح - بالإضافة إلى عمله الرئيسي - خطاباً، ومزارعاً، وطحاناً، وبناءً، وزوجته طحانة، وحائكة، وخياطة وطبخة. وكان يتوثق منها، بالإضافة إلى الإنجاب دون مخدرٍ معظم سنوات خصوبتها، أن ترعرع وتقطع اللحم، وأن تتصد وتنغربل، وأن تجر وتتكدح. أما أبناء الفلاح، الذين لم يتلقوا تعليماً إلقاءاً، فقد كانوا رعاةً أبقارٍ، وختانير، وأغنام، ونقاليين، وحمالين معاونين في كل عمل. وكان على الفلاح نفسه، نظرًاً للعدم الاعتراف بفرقة الإسناد التي تعمل معه، وعدم دفع أجور لهم على هذه الأعمال، أن يؤمن لهم سبل العيش، حتى إن أبسط المهام كالبقاء دافناً كان يتطلب ساعات طويلة من العمل المضني. كان تقطيع الخطب عيناً دائمًا في العصور السكسونية، فالخطب ضروري لإبقاء نار البيت مشتعلة. وقد يستغرق تقطيع كمية الخطب المطلوبة يومياً

أربع ساعات. احتاج الفلاح الخشب أيضاً لبناء منزله، فإذا احتاج منزلأً، كان عليه أن يبنيه. وكانت الطريقة المتبعه آنذاك تعتمد على القصبان الخشبية والطين. استخدم الفلاح عصيًّا رفيعة ومستقيمة من أجمة البندق، التي كانت تخني وتخاطب بجهدٍ بالغٍ إنشاً بانش لعمل سياج حاجزٍ، وعليه بعد ذلك تثبيت الأجزاء المخيطه لتشكيل حائط. ولهذه الغاية، كان الفلاح يتسرّب منها الهواء، توجّبت تغطية الجدران بطبقة قاسية من الطين. وللهذه الغاية، كان يقوم بخلط يستخدم الطين، والقش، وكثيراً من مكوّنٍ سحريٍ ثالثٍ هو روث الحصان. كان يقوم بخلط المكونات الثلاثة، لتشيه قوام الفطيره، ثم يلطفخها على القصبان الخشبية بيديه العاربين. ولكن لماذا يستخدم الروث؟ تقوم الألياف المهضومة طبيعياً في الروث بدور اللاصق، فالطين وحده سيسقط عن الجدران عندما يجف.

ولكن حتى مع وجود جدران جديدة حوله وسقف فوق رأسه، كان على فلاحتنا أن يبقى حياً، وكانت أبسط المهام تحتاج إلى كثيرٍ من الوقت والجهد، ليس جهده وحده طبعاً، وإنما



**Prima ntar forte pñitq scđa colvrté.
Tuncustus adiundā sū ntn. 8. xl't**

تظهر هذه الصورة التي تعود إلى القرون الوسطى أحد مالكي الأرضي وهو يشرف على للاحنين يقومون بحدّد القسم، وهو لاءهم ورثة للناسى القرون الوسطى.

الـ

جهد زوجته أيضاً. فعلى سبيل المثال، لصنع خبز الشعر، وهو الخبز المشتر حينها، كان على النساء أن يقمن بطحن الشعير يدوياً باستخدام حجر الرحي، ثم كنْ يعجنُ الطحين وبخزنه على النار. كانت عملية طحن الشعير للحصول على طحين يكفي عائلة من أئمَّة عشر فرداً تحتاج إلى ثلث ساعات على الأقل. لا عجب إذاً أن أسطورة الملك السكسوني الفرد العظيم كان لها وقع كبير لدى مستمعي القرن العاشر. إن حرق الخبز يعني ضياع ساعات طويلة من العمل سدى.

إن كونك فلاحاً لم يكن يعني أن لك عملاً مستقلاً. فإذاً فإن الأعمال القاسية التي عليه القيام بها لإبقاء عائلته حية، كان عليه القيام بعمل لأجل سيده، ومع مرور القرون، أصبح هذا العمل يشق كاهله أكثر فأكثر.

كان مقاييس الأرض الرئيس في معظم أرجاء إنجلترا السكسونية هو هايد (hide) – وهي المساحة التي يتوقع الفلاح أن يقتات منها. وينص قانون مملك مساحة تعادل عشرة هايدات في وسيكس على أن يقوم الفلاح بخدمته بما هو آت: عشرة أوعية مليئة بالعسل، وثلاثة نساء رغيف، وأئمَّة عشر أميراً (Amber) من شراب المزر (Ale) البريطاني (ويعادل الأمر ستة غالونات) وثلاثين أميراً من شراب المزر الصافي. وثورين، وعشرين أوزات، وعشرين دجاجة، وعشرة أجبان، وأمير من الزبدة، وخمسة سلمونات، وما يعادل عشرين باونداً من العلف، وستة سمكة أنقلسيس. وكان على فلاحي هيستبورن بريورز في هامبشاير أن يدفعوا أجراً يبلغ 40 بنساً في العام لكل هايد، والعمل ثلاثة أيام في الأسبوع لمدة تسعة وأربعين أسبوعاً في العام لسيده، وعليه أيضاً أن يقوم بحرث ثلاثة هكتارات من أرض سيده وبندرها، وأن يقص نصف هكتار من مروجها. ليس هذا فحسب، وإنما كان عليه أن يغسل صوف أغنامه ويجزها، وأن يسلم حمولة أربع عربات من الصوف المجزوز والمصنف، بالإضافة إلى ستة عشر عاموداً من عمدان الأسوجة، ونقل الأغنام والخراف، وأشيربة المزر، والشعر والقمح. ولكن هناك وظيفة أخرى تقع في قلب العمل الزراعي، وتطلب القوة والمهارة. فإن كان اسمك (Plowman) أو (Ploughman)، فلا بد أن أجدادك قد مشوا في حقوق إنجلترا مجهدين، وذلك لتقديم أساسيات الحياة السكسونية والعصور الوسطى.

الحراث (Ploughman)

إن لم تحرث في العصور المظلمة، فلن تتمكن من العيش. إن محصولاً غير وغير بسبب عدم حرث الحقل بشكل كافٍ، قد يعني الماجاعة. كان الجموع حقيقة يومية ملزمة لطبيعة الحياة هناك. كانت ظروف الحياة قاسية جداً، إلى حد أن قانوناً أنجلو-سكسونياً قد سمح للأب ببيع ابنه ليغدو عبداً، إذا تبين أنه يحتاج إلى نفقات كبيرة ليس في مقدوره تأميمها. وبشير المؤرخ والراهب السكسوني بيده (Bede) إلى حزم جموعات الانتحار التي كانت تشهد لها سبيكس في القرن السابع عندما كانت تضررها المجتمعات، حيث «كان ما يتوفى على أربعين أو خمسين شخصاً هربلاً، ينتون من وطأة الجموع، ينهبون إلى جرف عالي أو حافة البحر، وهناك يربط بعضهم أيديهم بآيدي بعضهم الآخر، ويقفرون ليموتوا عند ارتطامهم بالأرض أو غرقاً».

السيد: ماذا تقول يا حراث؟ كيف لك أن تقوم بعملك؟

الحراث: نعم، يا سيدي، أنا أعمل بكل يدي. أخرج للعمل مع ضوء النهار، سائقاً الثيران إلى الحقل، ثم أضع عليهما التير لنبدأ الحراثة. وخفقاً من سيدي، لا أستطيع المكوث في البيت، حتى في أشد ظروف الشتاء قسوة. وبعد ربط الثيران بالثير وتبثيت شفرات الحراث، علي أن أحمر أكراً واحداً، أو أكثر كل يوم.

السيد: هل لديك مرافقون؟

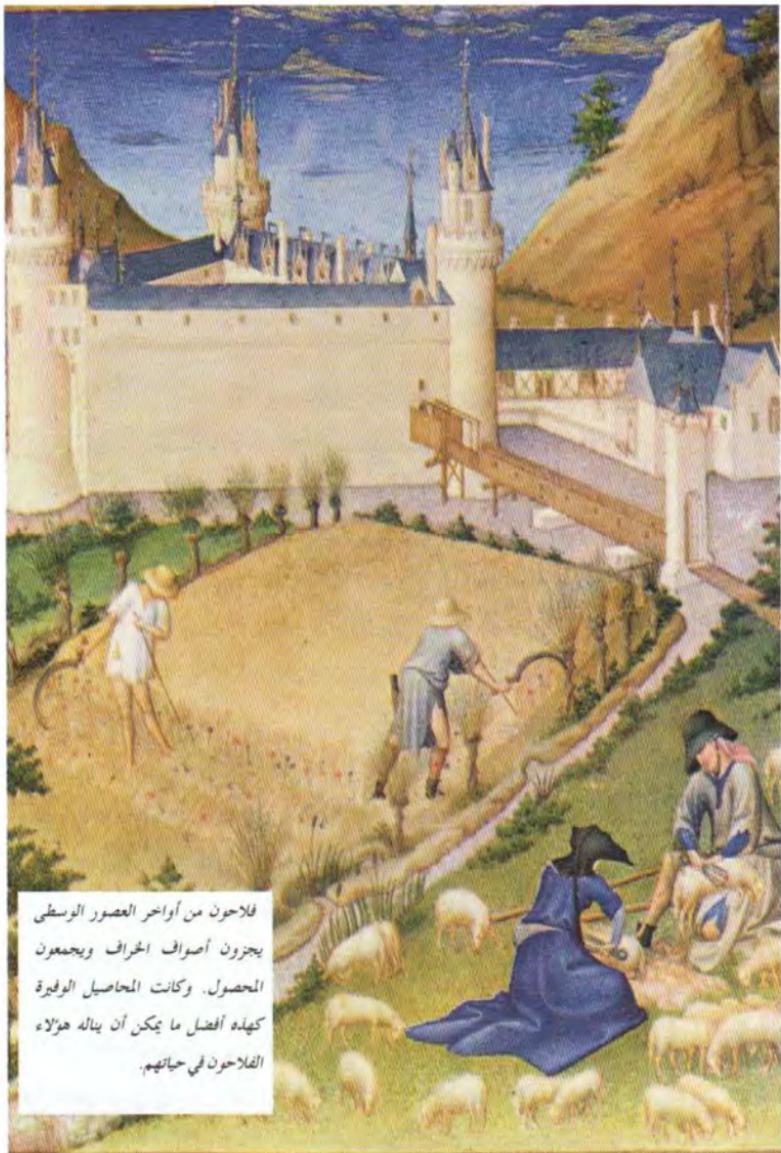
الحراث: عندي صبي يقوم بقيادة الثيران باستخدام المهاز، وهو الآن أجش الصوت بسبب البرد والصراخ.

السيد: وماذا تفعل غير هذا في يومك؟

الحراث: أقوم بأكثر من هذا، بالتأكيد علي أن أملاً صناديق الثيران بالقش وأسيقيها، وعلى أن أنخلص من روتها.

السيد: نعم، نعم، إنه عمل قاسي.

الحراث: إنه عمل مضني، سيدي، وذلك لأنني لست حرزاً. حديث الفريلك، كتب نحو نهاية القرن العاشر.



فلاجرون من أواخر العصور الوسطى
يجزون أصوات الخراف ويعملون
المحصول. وكانت المحاصيل الوفيرة
كهذه أفضل ما يمكن أن يناله هؤلاء
الفلاحون في حياتهم.



اللاران يقومان بعرث الأرض باستخدام المحراث ذي الخشبة الطويلة الشبيه على ثيران لعرفة.

والحراثة هذه الأيام سهلة إلى حد كبير، ليس لأن لدينا جرارات، وإنما لأن المحراث المعدني الحديث قد تم تشكيله بصورة مذهلة؛ فهو يغرس في التربة، ويقللها بسهولة تامة. أما في العصورظلمة، فقد كانت التكتولوجيا بدائية، وتحتاج إلى مهارات إضافية للعمل بها. كان المحراث الأنجلو-سكسوني، يسمى آرد (ard)، وكان يتكون من جذع شجرة طويل ونصل خشبي أو شفرة تبرز أسفل منها. لهذا كان التحكم به صعباً، ويحتاج إلى ضغط دائم لإبقاءه في العمق المناسب من الأخدود.

وقد استخدمت الثيران في الحراثة، لأن الحصان كان أسمى من أن يستخدم في هذا الغرض، فهو مناسب في الحرب وشونتها. (انظر فصل العصور الوسطى، الذي يوضح الثورة في عالم الحراثة، عندما ربطت الخيول بثير الحراثة). إن الثيران بطيئة، ولكنها قادرة على القيام بالعمل على أيام وجه، وتحتاج تدريباً متواصلاً وقدرة على التحكم بها. وتتمكن الحيلة - إذا تمكنت من جعل الثيران تبدأ في العمل - في إيقافها مشي بخط مستقيم دون توقف. فالأخذود المستقيم لا يدو جيداً فحسب، وإنما يعطيك أقصى غایات التأثير في إنتاجية التربة.

كانت الحراثة في الهواء الطلق بطيئة وقاسية، وقد كان العمل ثانياً دائماً، وهناك من يعمل على إبقاء المحراث مغروساً في الأرض، وهناك من يقود الثيران. وفي صورة على تقوم أنجلو-سكسوني، يظهر الرجل الذي يقود القطبيح حافي القدمين. نحن لا نعرف إذا كان هذا

اللهم إله العزة لا إله إلا أنت

هو الوضع الطبيعي، ولكن ستدرك، إذا انقرست أقدامك في الوحل، وإذا اكتست قدماك بالطين، كيف أن المشي وأنت حافي القدمين، قبل اختراع الحذاء طوبل الساق، كان أفضل من الخوض في الطين بحذاء خفيف.

لهذا، ليس من المستغرب أن بعض الشباب الوعادين من العائلات الأيسر حالاً قد خرجموا من الحلقة الزراعية وأرسلوا للدراسة مع النساك، الذين وعدوهم بتعليم وحياة أفضل بتلقينهم الثقافة الرومانية واللغة اللاتينية، الذين بقيتا موجودتين رغم هيمنة الطرق السكسونية الوحشية لما يزيد على قرنٍ بعد مغادرة الرومان. وحُوِّفَت على هذا الإرث عبر مجتمعات سلتبية متربة في إيرلندا والجزر الإسكتلندية كأليونا (Iona). ومن هذه النقاط الصخرية العصبة، انطلقت المبشرون المتدينون لهداية القادمين الجدد من الوثنين، وأسسوا مجتمعات أخرى كتلك التي أقيمت في لиндسفارن (Lindisfarn) في نورثمبريا (Northumbria)، حتى إن بعض الرهبان الإنجيليين قد عادوا إلى أوروبا لنشر رسالة المسيح هناك. وبحلول عام 600 بعد الميلاد، كانت حركة إعادة نشر المسيحية في بريطانيا مشي على قدم وساق.

كانت المسيحية الرهبانية السلتبية بطيئة بكل ما تحمل الكلمة من معنى. فقد أدرك الرهبان أنهم إذا أرادوا هداية شعبٍ مقاتل، فعلى كثلي المسيح أن يكونوا أقساً كالشعب المقاتل تماماً. ولهذا، كانت حياة الرهبنة، التي أصبحت في العصور الوسطى مترففة ومنحطة القدر، واحدة من أسوأ الأعمال في الفترة الأنجلو-سكسونية.

راهب المبتدئ (Novice Monk):

ليس لدينا سوى القليل من التفاصيل حول حياة الرهبان السلتبين؛ لأن قوانينهم كانت تنقل شفويًا، وبقيت غير مكتوبة. غير أن قاتمة حياة المجتمعات السلتبية وقوتها كانتا أسطوريتين. نحن نعلم بالتأكيد أنهم كانوا يصومون، وينقادون لطرق إهانة الجسد القاسية، وهي ممارسة مازالت موجودة في الحياة الروحانية الإيرلندية.

ونحن نعرف أيضاً أن الرهبان السلتبين كانوا مختلفين تماماً عن الصورة النموذجية التي نختزنهما عن الأخوة الرهبانية الاعتيادية. فإذا ما ذكر الراهب، استحضرت صورة رجل متتهج - كذلك التي قد تتشكل على هيبته بعض الأكواب - ذي رقعة جراء فوق رأسه، يرتدي لباساً

أسود ذات لمسة، ويردد بعض الأغاني التي تعود إلى العصور الوسطى، غير أنك مخطئ لا ريب. فقد ارتدى الرهبان السليطون أقمشة غير مصبوغة من صوف الخراف، وكان لهم أناشيدهم السليمة الخاصة بهم عند غناء الترانيم. وكانوا يتبعدون في أبنية أقرب إلى خيام الكشافة منها إلى الكاتدرائيات. حتى إن طريقة قص شعورهم كانت مختلفة؛ لأنها من موروثات الثقافة الرومانية، فقد اتبع الرهبان الطريقة التي كان يحلق بها العبيد رؤوسهم، لإظهار عبوديتهم لل المسيح. وبينما كان الرهبان اللاحقون يحلقون الجزء العلوي من الرأس، كان السليطون يحلقون شعرهم من الجبين إلى الخطوط الواصل بين الأذنين كما لو كان شعرهم يبدأ من تلك المنطقة.

إن السقيفة التي قد يسكن فيها الراهب المبتدئ عند دخوله الدير لا تختلف في بساطتها وبدائيتها عن تلك التي خرج منها قبل قدمه للترهب. وفي هذا السياق يقول بيده (Bede) «كان عدد البيوت الملاصقة للكنيسة قليلاً جداً، في الحقيقة، لم يكن هناك أكثر مما هو مطلوب لتأمين إقامة يومية للرهبان». وما لا شك فيه أن البيوت كانت مصنوعة من الخشب، والجدران المضفرة والطين، وكانت باردة جداً في الشتاء. وكان لكل راهب سريره الخاص، الذي لا يشبه بأي شكل فرشات سلمبرلاند. وورد عن كاهن اسمه أدونمن (Adomnon) أنه قال: «كان الصخر العاري أريكته، والحجر وسادته».

ولم يكن هناك وقت للراحة على الإطلاق، فلقد كانت حياتهم صلاة وتعبد، وتعد محيمات التدريب العسكري عند مقارتها بحياة الرهبان متجمعات ترفهية. كان على الرهبان النعسين أن يتقى كواfare أسرتهم القاسية في الساعة الثانية صباحاً لأداء صلاة الصبح، وكانت تستغرق ما يقارب الساعة. وكان في الأديرة الكبيرة ما يسمى بالموظفين، الذين كانوا يظفرون حاملين مصابيحهم لتهز وجوه أولئك الذين كانوا يبلغهم العباس. وبعد الانتهاء من صلاة الفجر، كان الرهبان يعودون إلى «زنزاناتهم»؛ ليأخذوا قسطاً من النوم قبل التسبيع عند الفجر، الذي عادة ما يتبعه قداس، فصلاة الساعة الثالثة من النهار، ويتبعها صلاة الساعة السادسة من النهار عند الظهر، فصلاة الساعة السابعة من النهار عند الساعة الثالثة، وصلاة الغروب عند الساعة السادسة، وقبل الذهاب إلى السرير مرة أخرى عند الساعة الثامنة أو التاسعة. وكانت هذه الصلوات طويلة، وباللغة اللاتينية. ولهذا ليس مستغرباً أن قسوة وساندهم لم تمنعهم من النوم مباشرة.

لم تكن حياة الرهبان قاسية فحسب، وإنما كانوا يخضعون لأنظمة قاسية، فلقد كانت هناك عقوبات محددة لعدد من الانتهاكات، التي كان أحدها سرقة نصف ساعة توم إضافية. وكانت هذه العقوبات المستمدّة من قواعد القديس بيندكت تتراوح من الضرب إلى الإسجاء أمام الأخوة الرهبان، و(الإسجاء) يعني: «أن يقوم مرتكب الذنب بالاستلقاء على الأرض، ووجهه للأسفل، دون أن ينطق بكلمة، أمام مدخل المشرب تحت أقدام المازين، وعليه القيام بهذا مراراً وتكراراً حتى يحكم رئيس الدير بانتهاء العقاب. وبناء عليه، وبعد أن ينصاع لأمر رئيس الدير، عليه أن يرمي نفسه على أقدام رئيس الدير، ثم أقدام الجميع لصلوا له بالغفران». ولكن معظم النظام والانقياد الموجودين كانوا ذاتي الدافع، فلقد كان الرهبان يشعرون أن الجسد يشكل عائقاً أمام حياة الروح، ولهذا سلم بعضهم أنفسهم لأفعال إهانة الجسد، في حين أن بعضهم الآخر مارس «الاستشهاد الأبيض»، إذ كانوا يعتزلون الناس عزلة تامة، ويقضون حياتهم في الصيام والصلوة. ولكن بعضاً منهم قد ذهب إلى أبعد من هذا، فالقديس كوثيرت (Cuthbert) من لينديسفارن (Lindesfarne) كان مشهوراً بأفعال التحمل التي كان يقوم بها، والتي نالت احترام السكسونيين القساة:

«وهنا أيضاً كما في أي موضع آخر، تجاوز كوثيرت المدى، فعندما كان ينام الآخرون كان يقضي ليه يقطان، ويعود إلى بيته في وقت صلاة الصبح. رأه أحد الأخوة في إحدى الليالي يخرج وحده، فبعثه ليرى ما سيفعل، وبعد مقدرة الدير توجه إلى البحر ونزل فيه حتى غمره الماء إلى عنقه وذراعيه، وقضى ليه بالذكر والتحميد، وعندما اقترب الفجر، خرج من الماء وسقط على ركبتيه يصلي، وبينما هو كذلك خرجت من البحر قصاصتان من ذوات الأرجل الأربع، وتمددتا أمامه على الرمال، وفتحتا على قدميه، ومسحتاهما بشعرها وبعد أن تلقتا مباركته، قفلتا عائذتين إلى موطنهما الأصلي. ثم عاد كوثيرت إلى البيت في الوقت المناسب للانضمام إلى الترتيلة الاعيادية مع باقي الأخوة».

كتاب يهدى حياة القديس كوثيرت

وإذا ما ظن مبتدئٌ قادم من الريف أن هذه الجرعة الهائلة من الروحانية، والتردد المكثف على الكنيسة سيحرره من الأعباء اليومية القاتلة، التي كان على الفلاح القيام بها، فإنه خطئٌ تماماً. كانت أحكام القديس بينيديكت تستند إلى وجهة النظر القاتلة بأن الروحانية شيءٌ ملائمٌ وذكور على الواقع عاليٍ. كان العمل دكتوراً أساسياً في حياة المؤمن، ولهذا كان عليه أن يقوم بقطع الخطب، ورعاية الأغنام، والحراثة، والمصاد، والانتماس في المزيد من الطرق الرهبانية. كانت ساعات العمل، لأسباب عملية، تتقلب مع تقلب الفصول، كما تنص عليه قاعدة القديس بينيديكت:

كانوا يخرجون - من عيد الفصح حتى مطلع أكتوبر - مع الفجر ليلة أربع ساعات للقيام بما عليهم من أعمال، ثم يكرسون الساعتين التاليتين للقراءة. وبعد سنتين ساعات، ويكونون حينها قد تناولوا أغذائهم، دعهم يستريحون في أمرتهم بهدوء تامٍ. وإذا أراد شخصٌ منهم أن يقرأ لنفسه، فدعوه يقم بذلك على ألا يزعج الآخرين. اجعل صلاة الساعة التاسعة مبكرةً بعض الشيء، حول منتصف الساعة الثامنة من النهار، ثم، دعهم يعملون مرة أخرى فيما هو ضروري حتى صلاة الغروب.

وبعيداً عن الأعمال اليومية الاعتيادية، كان هناك مهمة خاصة قام بها الرهبان تستحق أن تسمى أسوأ مهنة.

الناسخ المخرف (Illuminator):

إن أكثر ما تشتهر به كنائس أديرة لينديسفارن (Lindesfarne) وأيونا (Iona) هي خطوطاتها المخرفة. فقد كان لكل دير غرفة كتابية، أو نسخٌ تصنع فيها الكتب وتنسخ. وكثيراً ما من أئمة الدير، كانت غرفة النسخ لا تعلو كونها بناءً مسقوفاً بقش حاف، وفي مثل هذه الأكواخ البسيطة، تم حفظ المعرفة الأوروبية للأجيال اللاحقة. كانت عملية نسخ الكتب في الأيام المظلمة للقرنين السادس والسابع، لا تعلو جزءاً من المجهود التبشيري العظيم لحفظ الثقافة

المسيحية، وكانت توكل عملية النسخ للإخوة الأقل نباهة.

كان الأنجليل ضرورياً للنشاطات التبشيرية للكنيسة. وعلى الرغم من أن معظم الوعظ والتبشير كان يتم عبر الكلمة المحكية، إلا أن الكنايس والأديرة كانت تحرص على المرجعية المذهبية. وهذا أدى إلى طلب شديد على النصوص المخطوطة، فقد كان المبشرون البريطانيون المنشرون في مختلف أرجاء القارة، يرسلون مطالبات عاجلة لمراكزهم في الوطن، لتزويدهم بالأعمال المسيحية الأساسية. كان الاهتمام منصبًا على ما كان يدعى بالصفحات السجادية المحكمة، والمفصلة في المخطوطات السليمة، ولكن العمل المضني الحقيقي هو عملية نسخ هذه الكتب صحفة تلو الأخرى. لقد أعاد الرهبان إنتاج جميع أنواع الكتب، فاهتماماتهم لم تكن مقتصرة على الأنجليل، والأعمال المتعلقة بالطقوس الدينية، وعلم اللاهوت، وأعمال الآباء الأوائل في الكنيسة فحسب، وإنما امتدت لطالع النصوص الكلاسيكية لمؤلفين كامثال: سيسرو، وأفلاطون، وسفراط. فإذا اعتقدت أن هذا العمل سهلٌ عند مقارنته بالخرافة، فلابد أن تدعوك إلى إعادة النظر في الموضوع.

وتحذر بعض الصور التشخيصية من العصور الوسطى بعض الرهبان يكتبون في كتب مجلدة، غير أن هذه الصورة كانت خيالاً أخضأ. فالكتابية كانت تتم على أوراق منفصلة من الرق المصنوع من جلد الحيوانات، وتضم هذه الأوراق إلى بعضها لإنتاج كتاب. كانوا يعملون وهم جلوس على مقاعد طويلة، واستخدمو قرون الحيوانات محابر كانوا بحق ينفثون الحروف على الأوراق، وعندما كانوا يتنهرون من ضبط الأسطر التأكيد من استقامتها، كان عليهم نقب الرق لضبط دليل لل نقاط على الحروف. وبدأ العمل أشبة بالوشم منه بالكتابة بقلم حبر سائل. كان الخبر صعب المسح، ولهذا كان هذا العمل الصعب مهماً جداً لأنه خالي من الأخطاء. وتحذير على النساخين صنع كل شيء يحتاجونه في عملهم، فللحصول على الخبر، كان عليهم البحث عن شجرة بلوط مناسبة، والبحث فيها عن بوض الزناير التي تضعها عادةً في خاء الشجر قبل أن تموت بعد ذلك، ويتحجّي البيض، عندما يبدأ بالتفقيس، بعض اللعاب، الذي قد يثير استجابة في اللحاء متوجاً طبقة قاسية حول البرقات تعرف بالعنفة. وللعنفة جدارٌ خارجيٌّ، وطبقة من تسييج إسفنجيٍّ، وشكلٌ داخليٌّ صلبٌ يشبه البذرة، وداخلها كانت البرقات الزنبورية تنمو. يجمع الرهبان تلك العقد من الأشجار ويسحقونها بالمدق والجرن،



آدت المجتمعات السليمة الرهبانية دوراً مهماً في تقديم إسهامات خاصة بها في الفن الغربي، إضافة إلى دورها في حفظ المخضارة الائتمانية، ونشر معرفة القراءة والكتابة، والرسسمية. ولقد المحظوظات المchorرة واحدة من أعظم الأعمال الفنية التي تم إنتاجها في أوروبا الغربية، كما تعد واحدة من أفضل الأعمال المنتجة في بريطانيا قبل عصر البهضة. لقد تم إنتاج كتاب كيلز العظيم في منطقة آيرلندا، وتم إنتاج إنجيل لينديز فارن تكريماً للقديس كولبرت على يد أبيلبرت، زهاء العام 700 بعد الميلاد في هولي أبلاند. ونظهر في الصورة الصفحة الأولى لإنجيل القديس لوك، التي تعد شيئاً من قصص إرث تاريخي عظيم.

الـ

ويخلطونها بحامض الكبريتيك، والصخغ العربي مع إضافة الخل، وبياض البيض، وماء المطر والبيرة، أو الخمر للحصول على الكاتفة والتوازن الحمضي المطلوبين.

كان الرهبان، عند انتهاءهم من صنع مستلزمات الكتابة، يذودون العمل المضني. ولم يكن شمال شرق إنجلترا بالمكان الملائم لقضاء ساعات طوال في الجلوس دون تدفئة، غير أن هذا كان وضع رهبان لانديسفارن. واعتمد الرهبان على ضوء النهار للحفاظ على بصرهم، بيد أن النوافذ لم تكن مزجاجة في العصور المظلمة. وكثيراً ما شكا الرهبان من صعوبة الكتابة في أ��واخهم المفتوحة لتيارات الهواء. كان النسخ بطيناً إلى حد بعيد، ويطلب كثيراً من التركيز، وأمكن معالجة أخطاء ثانية عمسحها باستخدام سكين، لكن بقعة كبيرة قد تعنى إعادة العمل من جديد. وعلى الرغم من أن النساخ كانوا يقضون وقتهم جالسين بلا حراك، إلا أن عملهم كان مضنياً للجسد.

ترك لنا بعض الرهبان غير المعروفين سجلاً توثيقياً عن شعورهم تجاه هذا العمل السيئ. ففي بعض مخطوطات العصور الوسطى، ترك بعضهم إشارات عابثة على هواشم نصوصهم، مشيرين إلى ما مرروا به من ظروف إنسانية مريءة خلال عملهم في حفظ الثقافة الغربية قبل عصر الطباعة. شكا أحدهم قائلاً: «إن فن الكتابة شديد الصعوبة، فهو يتعب العين، ويولم الظهر، ويؤدي إلى تشنجات في الأذرع والأرجل». وقال آخر بساطة: «يا إلهي إن الجرّ زجاجة من الخمر».

لقد أتت هولاً، النساخ أعمالاً لا تنسى، وذات قيمة عالية. ولقد كانت المخطوطات الأكثر أهمية تحاط بأغلفة مكسوة بالجلواهر والمعادن النفيسة. وتتجزأ عن هذا أن أصبحت الأديرة أهدافاً للغزاة، فعندما بدأ الفايكنج في شن غارات على الأرض البريطانية إبان القرن الثامن، تعرضت بعض الأعمال التي استغرق إنتاجها مئات الساعات من العمل المضني للسرقة من أجل غلافها، أو اقتدي بعضها وأعيد إلى المجتمع. قام الفايكنج عام 793 بتدمير لانديسفارن وسرقوا الأنجليل المشهورة. وما يطلع الصدر أنها استرجعت بعد غرقها في البحر.

اصبحت هذه الغارات، على مدى مئة سنة لاحقة أسوأ وأسوأ. نزل جيش الفايكنج العظيم أرض أنجليا الشرقية (East Anglia) عام 875، وهزم الغزاة الإسكندنافيون مملكتاً

استيقظ ليجد ألسنة اللهب تشتعل عالياً في الهواء - أنه قد خسر أطناناً من الفحم وأياماً من العمل المضني. ولتجنب حصول ذلك الشيء، كان على الفحام الجلوس على مقاعد ذات رجل واحدة، فهو عرضة للسقوط في آية لحظة قد يتحمّل فيها رأسه وبعثشه النعاس.

عاش الفحامون حياة شبه بدوية في الغابات، فقد كانوا يخيمون حيث يعلمون. وتحدّدت مساكنهم، وفقاً لحاجتهم إلى مرافق الفرن باستمرار. وعملوا جنباً إلى جنب مع الخطابين، واستخدمو الخشب الصغير، أو ذاك الذي لا يصلح للبناء. كان عليهم جمع التي عشر طناً من الخشب - كأيكة البندق، والبلوط والزان الأبيض - لإنتاج ثلاثة أطنان من الفحم. وتوجب عليهم قضاء يوم آخر في تقليب التربة لتشكيل كومة ضخمة قطرها سبعة أمتار، وحينها فقط يصبح الفحامون جاهزين لبدء أعمالهم.

بدأ عمل الفحام مرهقاً، فحتى إن كان هناك من يساعده ليتّابع معه على المراقبة، فإن ذلك يعني نفطاً غير طبيعي من النوم. والعمل غير صحي أيضاً، فقد استنشق الفحام دخان الخشب المحترق دائماً.

وكان على الفحام - فور إكمال عملية التفحيم - أن يقوم بتفريغ الفرن، ومن الضوري في هذه الحالة، أن يتأكد من أن الفحم قد وصل إلى البرودة المطلوبة، وإلا فإنه سيشتعل مرة أخرى من غير سابق تحذير. كان عليه - بعد انتهاء فترة مناوبته - التي قد تدوم الثنتين وسبعين ساعة، أو ستة وسبعين ساعة، أن يقوم بتفريغ الفرن ليلاً. ففي ضوء النهار، يكون الفحم الساخن أبيض اللون، غير أنه يتقدّم في الظلام بلون أحمر.

وكان هناك عمل آخر عليه القيام به قبل أن ينتقل إلى مستعمرة جديدة بحثاً عن عمل، فقد توجّب عليه أن يحرف ويعيّن التربة المحترقة من قاع الكومة في أكياس. فهذه التربة تعد مصدرأً قيماً يوازي في أهميتها قيمة الفحم نفسه. فهي المادة الوحيدة، التي قد تشكّل غطاء فعالاً لفرنه التالي، وذلك لأن التربة الطبيعية كبيرة المسامات.

ويتلقي الفحام مقابل كل هذا العمل نراراً يسيرأ من التقدير على المستويين المادي والنفسي. يبد أن هذا العمل كان شائعاً. وبعد مشهد الفحام، عبر تاريخ بريطانيا المعتد إلى أقصى عام، واحداً من المشاهد المألوفة. بل إن عمل الفحام واحد من أسوأ الأعمال الأطول عمرأ في هذا الكتاب. ففي أيامنا هذه ما زال ثمة فحامون. أعلم إذا ما اشتريت كيس فحم بريطاني تقليدي

من أحد المحال المحلية، أن هذا الفحم قد أعده واحد من يقاربون ألف فحّام، ما يزالون فاعلين في غابات بريطانيا وأحراجها هذه الأيام.

كيف تحرق الفحم

تحتاج إلى ثلاثين أو أربعين ساعة من فراغك، وبعض الحبوب المعينة على القطة وأربعة أطنان من الخشب، والنتيجة هي طن واحد من الفحم وبعض الإضافات الفريدة لمفرداتك.



1. هي حفترتك: أزّل الطبقة العشبية من دائرة قطرها ما يقارب الثلاثة أمتار، تخلص من الحجارة؛ لأنها قد تنفجر في درجة الحرارة العالية.



2. راكم كومتك: كُوم كومة ضخمة من الخشب حول وتد مركزي مستخدما الأغصان والقطع الثانوية. ضع وتدًا في الأعلى، فيه فراغ في منتصفه، لتمكن من إزالته بسهولة. اجمع أجمة السرخس والختشار، وراكمها فوق المخطب، وغribل التربة التي تم حرقها سابقاً لصنع طبقة خارجية للكومة بأكملها. وتسمى هذه الطبقة (sammael) راكمة فوق كومة الخشب، والسرخس، والختشار لتشكيل طبقة لا ينفذ منها الهواء، وعلى ارتفاع خمسة عشر سنتيمتراً، اترك فتحة تسمى



(flipe) وتسمح هذه للهواء بدخول الكومة من الأسفل.



3. أشعل النار: انصب مصادر الرياح والأغصان الملوثة، التي كانت تسمى بالطبقة الغضة، والهدف منها لا تؤثر الرياح على النار.

اسحب الوتد ذا المقبض، أسقط بعض الفحم المشتعل، وعند إشعال النار، ابدأ بتكوين الفحم، وأغلق الكومة بطبقة عشبية. وتسمى هذه العملية بالخاتمة. ملاحظة: تستمر العملية الأخيرة ست ساعات من لحظة إشعال النار، وذلك عندما تبلغ درجة الحرارة 270 درجة مئوية. احفر ثقباً في أعلى الكومة، وراقب الدخان. يتغير الدخان من أبيض إلى بني ثم إلى أزرق، وهذه هي اللحظة الحرجة. فعندما يجف الخشب نتيجة الاحتراق، تبدأ طبقة التربة الواقية بالتشقق، وإذا حصل هذا فإن الكثير من الهواء سيدخل وستحرق كومة الخشب. وهذه الطبقة دائمة التقلص، ولهذا ستظهر التشققات بشكل مستمر.أغلق الثقوب عندما يتغير الدخان ليصبح أزرق، واجعل هناك أخرى في أسفل التل، وذلك لأن الفحم يحترق من الأعلى إلى الأسفل. ويكون الخشب جميعه، عندما يبدأ الدخان الأزرق بالخروج من أسفل ثقب، قد تحول إلى فحم.

4. أطفي الكومة: أقلب جزءاً من طبقة التربة المحمصة بينما يقوم مساعدك برش الماء على الكومة. ثمأغلق الكومة وراقبها أربعاء وعشرين ساعة حتى تبرد قليلاً. ثم أخرج الفحم.

ولكن إذا كان الفحم لا يكافأ بما يليق بجهده وساعات عمله الطويلة، فإنه على الأقل قد

يحصل على بعض التعويض على عمله الشاق. وعلى أي حال، هناك من يدين بعمله للفحص الذي صنعته الفحام، ولكنه لم يكن أوفر حظاً من الفحام.

سأك العملة (Coin Thrall):

أقام الملك ألفرد نظاماً من المخصوصون، كان بعضها مستعمرات رومانية تم تجديدها، في حين أن بعضها الآخر كان جديداً تماماً، وبنى من الأخشاب والتراب. كانت المخصوصون تاجحة جداً كفواحد في صد الفايكنغ. وشعر التجار بالأمان لإنشاء بعض الأعمال داخل جدران تلك المخصوصون، حتى إن بعضهم سرعان ما بدأ بإدارة دور لسك العملة. ومع الوقت ازدهرت بعض هذه المستعمرات، وأصبحت بعض أولي مدن إنجلترا الناجحة.

وقد سُكت العملة في بريطانيا قبل العصر الروماني. ييد أن السكسوتين هم من أدخل العملة الرئيسية: القرش عام 765. كان اقتصاد العصور المظلمة في معظمها يقوم على المقايضة والدفع بالمثل، ولكن - ومع استقرار البلد - أصبح سك العملة أكثر أهمية. وقد تلقى سك العملة والتجارة دعماً إضافياً عندما قام ألفرد العظيم بصد الفايكنغ إلى منطقة دانلور.

وخصصت دور سك العملة رسمياً إلى إدارة الملك المباشرة. غير أن الملك من الأثرياء تراخيص لفتح دور سك العملة، وزودهم بالأصياغ والقوالب لإناج العملات الرسمية، وكان هؤلاء الأثرياء قادرين - بكل ما تحمله الكلمة من معنى - على كسب ثروات طائلة عبر سك العملة المحلية باسم الملك، غير أن أرباحهم لم يصل منها شيء إلى العاملين معهم. ولم يتلق هؤلاء العمال أجراً ثابتاً، وإنما كانوا في العادة عبيداً، تلقى على عاتقهم مهمة محطة، تتمثل في قضاء يومهم وهو يسكن العملة، بينما لا يتلقون قرشاً واحداً كأجر. غير أن قلة المال لم تعرّض عبر الرضا الوظيفي. كان عملهم النسخة الأولى من أكثر الأعمال ذات التفاصيل إملاً.

ويتلخص عمل سأك العملة في طبع الخاتم على العملة. كان الحداد يسخن قضيب الفضة، مستخدماً الفحم، حتى يصبح أحمر اللون، ثم يقوم بتبريد، لا في الماء طبعاً، وإنما في مادة قد تجري كجدول ذهبي، إذا ما أسلت على هذا الكتاب، وهي واحدة من أكثر المواد تنوعاً في عالم أسوأ الأعمال. هذه المادة هي البول القديم. إن المعادن الموجودة في البول، تجعله فعالاً

كان لكل ملك على في المصور
السكنونية الأولى عملة تقدمة
خاصة به. وقد صنع هذا البيبي
للملك أولا، ملك مورشا (757-
796 بعد الميلاد)، وهو الملك الذي
قام ببناء سد أولا.



في تبريد الفضة بسرعة. وبعد أن يبرد، يطرق القصيب ليصبح منبسطاً، ثم تقص أسطوانات فارغة منه عبر أداة قاطعة تشبه مقص المعجנות، أو يدوياً، ثم يتم تشذيبها. وبعد ذلك تأتي لحظة مجد ساك العملة، فيوضع القطعة الفارغة على قالب يحمل نقشاً مثبتاً على نضد، ثم يضع قالباً آخر من الأعلى، ويدأ في طرقه بمطرقة، مما يترك نقشاً على جانبي العملة.

يحتاج وصف هذه العملية، بأجمل طريقة ممكنة إلىأربعين كلمة. ولكن العمل نفسه لم يُرُق إلى نصف متعة وصفه. كان ساك العملة يعمل يوماً ثلو الآخر بين أكواخ من الصفائح الفضية، مشكلامئات الكيلووات من العملة. ولهذا كانت إغراءات السرقة كبيرة جداً. ولا بد أن نفسه قد راودته مراراً السرقة بعضها. ولكن إذا ما طارعها، فإن العقوبة شديدة القسوة. فإذا ما وُجدت النقود صغيرة الحجم، فإن ساك العملة كان أول من يشار إليه بأصابع الاتهام أنه قص جزءاً منها. ويستطيع الساك، إذا قص من القطع ما يزيد على الحد، أن يشكل عزونا من الرفاقات التي يمكن صهرها وبيعها. وتعد هذه الفعلة تشويهاً لصورة الملك (وهي

كذلك حتى يومنا هذا) وسرقة في الآن نفسه، وكان مرتكبها يعاقب بإخضانه. لم يكن قيم دار السك يأمن إذا ما أراد أن يختلس شيئاً، فقد كان يتعرض لغير أحد أعضائه، إذا وجد أنه كان ينقص من وزن العملة، أو يستخدم خليطاً خاطئاً من المعادن. وفي عهد حفيد الفرد، آيثيلستن (Aethelsten)، كان لكل مدينة مخصصة دار سك يقوم عليها عدد من المشرفين. سن الملك بنفسه نظاماً من القوانين الصارمة للتحكم بوزن العملة وجودتها:

يجب أن تكون هناك عملة واحدة فوق الأراضي الخاضعة للملك، وألا يكون لأي دارة سك نقود مرقاً، أو أن تكون قرية من مرقاً. وإذا ما وجد ساكن النقود مذنبًا، تقطع يده لقاء ما اقترفت من ذنب، وتتعلق في دار سك النقود لتبقى تذكاراً ووصمة على ذلك الشخص، ولتطهير نفسه، يؤخذ الحديد الساخن، وتقطع تلك اليد التي ارتكبت الجرم. وإذا ثبت أن مذنب،



يظهر لنا أولاس ماغنوس (Olaus Magnus) عام 1555 بعض ساكتي العملة المخترفين، وهم يرتدون ثياباً جيدة، ويطركون صالح مدينة ساحة عليها صليب. قبل ثمائة عام كان ساكتي العملة يرتدون خرقاً بالية، ويجهدون في حشم تصميم محمد على أغطية أسفر حجمها.

فإن هذا العقاب يغدو سُنة لكل من تراوده نفسه بالقيام بمثل ما قام به.

ولسوء الحظ، ذهب نصيب كبير من عمل ساكن النقود المرهق للخارج في عمليات تصدير غير مقصودة. فلم تخف حدة عمليات توسيع الفايكنغ حتى بداية القرن الحادى عشر. وبذلأً من أن يقوم الملك الإنجليزي إثيلريد (Ethelred) القليل الخبرة، والذي كان يفتقر إلى النصح، بمحشد شعبه للنذود عن حدود مملكته كما فعل الملك ألف الفرد، حاول ببساطة أن يشتري السلام بدفع جزية، أو ما كان يسمى بدانغلد (Danegeld). وعندت هذه الخطوة، شكلاً تقليلاً من أشكال الحماية المالية لوقف سلب الفايكنغ لملكته. دفع الملك للفايكنغ عام 991م، ذهباً يزن عشرة آلاف كيلوغراماً. ولكن عندما أدرك الفايكنغ أن إثيلريد غض البنان، رجعوا طالبين المزيد، ودفع لهم عام 1012م، عشرين ألف كيلوغرام من الجزية. ولكنهم أن تخيلوا وقع هذه الفعلة على الاقتصاد. كان عدد القطع النقدية الإنجليزية السكسونية التي وجدت في الدثارك يكافي عدد تلك التي وجدت في إنجلترا. ولكن ماذا عن الفايكنغ؟ لقد جعلوا حياة جميع من يقطن في دائرة غاراتهم المنطلقة من الساحل بائسة. ولكن توجب عليهم هم أنفسهم القيام ببعض الأعمال البايسة.

أسوء أعمال الفايكنغ

إن الصورة التي غلوكها عن الفايكنغ هي الصورة نفسها التي أرادوها لأنفسهم. كانوا يقفزون من سفنهم التي تحمل رؤوس التنانين، مسرعين عبر الساحل بكل عددهم ولباسهم العربي، متقطعين بلا رحمة على أعدائهم الذين تملّكتهم الخوف. فهوؤلاء هم الفايكنغ، الذين لا يليق بهم سوى الملاحم. ولكن لم تكن خوذهم ذات قرون، فهذه الصورة من محض خيال رسامي الكرتون، والرجال العارضين أجسادهم في حفلات وداع العروس، بل كانوا يدركون في قرارته أنفسهم أنهم أبطال، وأن البطولة تليق بهم. كانت حضارتهم، مثل السكسونيين تماماً، تقوم على المحارب، وكان أعظم مجد فيها الشجاعة الفردية العسكرية، حتى إن جنفهم فالهالا (Valhala) كانت نسخة ربانية من وليمة نصر محارب. كان لدى



الفايكنغ أسماء مشهورة كارييك بلوذكس (Eric Bloodaxe) وثورفين العظيم (Thorfinn the Mighty)، كانوا يحرصون على أن تهول إنجازاتهم في شعرهم الشعبي. ولم يكن هناك شك أنهم قساة، فقد كان عليهم أن يكونوا كذلك. ولি�غزوا، كان عليهم تحشيم مشقات كبيرة. إذ كانوا يقضون ليال طوال على متن قوارب مفتوحة في البحر الشمالي ذي البرد القارس.

وكانت سفنهم السريعة مصنوعة من ألواح خشبية متداخلة، وعني بذلك أنها مبنية حول عارضة صلبة تمد من المقدمة إلى المؤخرة، ثم ثبت ألواح متداخلة على طول الخط المركزي، إما بتسميرها، أو ربطها بالحبال ببساطة، مما قد ينحنيها المزيد من المرونة؛ لتمكن من ركوب الأمواج، بدلاً من أن تتحمل تأثير الأمواج العاتية. غير أن طريقة الصنع هذه كان لها بعض السلبيات، فقد كان هناك فجوات بين الصفائح، يتمملوها عادة بالطحالب، وشعر الحيوانات والقطران. لكن هذا لم يمنع منبقاء السفينة عرضة للغرق. ولهذا كان هناك



قارب طوبل ذي انعطافات أنيقة معروض في متحف سفن الفايكنغ. وبعد هذا القارب واحداً من السفن التي أغرقت في المحرف البحري زهاء عام 1180، لتكون مصدراً للغزارة.

من يقوم بوضع الماء باستمرار وتحت كل الظروف. وأشارت القصة البطولية الأيسلندية (Grettir's saga)، التي تعود إلى القرن الرابع عشر إلى «عملية نضع الماء بالدلل أو الوعاء، أنها عملية شاقة ومضنية». وكان الطاقم المبتلى بقارب يتسرّب الماء إليه، يتذمر من أن أصابع أفراده قد أصبحت متجمدة وأصابها الخدر. وقد اكتسب البطل غريتير (Grittir) أصلقاوه من خلال نضحه الماء على وتره سرعة، كانت تحتاج لثمانية رجال كي يفرغوا الدلاء التي كان يتناولهم إياها من قاع القارب.

وأشارت قصة بطولية أخرى تسمى البحار (The Seafarer) إلى المعاناة التي كانوا يتحملونها في البحر:

كيف قاسبت مراراً وتكراراً في أوقات عسرة،
أيام الكدح؟ وكيف دافعت
اللوحة المربربة؟ إن وطني التأرجح
على ظهر سفينة تقاذفها الأمواج
حيث كان تصيبني منها مناوية ليلية كثيبة
على مقدمة المركب بينما يمر بالجروف.
كنت وقد أخذتني البرد، وكبل الجليد قدمي بأغلال جليدية
أغلقى بالمشاكل التي أحاطت بيلى،
وكان الجمود ينزع روحى التي أتعبهما البحر.
لا يعرف، من يعيش هونا على اليابسة، كيف
أني قضيت شتائين في البحر القارس؟
بانساً وقلقاً في دروب المحن،
معتقداً الأصدقاء الأعزاء، ومحاطاً بالكل الجليدية المتسلية
 بينما كان البرد يتسلط زخات.

ولكن النوم في أعلى البحار، ووصول الخدر إلى يديك، لم يكن سوى بداية مشاكل الفايكنغ. عادة ما كان العمل الشاق يبدأ عند رؤية اليابسة، وإصدار القبطان أو أمره بنقل البضائع إلى البر بالتعديه.

حمل البضائع (Portager)

عندما يصدر الأمر بنقل البضائع، كان كل من على السفينة، من فيهم النساء، يغدون حمالين. وكان هذا العمل صعباً للغاية، فقد كان الفايكنغ -إذا طلب العمل ذلك- يحملون سفنهم الطويلة، وهي التي صنعت خصيصاً للماء، ويدفعونها فوق اليابسة. لم يكن العمل بهذا الجنون دوماً، فقد كان لدى الفايكنغ سفن فيها أحدث تكنولوجيا عصرها، إذ كان بإمكانهم -إذا أبحروا- الوصول من الدنمارك إلى بريطانيا في يوم وليلة. لكنهم كانوا يلحوظون، عند اقترابهم من الشاطئ، أو في أوقات لا تجري فيها الرياح حسب ما يشهرون، إلى استخدام قوة العضلات التي قد تقصم الظهرور. وحينها تنزل السارية وتخرج المجاديف، ويعرف من جدف في قارب منا، بشكل جدي، مدى صعوبة هذا الأمر. تخيل أن تبحر عكس الريح والمد أياماً متواصلة. كان الفايكنغ إذا وقفوا أمام مضيقين بحرين، أو نهرين أو خليجين تفصلهما مسافة ضيقة من اليابسة، يختارون نقل السفينة فوق اليابسة. وبدا يستطيعون -عبر اتباع هذه التقنية- القفز فوق الأنهار، واختراق مساحات كبيرة من اليابسة لم يتوقع عدوهم وصولهم إليها.

نعرف عن التعذية عند الرومان، من خلال الرسوم التي أدرجها الفنان أولوس ماجنوس (Olaus Magnus) في كتابه حول تاريخ اسكندنافيا، المنشور عام 1000. فقد كان على الفايكنغ رغم قسوة العمل، التعامل مع القارب برفق كي لا يلحقه دمار من أي نوع، وكانت ألواح سفن الفايكنغ لا تعلو عن كونها جذوع أشجار نثرت بشكل نصف قطري، مما جعل هذه العملية دقيقة وتطلب وقتاً طويلاً، ولهذا لم تكن عمليات الإصلاح بعيداً عن الوطن بالفكرة الجديدة. قام الفايكنغ، لحماية العارضة الرئيسية ومنع سقوطهم من الغوص في الأرض، بدفع قواربهم على مجرى خشبي.

فقد كانوا في بداية الأمر يدفعون المركب إلى الشاطئ، ويتخلصون من الوزن الميت كله -ونقصد به السواري، والصناديق والحبال الزائدة وما كان على شاكتها. ثم يقطعون الجذوع الخشبية إلى أنصاف، ويرصونها جنباً إلى جنب بعد وضع الجانب المنبسط إلى الأسفل، بروابيا حادة بالاتجاه المراد نقل السفينة إليه. وكانت الفكرة هي الآتي: فمع اندفاع السفينة فوق المدرج، كان على مجموعة من الرجال الإسراع لسحب الألواح الخشبية التي تجاوزتها السفينة

لنقلها أمامها مجدداً، ولجعل العملية أسهل، دهنو الألواح بالزيت. وتقول أحدث النظريات أن الزيت المستخدم كان زيت سمك الهلبوت، على الرغم من أن أي شيء قد يفي بالغرض. وعلى الأرجح أنهم استخدمو أحشاء السمك المتوفن، أو السمك الصغير، أو حتى الشحم المتبقى من وليمة غنية بالسعرات. لا بد أن رائحة سمك الأسماق التي مضى على طبخه أسبوعان، بعد دهنها على جذوع الصنوبر لم تكن من دواعي الفخر في حياة القايكينg الملحمية. وعلى أيام حال، فإنه إذا قدر لك عيش بؤس حياة الحمالين القاسية، فستكون شاكر الزيت للسمك. ولقد أدخلت المجاديف الطويلة - التي عادة ما تسبب تقرح الأيدي في غضون دقائق - في فتحات صغيرة على جانبي السفينة، ويستخدمها الدافعون في إثراز تقدم ملحوظ. ثم، يقوم الفريق بسحب السفينة نحو الأمام، ويكون الطاقم مقسماً بين دافعي



بعض الرجال على متن نسخة من سفينة القايكينg هيرفن. ويستطيع قوارب الصين المجهزة ذات الرأس المميز أن تكتسب - بوجود الرياح الملاعة - سرعة تعادل سرعة القوارب ذات المراكب هذه الأيام.

السفينة، وناقلى الجندي، وأولئك الذين يوجهون السفينة في منتصف الرصيف المتد من الجندي. وتتمكن الخدعة في التوقيت. وتندفع السفينة بسرعة بمجرد إحراز حركة قوية. غير أن موضع الخطأ يمكن في أن تخرج السفينة عن مسارها، وتتجه نحو الأرض، أو أن تکبح إلى حد الوقوف لعدم وجود درج تنزلق عليه، لأن ناقل الجندي لم يتمكنوا من مواكبة تقدم السفينة. ومن المؤكد أن هذا العمل سيشعل حرارة عالية فيك، وبشعرك بالإنهاك، وستفوح منه رائحة السمك العفنة، وقد تشعر بعض الراحة عند شعورك بالبهجة؛ أن السفينة قد ازلقت أخيراً في الماء حيثما قررت لها.

ولكن وبعد أن يصل الفايكنغ الأرقاء لأيديهم، فما الطعام الذي قد يتوقعون إلى تناوله على العشاء احتفالاً بتحقيق هدفهم؟ كانت خياراتهم محدودة، فقد كان ثمة سمك طازج، وآخر مدخن، وسمك قد مالح وفاس كالصخر، أو بعض الطعام الشهي الذي جعل استهلاك الفايكنغ له واحداً من أسوأ الأعمال. وتعني بهذا الطعام سمك القرش المخمر.

ومازال هذا الطعام لدينا حتى هذا اليوم في أيرلندا وغرينلاند، على الرغم من أنه ليس له حضور في ساحة الطعام اللندنية. ولا بد أن هناك من حاول أن يتنزق لحم سمك القرش غرينلاند الطازج دون أن يخمره. بيد أنهم لم يكتبوا عن عملية التخمير؛ لأنها كانت تقوم على استخدام السيناريد. ولكي يصبح السمك آمناً للأكل، كان يدفن في الأرض (بعد إزالته أحشائه والغضروف والرأس). ويترك مدفوناً في الأرض مدة ستة أسابيع صيفاً، وثلاثة أشهر شتاء. وخلال هذه الفترة تقوم البكتيريا باختراق السيناريد، ويندأ السائل بالتدفق من لحم سمك القرش. ويعتقد بعض المؤرخين أنه في العصور القديمة كانت العملية البكتيرية تبدأ بالثبور على اللحم قبل دفنه، ويكون سمك القرش المخمر، عندما يبدأ بالظهور من قوه، تماماً وله رائحة الأمونيا. وبعدها يتم غسله وتعليقه في كوخ تجفيف مدة شهرين. وبعد ذلك، يمكن إزالته القشرة المشكّلة فوقه، وتقطيع السمك إلى أجزاء صغيرة والأكل بهم شديد، وحيث أنها تحتل السمك قوام الجبنة الناعمة.

وهكذا، رأينا كيف أن الفايكنغ قد تناولوا طعاماً كريهاً، وكيف أن حياتهم كانت قاسية إلى حد التزول من السفينة، ودفعها فوق اليابسة، ولكن كل عمل قاموا به عذ نزهة عند مقارنته بأسوأ الأعمال على الإطلاق.

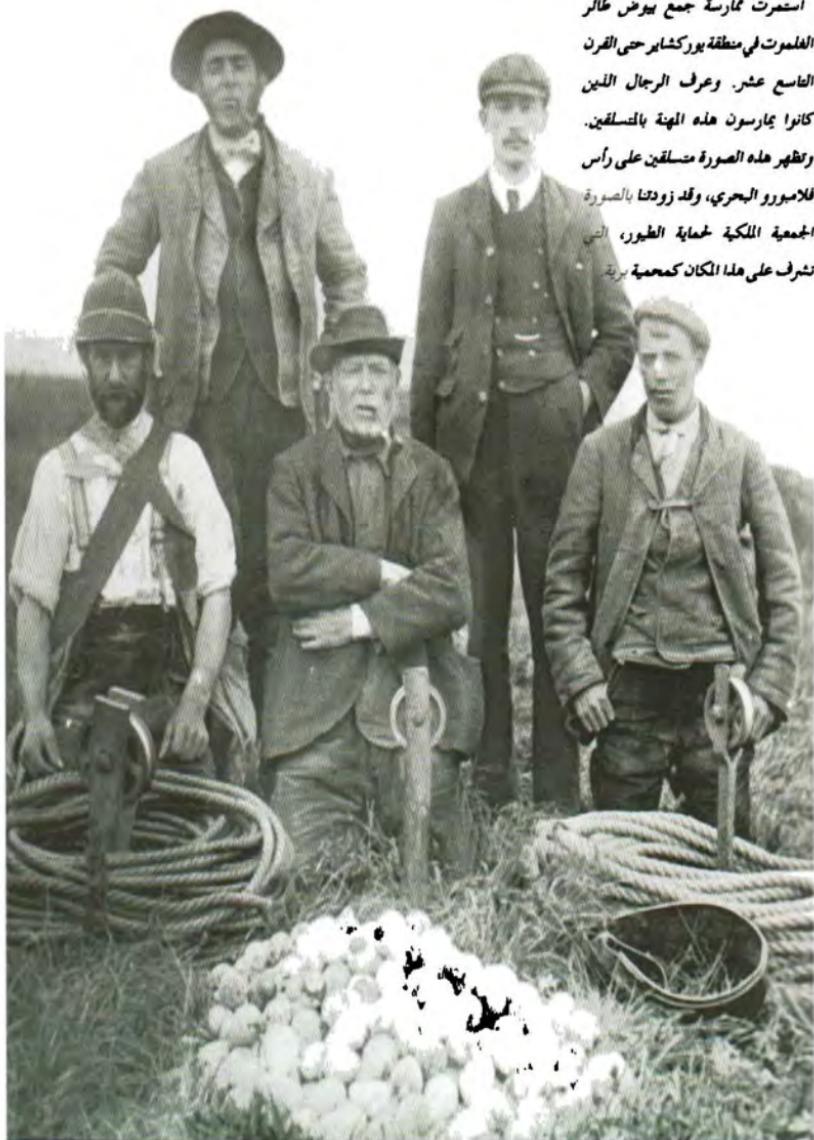


لم يسبق لي أن قمت بالانحدار من على سفح مرتفع إلا عندما قمت بالنزول على هذا الجرف البالغ ارتفاعه 100 متر بحثاً عن البيض، بعض الدجاج لا يعيش طاهر الغلموت المحظمة. فقدت خلال هذه العملية، حلقتي السكسوني الجلداني، والتي هي في الأمر بعض الإصابات في الركبتين واللذتين، وهو سعر باهظ قد يدفعه أي شخص مقابل أكل العجة.

وقد تحدث حوادث بالطبع، فالجبل قد يهتزء على الصخور الحادة، وقد تحصل بعض العقد. ولكن الخوف من المرتفعات والشعور الدائم بالتعرض للخطر ليس لهما علاقة باحتمالية حدوث شيء خطأني. لا بد أن عمل جمع بعض قد بدا خطراً حتى عندما كان يسر العمل على خير ما يرام.

كان العمل شاقاً إلى أبعد حد. فطيور الغلموت تضع بيضها في أفاريز الجروف الصخرية، التي كانت طويلة وحادة، ولهذا كان على جامعي البيض الدوران حول محورها بدلاً من الاقتراب من الجروف من جوانبها، ثم الالتفاف عليها. ولكنهم مازالوا معرضين للخطر، حتى إن أمنوا هذه المخاطر. كان على جامع البيض أن يتحرك بهدوء ورفق، بين الطيور الهاجمة. إن أية حركة مفاجئة، أو انزلاق قد تدفع أعداداً ضخمة من طيور الغلموت لإطلاق

استمرت ممارسة جمع بروض طار
اللهموت في منطقة بوركتشير حتى القرن
الحادي عشر. وعرف الرجال الذين
كانوا يمارسون هذه المهنة بالمسلفين.
وتشير هذه الصورة متسلفين على رأس
للامبراطور البحري، وقد زودتنا بالصورة
المجعية الملكية لحماية الطيور، التي
تشرف على هذا المكان كمتحف بري.



صوت حاد جداً على وجهه الجرف، مسقطة البيض عند مغادرتها. تتطلب الحركة دون إزعاج الطيور قوة عظيمة، ومسكاً بالحبل لتجنب جرح ملقي العقدين. كان وجه الجرف معرضًا لأحوال الجو المختلفة، التي كان معظمها سيناءً وعادةً ما تترك الأعداد الضخمة من الطيور البحرية المعروفة زلة، مما تتجه من فضلات. إن زلة قدم تعني جرح ركبتي جامع البيض وقدميه، أو التعلق لفترة ليست قصيرة كالكستاء البرية. وفضلاً عن ذلك، ليست الطيور جميعها وديعة كطواويف الغلموت، بعضها كثور السفسخ، والنوارس الضخمة الحجم كانت أكثر عدوانية، فهي تجوم فوق رأس من قد يقترب من موقع أعشاشها وتهاجمه في بعض الأحيان. قد يعتقد بعضنا، نظرًا لطبيعة هذا العمل الخطير، أنه اختفى حلماً أصبح هناك مصدر طعام كافٍ يجعل الناس في غنى عن الغلموت. ولكن هذا لم يحدث مطلقاً، بل إن العمل استمر في بعض أجزاء بريطانيا حتى القرن التاسع عشر. ولحسن الحظ، تعد طيور الغلموت هذه الأيام من الأصناف المهددة بالانقراض في جميع أرجاء الجزر البريطانية. غير أن الوظيفة انقرضت الآن، وتنبئ طيور الغلموت أن تبني أعشاشها في سلام.

انتهى، وبشكل مفاجئ، عهد غارات الفايكنغ عام 1066، عندما قاد هارولد هاردرادا (Harald Hardrada)؛ أحد أكثر ملوك إنجلترا مهارة وأوروبا هيبة، أسطولاً ضخماً في نهر أوس (Ouse) إلى يوركشاير (Yorkshire)، غير أن محاولة الهجوم الضاربة قد جوبهت، وصدت من قبل الملك هارولد الثاني ملك إنجلترا في معركة جسر ستامفورد (Stamford Bridge). كان نصره حاسماً شاملاً إلى حد جعل الفايكنغ يجررون أنديالهم مبحرين وعائدين إلى وطنهم، جازمين بعدم العودة مرة أخرى. حافظ الفايكنغ على وعدهم، ولم ت تعرض إنكلترا للغارات إسكتلنافية أخرى، جعل هذا النصر الملك هارولد يعتلي أعلى مراتب العمل العسكري، غير أن هذا النصر قد انطفأ بهزيمته بعد ثلاثة أسابيع في معركة هاستنجز (Hastings). كان موت هارولد، آخر ملوك الإنجلو-سكسون، علامة على نهاية فترة زمنية وبداية أخرى. وجاءت معهم مجموعة جديدة من أسوأ المهن.

الحصول على وصفة طيبة وفق طريقة القرن الثالث عشر. على الطيب الوصفة على مساعدة الذي يقوم بتحضيرها على الفور.



الفصل الثاني

أسوأ الأعمال في القرون الوسطى

نادرًا ما تكون المصطلحات التاريخية أنيقة ودقيقة كما يريد بها بعضهم، وقد يكون مصطلح «العصور الوسطى» أقلها دقة على الإطلاق. لقد وضع هذا المصطلح قبل قرون، للإشارة إلى الفترة الانتقالية بين العصر القديم، الذي يفتقد إلى طراز محدد، وال فترة الحديثة التي تبدأ بحكم التيودوريين (Tudors). وإذا كان هذا التعبير مقصودًا، فإنه «عدم الفائدة»، إذ ليس ثمة من شك أنها في وقت ما—ستتوقف عن استعماله، لأن تلك الفترة ستكون ضارة في التاريخ، وسيضطر للبحث عن مسمى آخر، بيد أن هذا المصطلح هو ما نملكه الآن.

ونكم من المشكلة في استحالة تحديد تاريخ لبداية العصور الوسطى، فلقد رافق انتهاء الفترة السكسونية الغزو النورماندي عام 1066، والإحلال العرقي الكامل للأristocratie الإنجليزية، غير أن بدء التغيير الاجتماعي التي آتت أكلها خلال الفترة التي أسماها المؤرخون العصور الوسطى كانت قد عُرِّست قبل أن يَعُدْ ولِيم الفاتح قواربه استعداداً للحملة الإنجليزية المرجوة.

وبغض النظر عن تاريخ بداية القرون الوسطى، إلا أنها الفترة التي تبوأت فيها أسوأ المهن مكانة مستقلة، فمع اندماج المدن حول المستعمرات السكسونية والسلطية، وإنشاء هيكل اقتصادية معقدة خاصة بها، بدأ الأفراد بالتوجه نحو التخصص، وأصبحت بعض المهام التي كانت جزءاً من الحياة اليومية وظائف قائمة بذاتها، وعندها سارع العمال المتخصصون لتنظيم أنفسهم في نقابات، ووضعوا لها قوانين ولوائح لتنظيم أعمالهم. وعلى الرغم من شناعة مهنتهم، إلا أنها حفظتهم من غدر زمانهم.

إن الصفة المميزة للقرون الوسطى هي التحلل البطيء للنظام الإقطاعي، الذي فرضه ولِيم الفاتح ومحاربوه. وكان الملك نفسه على رأس هذا النظام القائم على منح الأرض مقابل



الولاء والخدمة. ففي ظل هذا النظام، حارب البارونات العظام من أجل الملك، للإبقاء على مناطقهم وألقابهم، واحتل عبيد الأرض أدتى مرتب النظام الإقطاعي، إذ كانوا ملكاً لأسيادهم. وستفهم دافعك - إذا ما كت واحداً من أفراد الطبقة الجديدة من المزارعين المتمرسين الأحرار - بآلا تعدد من أفراد الطبقة الدنيا التي كانت تحرث الأرض.

كان يقع التغير في القرون الوسطى - عند مقارنته بالفترات اللاحقة - بطيئاً. ويمكن عنده أكثر تطوراً من كونه ثورة. ومن المفري في بعض الأحيان، أن نعد فترة الأربعين عام بأكمليها عملاً سلبياً وكبيباً وطويلاً، اعتماداً على توفر بعض الصور المجازية التي قدمتها لنا فرقه موتي بايثون المسرحية (Monty Python) في فيلمها الساخر «الكأس المقدسة» (The Holy Grail). ييد أن هذه الفترة لم تكن بهذا السوء من وجهة نظر شاغلي هذه الوظائف، فما لا شك فيه أنهم كانوا يرون أنهم يعيشون في العصور الحديثة. ففي لحظة من اللحظات، أصبح أدنى العمال مرتبة مسلوب العقل أمام أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا من اختراعات غيرت حياتهم. فعلى سبيل المثال، مكتبهم المحاريث الحديثة من استخدام الخيل بدلاً من الثيران، وجعلت طواحين الهواء طحن الذرة عملاً أقل مشقة. وفي بداية القرن الثالث عشر، زودت الدوالib المائية أولى آلات الصناعة بالطاقة، وبذا أصبح عمل القصار (المكلف بإزالة فضلات الأغذام من صوفها) محتملاً إلى حد بعيد.

وتغير مع هذه التغيرات الطابع العام للقرون الوسطى، فقد تم بناء أسوار دفاعية عالية حول مدن كلنن وبورك. وأنشئت قلاع، وأديرة، وكاتدرائيات باستخدام التكنولوجيا القادمة من الخارج. وعلى النهج نفسه، انتشرت بيوت المزارع الحجرية والأبرشيات في جميع البلاد. فأصبح معظم أحزاء إنجلترا - على مدى قرنين من الزمن - موقع بناء.

ولكن ليست الحجارة ولا البلاط هي التي ميزت القرون الوسطى بشكل عام، وإنما الصورة الماثلة للفارس في درعه اللامع. قد تكون هذه الصورة نتاج جرعة مفرطة من الأفلام والمسلسلات التي تفتقر إلى البحث الرصين حول الملك آرثر وإيفانهو (Ivanhoe)، ومن كان على شاكلتهما، وذلك لأن البيزة المصفحة لم تُصمم قبل نصف هذه الفترة.

غير أنه يمكننا القول: إن المعارك كانت من أبرز المعلم السياسي الرئيس على امتداد العصور الوسطى. فهناك معركة هاستنجز (Hastings)، والحملات الصليبية، وهي الحملات

المسيحية الدولية الوحشية المضللة لاستعادة القدس، التي دامت ما يزيد على قرن، وهناك أيضاً المواجهة بين الإنجليز والإسكتلنديين في معركة جسر ستيرلينغ (Stirling Bridge) وبانوكبرن (Bannockburn)، وعارك الإنجليز بأقواسهم الطويلة المدمرة ضد الفرنسيين في غريسي (Greycy) وأجنكورت (Agincourt). وأخيراً المعركة التي انتهت بها هذه الفترة، وهي بوسورث (Bosworth)، التي لقي فيها ريتشارد الثالث حتفه، فكان آخر ملك إنجليزي يقتل في معركة.

كانت المعارك حقيقة إلى حد بعيد، غير أن صورة الفارس اللطيف كانت -في جملتها- محض خيال. فقد تم الترويج لقيم الفروسية المثلثي منذ بداية القرن الثاني عشر وما تلاه في كيارات للخدم، وتم توظيفها في الأدب، ولا سيما تلك القصص التي كانت تدور حول الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة. وقد كانت هذه القصص بعيدة كل البعد عن شؤون حروب القرون الوسطى، كبعد بيغبلز (Biggles)؛ الشخصية الرئيسة في سلسلة مغامرات بيغبلز للمرأهقين، عن الأشياء المرعبة والخنادق. وفي الحقيقة، كثيراً ما كان يتم تكريم الفروسية عند خرقها التعليمات منها عندما يتم الانصياع لها. كما حفين في قولنا: إن الدرع كان لاماً، على الأقل في بداية المعركة، ولكن هذا اللسمان لم يكن لفارس دور فيه، فهو لم يستخدم قط قطعة قماش بالية، وعلبة تلميع من نوع براسو (Brasso) لتنظيف درعه، وإنما يعود هذا الفضل لحافد الفارس الذي لا يحسد على عمله.

حامل الدروع / حافظ الفارس (Arming Squire):

كان حافظ الفارس تابع الرجل النبيل في عصر الفروسية. فقد كان متدرجاً شاباً يعمل بالمنجان، ويقع في أدنى مراتب الفروسية، وكانت مكافأته المستقبلية أن يتنهى به الأمر فارساً. كانت الفروسية أفضل عمل في ذلك العصر، فقد كان يدر حصصاً مالية مكللة بالمجده، غير قليل من المخاطرة. كان الأرستقراطيون المتعاقبون في دروعهم، آمنين داخل صفاتهم المعنية، ولكن كيف كانت تبدو حياة الغلمان الذين كانوا يقومون على خدمتهم منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر؟ إن أفضل جواب وأقصره هو أنها كانت تتصف بالقدرة لتعاملها المباشر والدائم مع أسوأ القاذورات (الغائط). ونحن هنا نقصد ما

تعني الكلمة حرفيًا، فقد يظن بعضنا—والشكر هنا للأفلام والتلفزيون—أن المعركة لا تستمر أكثر من بضع دقائق، ولكنها—في الحقيقة—كانت تستمر لساعات، إذ كان القتال يحدث على فترات وجية متقطعة ومتتجددة، قد يتمكن خلالها الفارس من شرب كأس من الخمر، أو رشفيه من الماء. ولم يكن هناك بالطبع وقت مخصص لقضاء الحاجة. فالبزة المدرعة لم يكن بها أزرار سهلة الفك، أو بناطيل سهلة الإزخاء، فإذا ما أراد الفارس أن يقضي حاجته، فعلية العيش مع هذا الأمر حتى ينتهي القتال.

ولهذا، قد ينتهي الحال بالفارس في نهاية يوم من القتال إلى وضع مزر، فهو من الخارج ملطخ بالطين ودماء الخيل والرجال، ونعن في غنى عن وصفه من الداخل، فمعظم المعارك كانت تحدث في الصيف، ولهذا كان يقطر عرقاً حتى إن لم يتحرك قيداً ثالثاً. ولذلك أن تخيل مقدار ما يتضمنه من عرق في أوج المعركة. وحديثنا هنا عن النصف العلوي للفارس، أما



شكلت مسرحية شكسبير انطباعنا عن معركة آنجلنورث، ولله حوت بما حوت جندي المشاة تم وباردولف. يد أن الحقيقة أسوأ من هذه الصورة بكثير، وأكثر ازدحاماً مع وجود أشخاص غير مشاركون في القتال مهمتهم القيام بآسنوا الأعمال.

تعني الكلمة حرفيًّا، فقد يظن بعضنا—والشكك هنا للأفلام والتلفزيون—أن المعركة لا تستمر أكثر من بضع دقائق، ولكنها—في الحقيقة—كانت تستمر لساعات، إذ كان القتال يحدث على فترات وجيزة متقطعة ومتجددة، قد يتمكن خلالها الفارس من شرب كأس من الخمر، أو رشقة من الماء. ولم يكن هناك بالطبع وقت مخصص لقضاء الحاجة. فالبزة المدرعة لم يكن بها أزرار سهلة الفك، أو بناطيل سهلة الإزراخ، فإذا ما أراد الفارس أن يقضي حاجته، فعلية العيش مع هذا الأمر حتى ينتهي القتال.

ولهذا، قد ينتهي الحال بالفارس في نهاية يوم من القتال إلى وضع مزر، فهو من الخارج ملطخ بالطين ودماء الخيل والرجال، ونعن في غنى عن وصفه من الداخل، فمعظم المعارك كانت تحدث في الصيف، ولهذا كان يقطر عرقاً حتى إن لم يتحرك قيد أملة. ولذلك أن تخيل مقدار ما يتضمنه من عرق في أوج المعركة. وحدينا هنا عن النصف العلوي للفارس، أما



شكلت مسرحية شكسبير انطباعنا عن معركة آجنكورت، وقد حوت فيما حوت جندي المشاة تم وباردولف. بيد أن الحقيقة أسوأ من هذه الصورة بكثير، وأكثر ازدحاماً مع وجود أشخاص غير مشرken في القتال مهمتهم القيام بآسراً الأعمال.

النصف السفلي، فوضعه أسوأ، وبخاصة إذا ما كان الفارس مرتعداً الفرائص، وحينها ستكون البزة كما لو أنها جاءت من الجحيم.

وأسوء عمل يقوم به حافظ الفارس هو مقابلة سيده فور عودته من المعركة، والتعامل مع القذارة المتراكمة على بزته أو داخلها. كان على حافظ الفارس بعد إزالة البزة عن سيده، وإنقاذه بكأس من الماء، أن ينطِّف البزة المرعية ويجهزها لليوم التالي. ولا يستطيع حافظ الفارس استخدام الماء في تنظيفها، فهو عظيم القيمة في مثل هذه الظروف، بل كان عليه أن يستخدم مادة كاشطة. وكانت أربع الطرق وأفالها قذارة تم بوضع أجزاء الدرع في براميل من الرمل، ومن ثم دحرجتها. ولكن في ظروف المعركة، تصبح براميل الرمل نادرة، لهذا كان على الحافظ أن ينطِّف المعدن بخلط من الرمل والخلل وبعض البول.

وكانت العناية بالدرع جزءاً بسيطاً من العمل. فقد كان حافظ الفارس رهن إشارة سيده، فعليه إلقاءه، وقيادة حصانه إلى المعركة. وعليه خدمته أيضاً بينما يتناول طعامه باتباع السلوك المناسب. (وكانت إحدى مهماته أن يتعلم كيف يقطع له اللحم بطريقة لائقة). وبينما كان الفارس يخلد للنوم على فراش وثير، كان الحافظ ينام على الأرض، أو قرب الباب بجانب فراش سيده متخفزاً للتلقى المزيد من الأوامر. ونادراً ما كان الحافظ يشارك في المعركة، وإنما كان يتغطر -بفارغ الصبر- عودة سيده، لأن أسلوب صيانة الدرع قد يعني موته صاحبه أو بقائه حياً.

لباس الفارس

كان لباس الفارس يتكون من أربع وعشرين قطعة منفصلة. تزن هذه القطع أربعة وعشرين كيلوغراماً، وكان الفارس يرتدي تحت الدرع ستة ضيق، محسنة بالأطلس وزوجاً من البناطيل الداخلية تسمى سراويل ضيقة. ويتم لف ركبتيه برقاقات إضافية من القماش لحمايتها من الاحتكاك مع المعدن. وأول قطعة يرتديها الحداء المدبب، وهي أحذية مصنوعة من درع جنزير، ومن ثم، يرتدي درع الساق، وتسمى الأجزاء التي ترتدي على الجزء العلوي من الساق فخذية، وكانت تثبت بمشدات جلدية، ومن ثم، تثبت توردة درعية إلى الشناكل المتبدلة من الشيالات. وبعد ذلك، يضاف الجزء الخلفي المبطن والألواح الدرعية الخلفية، إضافة إلى المعاصم والقفازات التي تحمي ذراع الفارس ويديه. أما أهم جزء في الدرع فهو الخوذة، وهي آخر ما يرتديه الفارس.



ونقع على عاتق الحافظ الكبير من المهام التي عليه إنجازها قبل الاقتراب من أرض المعركة، فلقد كان يقضي 90% من وقته مسافراً، باحثاً عن عدوه، ومحاولاً البقاء على قيد الحياة. إن أي حملة أجنبية قد تعني قضاء شهرين أو ثلاثة على الطريق، وقد تعرضه لمعركتين، كاملاً، وبعض المناوشات، إن حالفه الحظ بالبقاء حياً.

ويقضي الحافظ وقته خلال فترة السفر والانتظار، في تسلية أصدقائه، أو قراءة آخر قصة من قصص لانسيلوت وجونيفر، ولم يكن لديه وقت للأعمال الهينة ذات المردود السريع،

فلقد كان عليه نصب المخيم ونقضه، ولم يكرر يتوقع من الفرسان أن يتازلوا عن بعض جوانب الرفاهية، التي يعيشونها في حالة السلم، بل كانوا يصرون على الحصول على مستوى الحياة الرفيع ذاته، الذي يعيشونه في الوطن، فقد كان هنري الخامس يجلب معه فرقة موسيقية. وهكذا كان على الحافظ أن يضم لسيده درجة رفيعة من الراحة، فالإضافة إلى كونه ضابط غير مفوض، كان مرافق طريق، ورئيساً للخدم؛



الخليط من الرمل، والخل، والبوري، بعد هذا الخليط رفيع حالة
الفارس حشما ذهب.

لم يعتد الفرسان السفر بخفة، وتزودنا وثيقة «هاستنجز» التي تعود إلى منتصف القرن الخامس عشر بقائمة ما يجب على الحافظ عمله وجبله إلى ميدان المعركة:

عليه أن ينصب خيمة في الميدان
وعليه أن يحضر كرسيًا
وحوض حمام
وخمسة أرغفة من الخبز
وغالون خمر
ومؤونة من اللحم أو السمك
ولوحة خشبية ودعامتين لوضع لحمه ومشروبته عليها
وقدماً عريضاً
وسكيناً لقطع اللحمة
وكأساً للشرب
وزينة من أشرطة ربط أجزاء الدروع
ومطرقة ومسامير وقبعة ذات زوايا

ودزينة من مسامير الدروع
ورحما وسيفا طويلاً وآخر قصيراً وخجراً
ومنديلاً لتفطية فتحة الرؤوس في المخوذة
ولعلماء محروم طي الشكل ليحمله بيده عند بدء المعركة

ولمعرفة ما يعني هذا على أرض الواقع، دعونا نتناول أشهر معركة في العصور الوسطى، معركة آجينكورت (Ajincourt). فعما عسى الحافظ أن يفعل بين شوق الفارس إلى الحصول على إلهام رباتي لخوض الحرب، واندفعاه للذكر مرة أخرى! كان على الحافظ، وبباقي المشاة، قبل وصولهم إلى ميدان المعركة، أن يقطعوا 260 ميلًا في سبعة عشر يوماً، بحرصون خلالها على حماية حمولة الدروع، والآلات والسلاح وأدوات المائدة.

لم يضمر هنري الخامس القتال في معركة آجينكورت، إنما كان يريد نهب مدن شمال فرنسا، وكان موسم الحملة قد شارف على الانتهاء. تلقى الفرسان والحفيدة في الثامن من أكتوبر أمراً بمعادرة مدينة هارفلير (Harfleur) حاملين معهم موئنة تكفيهم شهانية أيام، وذلك لأن وباء дизير ينطرباً قد تفشى بالمدينة. وكانت الخطوة بأن يغروا من المرض، ويتوجهوا مباشرة إلى إنجلترا عبر ميناء كاليه (Calais).

غير أن الفرنسيين كان لهم رأي آخر، فقد نصبو كميناً للإنجليز عند نقطة العبور على نهر سوم (Somme)، مما اضطر الإنجلير للسير على طول النهر باحثين عن نقطة عبور أخرى، ولقد واصلوا سيرهم مجهدين في ظروف جوية بالغة السوء، فالمطر الغزير لم يتوقف مطلقاً، وكان على الحافظ أن يشرف على نصب الخيام المبتلة، والاعتناء بالدرع السريع الصدا. وكان على الكثير منهم الاعتناء بأسيادهم خلال نوبات الدizer ينطرباً التي رافقت الجيش من هارفلير. ولم يضعف الجيش من المرض فحسب، وإنما من قلة الطعام وشح الماء النظيف أيضاً. وقد فاق عدد الإنجلير الذين قضوا نحبهم على الطريق، إلى آجينكورت عدد أولئك الذين لاقوا حتفهم في المعركة نفسها. ولكنهم اكتشفوا، عندما وجدوا بعد طول عناء وانتظار طريقاً فوق نهر سوم، بأن

تُفترسِين قد سلوا الطريق إلى كاليه بين قوى تريمانكورت (*Tremancourt*) وآجينكورت ولهذا كان قرار خوض معركة آجينكورت، التي كانت مسرحاً لأحد أعظم الانتصارات في التاريخ الإنجليزي، قراراً لا يملك هنري فيه أي خيار.

جاءت الأمطار، التي مئى بها الإنجليز، لصلحهم، فلقد جعلت الأرض الواقعة أمام موقعهم سبخة، وغاص فيها الخيالة الفرنسيون تحت وابل الأسهم الإنجليزية. كان الفرس الفرنسيون يحتمرون بذروعهم المصفحة، بيد أن خيولهم لم تسلم من ضربات السهام، فرمم عطّلها في الطين، وانطلقت متذوقة تخترق مختلف مراتب الجنود الفرنسيين، الذين كثيرون منهم ملتصقاً بعض في محاولة لتفادي وابل السهام الإنجليزية.

لم تكن سلامة الحافظ مضمونة، على الرغم من عدم اشتراكه في القتال. فهو مجرد فرد، حاشية ضخمة لا تخوض قتالاً، يطلق عليها «قطار البضاعة»، وتضم، إضافة إلى الحاده صانع الدروع، ومساعديه، وصانع الأقواس، وصانع السهام، والطباخين وكل من كان ظاهر شاكتلهم، وما من شأنه ضمان تقدم الجنود وكتمهم من القتال. ووفقاً لمسرحية شكسبير «هنري الخامس»، قام الفرنسيون في آجينكورت بالقضاء على قطار الموت، وكان هذا الهجوم مغايراً لقواعد الحرب، مما أغضب هنري وجعله يأمر بقتل السجناء الفرنسيين. ولكن، حرباناً لا تقبل رواية شكسبير كحقيقة تاريخية مسلّم بها، فوفقاً لقواعد الفروسية، كان الفرس الذين يقعون في الأسر يبحرون أحياء، وتم إعادتهم إلى عائلاتهم مقابل فدية. غير أن هنري واجه في آجينكورت مشكلة لوجستية، فلقد فاق عدد السجناء الفرنسيين قدرة سجناء الإنجليز على السيطرة عليهم، فأصدر أمراً وحشياً بإعدامهم، لهذا قد تكون قصة الهجوم على قطار الموت ضرباً من الخيال حيث تحرير هذه المذبحة.

وقلما كان يتطلب من الحافظ الانضمام إلى سيده في ميدان المعركة، وإذا طلب منه ذلك فلن يكون محيناً كسيده، وقد يسبب له ذلك إصابات بالغة، أو يعني الموت المحتم. ولم يأبه هناك سيارات إسعاف القديس جون تجوب المكان بحمالاتها باحثة عن مصابين. وكان عاشر الرماة، الذين أحرزوا النصر في آجينكورت، أن يقوموا بعمل أخيرٍ فور توقف القتال، فلذا كانوا يجوبون ميدان المعركة المغطى بالدماء بحثاً عن المصابين إصابات بالغة، ليضعوا حدّاً لأسفهم بغير خنجر عبر فتحة الخوذة أو في منطقة الأعضاء التناسلية الحساسة حيث تواجد

طبقة سميكه من القماش غير مقطعة بالجذب أو الدرع المصفحة.
إن حياة الحاقد مليئة بالقسوة، والتعب، والغائط. وقد يتهي به الأمر، وببساطة تامة، قتيلاً
في ميدان المعركة. ولكن إذا كان كل ما يريده الفتى في حياته هو الدم، والأحشاء ورائحة
فضلات جسم الإنسان، فليس عليه السفر عبر أوروبا، بل الاشتغال في عالم طب القرون
الوسطى المظلم.

الجراح الخلاق (Barber Surgeon)

إلى من تسعى إذا ما تهشمتك يدك؟ إلى عالم فلك، أم إلى طبيب حوادث وطوارئ، أم إلى
الخلق؟ لم يكن هناك في القرون الوسطى خيارات واسعة كتلك التي نشاهدتها هذه الأيام،
ذلك لأن عمل الجراح الخلاق كان يضم جميع المهارات الآتية الذكر.

ضفت جميع المهن والصناعات الرئيسة لرقابة القابة، التي وضع موصفات
لأعضائها المؤهلين. وسمح لأعضاء نقابة الجراحين الحلاقين باستعمال الشفرات، فهم
مؤهلون تماماً لحلاقة ذقنه، أو قص شعرك، أو قطع رجلك. إن العمود المخطط بالأبيض
والأسمر، الذي كنا نشاهده حتى فترة قريبة خارج مجال الحلاقين، كان ورعاً معتبراً عن



صورة لبعض الأطباء الأجلاء رسمها أولاً ماغنوس، وهم يحاولون التخلص، وبهرص، من مخلفات الجراحة.

مهنة الجراح الخالق. ويرمز اللون الأبيض إلى الضمادات، بينما يرمي الأحمر إلى النازف من الجرح.

كانت رسوم الاستشارة والجراحة مرتفعة، لهذا كان الزبائن قليلين جداً ومتفرقين جعل مهاراتهم في تصفيف الشعر ذاتفائدة بالغة، فهي تدر دخلاً ثابتاً عليهم في أو الشدة، هذا إلى جانب أعمال طب الأسنان المتفرقة. وقد تتم في بعض الأوقات المقاومة الحلاق، وقد يصبح من المتعذر عليه جمع رسومه من الزبائن. ولهذا قام أصحاب هذه المهنة بالاحتفاظ بمسكوك، أو ضمانات من الزبائن تحسباً لقيام الزبون برفع الرسوم في حال كانت العملية خطأ. غير أن هذا الإجراء كان خطيراً. فعلى ، المثال، تلقى مريض يدعى أليس ستوكينج تعويضاً مقداره 32 جنيهًا استرلينياً عام 1230، وبعد أن قام أحد الجراحين باخذ ما قيمته 20 شيلناً من ممتلكات بيت المريض كتعويض، لا يقم بدفع فاتورته.

وعدت الجراحة الطارئة أكثر أعمال الحلاق سوءاً، فقد تحتاج بعض الأعضاء المهم والجراح المصابة بالغرغرينا إلى البتر، الذي تم دون استخدام محلر لعدم توفره، وكان الجراح الخالق أن يقطع اللحم والعضلات، ويرفع اللحم عن العظم ككم قصيس صوينشر عظم اليد أو الرجل، ويختيط الجلد، وكان هذا مصحوباً بصرخات الألم والرعب، يصدرها صاحب الجسم المثلوى ألمًا وتعباً. وجواهر هذه العملية هي السرعة. لهذا كان بعض الأدوات كالسكين الملفوفة، التي كانت تستخدم في قص العضو من جميع أطرافه أن يتم تغيير النصل، لا تقدر بشئن.

كان الجراح الخالق بحاجة إلى مهارات علم التنجيم، فطبع القرون الوسطى كان

على علم زائف عمره 1500 عام، ولم يكن على علم الموقف الحقيقة الشرجية الطويلة، والباردة، التي تدور حولها علامات استفهام كثيرة من حيث جدواها الطبية، لكنها على الدراسة التشريحية، وإنما على مفهومية قديمة حول طبيعة العالم. فقد تأثر القرون الوسطى بشكل كبير بأفكار الك



الإغريقي أبقراط (Hippocrates)، الذي ذهب إلى أن العالم بأكمله مكون من أربعة عناصر هي: التراب، والهواء والنار والماء، وتبعد لهذه الفكرة، يختلف الناس فيما بينهم تبعاً لتفاوت هذه العناصر في أجسامهم أو ما كان يسمى «حالة النفس». والشخص السليم هو من كانت العناصر الأربع في جسمه متوازنة بشكل صحيح.

ولم يطرأ بعد مرور ألف وخمسين عام على نظرية أبقراط أي تغير جذري، ويستطيع الجراح بالنظر إلى شكل المريض وبشرته، أن يحدد المزاج المهيمن على المريض: التفاؤل، أو البرود، أو الحدة، أو التشاوٌ، واعتماداً على ذلك، يستطيع غير تخليل عينة من دم المريض، ومقارنتها بجدول، أن يرى الحال المزاجي الواجب تصحيحة.

وتعد هذه العملية من أكثر أعمال الجراح كراهة. فلم يكن لديهم في العصور الوسطى ورق عباد شمس أو تحاليل مخبرية. وقد يتطلب تشخيص المرض الحصول على عينة بول في قارورة منحنية كان يطلق عليها جوردن (Jordan)، ومن ثم يقوم الجراح بالاعتماد على جدول أعد مسبقاً بفحص البول وشته - وفي بعض الأحيان - تذوقه.

ويستطيع الجراح في حال مكنته من تحديد أعراض المرض، أن يصف العلاج اللازم. فإذا كان المريض يشكو من نقص، أو وفرة زائدة في الدم، فقد يكون العلاج الخمية أو التمارين، أو الأدوية المسهلة، أو تلك المدرة للبول، أو الحجامة، أو مزيجاً من هذه الأدوية.

واستخدم الجراح، للتخلص من الصفراء أو عصارة المرارة، حقنة يتم بواسطتها إدخال أجسام مضادة داخل جسم المريض، وكان الأنوب المعدني الطويل ينتهي بفتحتين، ويدهن بمادة دهنية، ومن ثم يتم إدخاله في جسم المريض عبر فتحة الشرج بطول ستة إنشات، وعبر العضلات العاصرة. وكانت وصفة الأجسام المضادة تتكون من خليط من الأعشاب والماء والخبيز، والبابونج الأخضر، والتخلة البيضاء، والملح والعسل والصابون.

وكان الجراح يضع الخليط في مثابة خنزير مثبتة في نهاية الحقنة، ومن ثم يضغط عليها لدفع السائل للخروج عبر فتحات الأنوب داخل جسم المريض. قد تكون هذه العملية بأكملها فجة ومستهجنـة، لكنها كانت تمنح المريض تروية بدائية للقولون، قد يتعجب عنها بعض القائدة.

وقد استخدم الجراح الحقنة الشرجية أيضاً في تغذية المرضى الضعاف، فلقد كان الاعتقاد

السائل أن المعدة تتورّ، وقد يصبح هذا التورّ في بعض الأحيان شديد الحرارة، فلا يتمكن
حينها بعض المرضى الضعاف من هضم الطعام بشكل جيد. وفي هذه الحالة، كان يفضي
الطعام عبر الشرج. ولا بد أن هذه العملية كانت مؤلّة جداً، والأسوأ من ذلك، أنها لم تكن
ذات قيمة علاجية ترجى.



وكان معنا طبيب،
لم أعرف مثيلاً له في كل أرجاء العالم،
يتحدث حول الجسد والبراحة،
وكان ذا باع طويلاً بالتحميم.
ويخص مرضه بعنابة فائقة،
اعتماداً على العلم الطبيعي ودراسة
العلامات الفلكية،
فقد كان قادرًا على حساب مواقع
النجمون
لتحسين حالة مريضه غيرها.
وعرف سبب كل مرض،
سواء أكان معه حرارة أم برودة، أم
رطوبة أم جفاف.
وما أسبابها، وأي مزاج يغلب عليها،
وكان ممارساً جيداً للطب،
وحال معرفته السبب، وأصل المرض،
يسارع لإعطاء المريض الدواء.
كان دائمًا مستعداً، بعقاقيره
لتزويد المريض بالدواء والمعالجين الفموية.
وفي طعامه كان متواضعاً قدر ما يستطيع
لم يكن هناك من أحد يستطيع لومة بالإفراط،
ولكنه يتغذى بوفر وبهضم ما يأكل.

ونادرًا ما كانت دراسته تعتمد على الكتاب المقدس،
وملابسه زرقاء وقرمزية
وبسيطة بالسatin والحرير،

ومع هذا، فقد كان حريصاً فيما يتعلق بمصرفيه.
كان يحفظ النهب الذي كان يجنه من علاج مرض سميت،
لأن النهب في الغزير ياء دواء منعش،
ولهذا أحب ذهبه أكثر من كل شيء».

قصص كاتر بيري: المقدمة العامة 444-411.

كان فصد الدم من أشهر العلاجات الشائعة وأكثرها قذارة. قد تبدو فكرة سلب رجل مريض مقداراً وافراً من دمه فكرة مستهجنة هذه الأيام، ولكن هذه الممارسة ظلت متّعة حتى بداية القرن التاسع عشر.

وقد استُخدم هذا الإجراء في علاج عدّد كبير من الأمراض، بداية بالصداع والأكزيما، وانتهاءً بالنزاح الشرير والتطهير العام للكليد. استُخدم الجراح لفص الدم مضطّعاً على شكل حرف (U) بالأنجليزية، يتّهي أحد طرفيه بشفرة حادة طولها نصف إنش على شكل شوكة، يتم غرسها في اللحم وإزالتها، ومن ثم يتم إدخال الطرف الآخر لإبقاء الجرح مفتوحاً، فيتدفق منه الدم. ومن المثير أن نعلم أن رأس المبضع كان يغرس في النقطة ذاتها التي يستهدفها علاج الوخز بالإبر هذه الأيام. ولقد قام ثلاثة أطباء وجراحين عام 1454 بعلاج الملك هنري السادس من مرض عقلي أصابه، وكان من ضمن ما أوصى به هؤلاء الأطباء والجراحون في علاج مرضاهم المصاين بالاكتئاب النفسي هو:

«شدّ شعرهم وأنوفهم، واضغط على أصابع أرجلهم وأصابع أيديهم بشدة،
واجعل الخنازير ترتعق في آذانهم وأعطهم حقنة شرجية في البداية، وافتح
وريذ الرأس أو الأنف باستخدام شعر الخنزير البري المتسمّر».

اما علاجهم المحدد للملك هنري فهو:

«ضع شعرة أو قشة في أنفه لاجباره على العطس، ولا تردد في منعه من النوم، وأحرق شرعاً آدمياً وأشياء ذات رائحة كريهة بالقرب من أنفه، وأحرر له حجامة بين الأكاف، ودع شعرة



بعض الأدوات الوحشية المنظر التي يستخدمها الجراح الحلاق تنزل في حلقه لجعله يتقياً، واحلق الجزء الخلفي من رأسه ومن ثم افركه بزرت الأزهار والخل وعصير الكرفس البري».

يد أن أكثر طرق إجراء التزف انتشاراً كانت تتم عبر استخدام العلق، وهي ديدان شريرة الحجم، كبيرةً ما كانت تستخدم في الطب والجراحة في القرون الوسطى، وقد أدت كثرة استخدامها إلى استخدام كلمة (leche) كاسم آخر للجراح. ووفقاً للجراح الفرنسي الشهير غاي دو غولييه (Guy de Chaulic) في كتابه (Chirurgia Magna)، الذي يعاد «الجراحة العظيمة»، وبعد العلق أفضل طريقة لتعقيم الدم «بين أطراف الجسم والجلد». قد يبدو هذا العلاج فجأةً وبديانياً، ولكنه، وهذا شيءٌ مُستغربٌ، العلاج الوحيد من طقوس القرن الوسطى الذي ما يزال يمارس حتى يومنا هذا. يستخدم العلق بسبب لعابه المضلل للتختثر، في منع تخلط الدم في بعض الأعضاء المصابة، قبل خياطتها. كما يستخدم العلق الثالث عند زراعة أو خياطة بعض الأعضاء المبتورة لضمان تدفق الدم فيها. وعلاوة على ذلك يستخدم العلق في علاج مرض تكاثر كريات الدم الحمراء، الذي يتسبب بكافة خلاياه في ويطفها.

ولقد كان الصيدلاني هو من يزود «الجراح/الحلاق» بالعلق، ولكن كيف كان يحصل عليه؟



خضع الملك هنري السادس عام 1454 إلى العديد من العلاجات المترغبة أجراها أطباء وجراحون لعلاجه من المرض العقلي.

جامع العلق (Leech Collector)

إن من أشد مساوئ عطلات الصيف تلك الحشرات الطائرة الغريبة، التي تحوم في غرفتك، وتبقيك مستيقظاً طوال الليل. فمن من يريد أن يقرص أو يلسع؟ في الحقيقة، هناك في القرون الوسطى من اتخذوا من قرص تلك الحشرات أو لسعها مهنة لهم، فكانوا طوال الوقت يبحثون عن العلق القطش، بل ويدفعونه لpus الدم من أقدامهم لتتنفس، ويسهل الإمساك به.



انتشر جامعو العلق في جميع أرجاء بريطانيا. ويعتقد كثيرون من الناس أن العلق ليس سوى حشرات غريبة تقطن في الغابة، غير أن العلقة الطبية أو (Hirudo Medicinalis) كانت تعيش في المستنقعات وسط بريطانيا، وكانت مستنقعات منطقة لاك (Lake District) وسومرست ليفلز (Somerset Levels) هي المناطق المفضلة

لجامعي العلق. وتم جمع العلق بأعداد ضخمة، مما جعلها مهددة بالانقراض. وتعد منطقة رومني مارج (Romney Marsh) في «كت» واحدة من المناطق القليلة، التي لم تشر ثانية الجنس، وأنها للأسلل أثناء تستطيع الذهاب إليها الآن للقيام بعمل قروسطي بحق هو ليس بصد العلق مرتبطة بناطيل التغريض، ولكن في المصور الوسطي كان جميع جمع العلق.

ستانلي العلق عراة الأكلادم والسيكان، وكانتا ينحرجن من الماء وقد تجمع عدد وفير من العلق على أقدامهم التي سرعان ما يتم نقلها بإحداث اهتزازات متعمدة بين القصب، ليشعر العلق إلى دافعه، بالماء. بالحركة معتقداً أن سببها خروف شهي، أو بقرة جاءت

لشرب الماء، وإذا ما كنت جامع علق محظوظ، فسيعلق بك العلق.

ويترك العلق أثراً لجرح صغير على شكل شعار شركة مرسيدس بنز، وقد تُمتص الدم لعشرين دقيقة، أو ما يزيد على ذلك، تشرب خلالها ما يعادل خمسة أضعاف وزنها الأصلي قبل أن تسقط عن الجسم الذي تلتصق به. قد لا تكون عضة واحدة شديدة السوء، فأهلها ليس سوئاً وخزها صغيرة، ولكن الكمية هي الأهم بالنسبة إلى جامع العلق، وكان عليه أوعيّها تحمل مواضع جروح متلهفة لا تمحضى. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن هذا أسوأ جوانب عمل جامع العلق، فقد كان كل جرح ينز ما يقارب 150 ملليتراً من الدم خلال العشر ساعات التي تلي العضة، وذلك لأن لعاب العلقة يحوي مادة الهيرودين (Hirudin) المضادة للتجلط.

وقد تسبب العلقة عند امتصاصها جرعتها من الدم، بإصابة من تعشه بيكثيريا أكرومنيس هايدروفيل (Acomonise Hydrophile)، التي تحملها عادة في أمتعتها، والمسية للإسهال والتهاب المجرى.

ولا نستطيع إلا أن نضع بعض التخمينات حول حياة جامع العلق. فنحن نعلم أن العمل فصلي، وأن العلق يصبح عدم النشاط في الشهور الباردة. يد أن الروايات القليلة حول هذا الموضوع قد جاءت من الفترة اللاحقة للفرون الوسطي؛ فقد أشار الفنان جورج واكر (George Walker) في كتابه «لباس منطقة بور كشاير» الصادر عام 1814، إلى أن معظم جامعي العلق في منطقة لاك كانوا من النساء الإسكتلنديات، ولكن يرتفعن تنانيرهن وبيخضن في الماء، وقد أصبح جامع علق قديم في منطقة لاك موضوع قصيدة رائعة لوردوورث تدعى «القرار والاستقلال» نشرت عام 1807. ولكننا نعرف أن جامعي العلق لم يكونوا جميعاً متسرّين. ففي بعض الأحيان، كان الأشخاص الراغبون بتغطية سقوف أكواخهم بالقصب يأتون إلى المستنقعات ذاتها، التي يعمل فيها جامع العلق، فيجمعون بعض العلق الذي التصق بهم في أثناء عملهم.

«القرار والاستقلالية» (مقطفات)

XI

«استند واقفاً، أضلاعه، وجسمه ووجهه الشاحب
فرق عصي رمادية طوبية من الخشب المسحوق،
وعندما اقتربت بخطى وسيدة
فرق أطراف ذلك المستنقع العربي
كان الرجل العجوز واقفا بلا حراك كالغبار.
فلم يكن يسمع الرياح العاتية عندها تنادي
ويتحرك فجأة إذا ما تحركت تماماً.

XV

وقال إنه قد جاء إلى هذه المياه
لجمع العلق، كونه قديراً وطاعناً في السن،
وهذه مهنة خطيرة ومرهقة،
وعليه تحمل العديد من المشاق،
والانتقال من بركة إلى أخرى، ومن مستنقع إلى آخر
ويقيم هناك، بمساعدة الرب له، متقلباً بين حظوظه
وبهذه الطريقة، كسب مصدر رزق شريف».

XVIII

ومن ثم أعاد كلماته باتسامة:
«و قال إنه ترحل طولاً وعرضًا في البلاد جامعاً العلق،
محركاً هكذا بقدميه
الماء الذي يقطن فيه العلق.
«ولكن عددها قد تناقض عبر الزمن
ومع هذا مازلت أنابير وأجدادها حيث أستطيع».

ولهم ورد ذكره 1802

إن جامع العلق في قصيدة وردزورث هذه، رجل إسكتلندي عجوز، أعجب به الشاعر لبله الفطري، غير أن ونه وفقره يظهران مدى صعوبة هذا العمل. كتبت هذه القصيدة عام 1802، عندما كان من الصعب العثور على العلق - فلقد كان ضحية لشهرته، إن كدح جامعي العلق في عملهم يوماً تلو الآخر، كان يعني بالضرورة أنهم يعانون على الدوام من جراح مفتوحة، وأن الدم يقطر منها على أقدامهم، وكانوا يعانون أيضاً من الدوار الناجم عن فقدان الدم، كما كانوا عرضة لالتهابات الجلدية والتقلبات المعدية الحادة.

وتكمّن المفارقة في أن جامع العلق كان يقوم بتقديم أحد ركائز العلم الطبيعي القروسطي، ييد أنه، إذا ما أصابه المرض، فلن يستفيد من خدمة الجراح/الأخلاق، لأنّه لا يستطيع تحمل تكاليف زياراته. وكان عليه، كأمثاله من الفروّين الفقراء، الاعتماد على ممارس للطلب أدنى مرتبة من الجراح/الأخلاق.

الطيبة الشعيبة (Wise Woman)



كان ثمة امرأة حكيمـة، أو طيبة شعيبة في كل قرية تقفر تماماً للدرارـة في علم أبـراط (Hippocratis)، لكنـها مـتلكـة مـعرفـة تـامـة بـالـعلاـجـاتـ الشـعـيـةـ. ولمـ يكنـ بمـقدـورـ الفـلاحـينـ الاستـغـنـاءـ عنـ خـدمـاتـهاـ، فـحيـاتـهمـ قـاسـيةـ جـداـ، وـمـلـيـةـ بـالـأـمـراضـ كـشـنجـ الأـيـديـ، وـآلـامـ الـظـهـرـ، وـالـفـقـتـ، وـالـبـواسـيرـ، وـغـيـرـهـ مـنـ التـشـجـاتـ وـالـتـزـلـاتـ التيـ لاـ يـعـرـفـ لـهـ اـسـمـ، وـهـذـهـ أـمـراضـ مـلاـزـمـةـ لـطـبـيعـةـ حـيـاةـ منـ يـمـتـهـنـ هـذـهـ الأـعـمـالـ.

وعـلاـوةـ عـلـىـ ذـلـكـ، أـصـبـعـ النـاسـ قـلـقـينـ وـبـاطـرـادـ عـلـىـ صـحـتـهـمـ إـلـىـ حدـ إـصـابـتـهـمـ. بـمـرـضـ الـوسـاسـ المـرـضـيـ (hypocondria). وـسـبـ هـذـاـ القـلـقـ المـتـزاـيدـ هوـ المـوـتـ الأـسـودـ «ـالـطـاعـونـ»ـ.

الذى حل ببريطانيا عام 1348، وقلص عدد السكان بقدر الثلث أو النصف. ولا يمكن لأحد أن ينسى قلوم ما يمكن عدته عقوبة إلهية مخيفة، حاقت بإغتراراً في موجات على مدى القرون اللاحقة؛ ولهذا توخي الجميع الحذر، متعهدن أنفسهم بالرعاية، ومتربين أي علامات قد تدر لمرض جديد.

لم تدرك وظيفة الطيبة الشعبية دخلاً جيداً على من امتهنتها. فلقد كانت كأمراضها في عصر متواصل، وعادة ما تعمل مقابل بديل، كالجبن، أو إصلاح سقف. وفي المقابل، قدمت مرضها علاجات على درجات متفاوتة من الغرابة، لمختلف الأمراض، بدأية بالتهاب الحلق، وانهاء بسرطان الثدي. وأصبحت هؤلاء النساء في القرون اللاحقة موهبات للقيام بدور «الباحث عن الموتى» الذي سيأتي ذكره لاحقاً.

ليس الفقر وحده ما جعل عمل الطيبة الشعبية شيئاً، وإنما تضاف إليه طبيعة المكونات الداخلية فيه وخطورته.

لم تستطع الطيبة الشعبية، بسبب فقرها، الحصول على العقاقير من لدن الصيدلي، ولهذا استخلصت علاجاتها من مكونات طبيعية متوفرة بالمجان في الطبيعة الريفية المحيطة بها. ولو أنها اقتصرت في عملها على الأعشاب، وما شابهها من المواد، التي مازالت تجني حتى يومنا هذا كمستخلصات النباتات التي تقيد في علاج السعال، وزهرة القديس جونز وغيرها، فإن عملها سيكون مستساغاً ضمن النفق العام الآن. ولكن الأمر ليس كذلك دوماً، فقد كان من بين العلاجات الأكثر تداولاً سمك الأنجلو، والديدان، وأجزاء من الحيوانات الميتة، بالإضافة إلى مكون سحري ليس له في الواقع علاقة بجراحة الطبيب، ألا وهو الروث. وكان على الطيبة الشعبية لاستخلاص العلاجات التالية أن تقضي نصف حياتها العملية متعلقة أنواعاً مختلفة من الماشية وبدها سلة ورفش:

«لجرح نازف، استخدم روث الخنزير الطازج الساخن، ولعلاج البرقان،
استخدم خليط روث الغنم بالبيرة، المحفوظ طول الليل ومن ثم اشربه.
ولمنع آثار الجدرى، استخدم خليط روث الغنم والخنزير المحفوظ لمدة ليلة
ومن ثم اشربه. ولعلاج النقرس، استخدم طينا من روث الحمام، ولعلاج آفة

ثدي المرأة والصلع، استخدم روث الإوز، وللمساعدة على تحسين السمع، استخدم سمة أنقليس رمادية، متعفنة في روث الحصان ثم أدخلها في الأذنين، ولعلاج الشنجات، اربط سمة أنقليس حول المنطقة المستهدفة، ولعلاج ألم الأسنان، ضع أذن قطة مرضوخة الرأس على السن لمدة ثلاثة أيام».

ولكن لا تقصد جميع هذه العلاجات إلى أساس علمي. فعلى سبيل المثال، كان علاج الرعاف وضع نبات القرفص في التجويف الأنفي، وقد يedo هذا العلاج وحشياً، ولكن منطقي إذا عرفنا أن لو خزات نبات القرفص خصائص قابضة للأنسجة. وعلى الوثيرة نفسها كان حساء الديدان المعد على عجل ذا فائدة فعالة جداً، فلقد كان غذاء الفلاح بشكل عا يخلو من اللحم. وباستثناء أيام الأعياد والمناسبات، كان غذاء الفلاح الفقير يقتصر على عصيدة الشوفان المخلوطة بالكراث، والبصل، والبازلاء، وخبز الشعر، وربما القليل من الجبن. لهذا كانت الديدان لا تكلف شيئاً، وتضفي لمسة البروتين اللحمي على غذاء الفلاح.



طريقة إعداد يخنة الديدان

- ملء حوض من الديدان الطازجة

المهروسة

- ثلاثة كتل كبيرة من الحبز البالغ،

قطعة مكعبات

- خليط من أعشاب الغابة

- بعض الزبدة

- ماء

- عسل وملح حسب الحاجة.

- أول أحشاء الديدان وما علق بها

من تراب يأدخال إبرة في جسمها



ومغيرها حتى آخرها. قطع الديдан إلى قطع صغيرة، وأغلبها في إناء بإضافة الماء حتى غطائه. ثم أضف الحبر والأعشاب وبعض الزبدة واتركها تغلي علىًّا خفيفاً، حتى يصبح الحساء ذات لون رمادي - بني، أضف الملح والسكر إذا كان هناك حاجة.

تبينه: بعض الأتربة تحوي سميات، لهذا عليك أن تعرف مصدر ديدانك، وتتنظفها جيداً (هذا إذا افترضنا أنك أخرق لتجرب مثل هذا الحساء).

ولكن أين تكمن المخاطرة؟ إنها تكمن في أن العديد من علاجات الطبية الشعبية قد عذّتها الكيسة ضريراً من المزرافات. ومن هذه العلاجات - على سبيل المثال - علاج المسامير اللحمية، الذي كان يقتضي قطع رأس سمكة الأنقليس، ومسح المسامير اللحمية بالدم النازف منه، ومن ثم دفن رأس السمكة. ومع تعفن رأس السمكة، تأخذ المسامير اللحمية بالاختفاء، ومن العلاجات الأخرى الاعتقاد بأن ربط مجموعة من الديدان حول الرقبة قد يؤدي إلى شفاء التهاب المحلق، الذي يأخذ بالتحسن مع موت الديدان الواحدة تلو الأخرى.

غض رجالات الكيسة في بدايات القرون الوسطى الطرف عن هذا النوع من السحر الذي مزج الحظ بالعاطفة. ولكن، ومع مرور الوقت، أخذت السلطات الكيسية على عاتقها الاهتمام الكامل بالنظام التعليمي. وأصبح العلاج التقليدي شعوذة، حتى إن البابا قد أعلن عام 1484 - وهو العام الذي وافق نهاية القرون الوسطى - أن الشعوذة ضرب من الهرطقة. ولكن ما الفرق بين الشعوذة وعمل الطبية الشعبية؟ لم تستطع الكثير من النساء اللواتي امتهنُّ هذا العمل العيش طويلاً للإجابة عن ذلك السؤال.

البناء السيد (Master Mason):

قد تبدو معتقدات القرون الوسطى وحشية، لكنها أنتجت بحقِّ أعظم وأدوم إرث معماري في بريطانيا، لا وهو الكاتدرائيات القوطية، وقد صاحب بناء هذه الكاتدرائيات العديد من الأعمال ذات الطبيعة المسيئة.

حملت هذه الكاتدرائيات التي بنيت في القرون الوسطى معاني الثقة والاستقرار. وتم

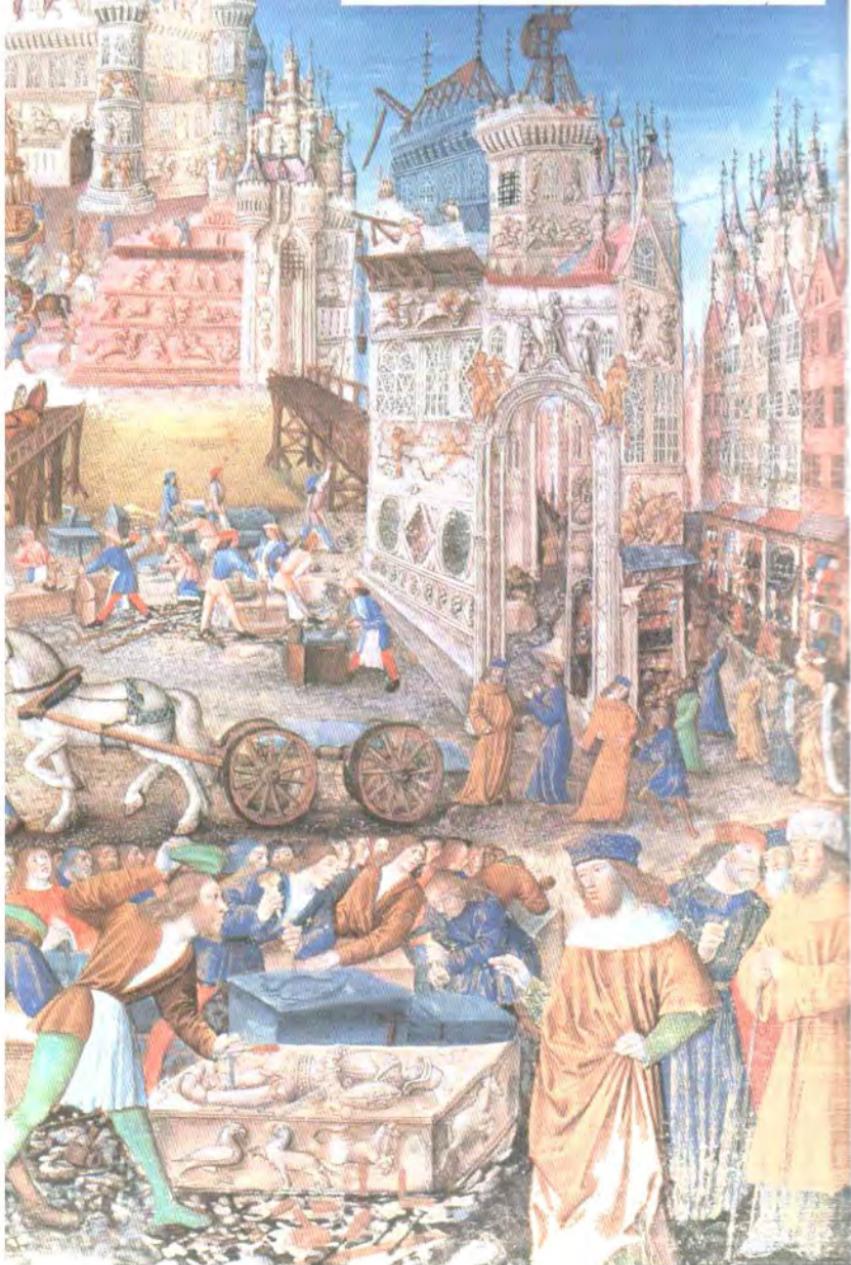
نقل جيوش جراراً من العاملين على مستوى لم يشهده له التاريخ مثيلاً، منذ بناء جدار هادريان (Hadrian's Wall) في عهد روما القديمة. وعدّ بناء كاتدرائية في أي مدينة رمز فخر لقاطني تلك المدينة، وكان في الوقت ذاته رافداً اقتصادياً كبيراً. إنّ أثر بناء مجمع كنسي كبير ليقارن - هذه الأيام - بإنشاء مصنع سيارات جديد، أو مصنع هوائـف خلوية في مدينة صغيرة، لما لهذه المنشآت من أثر في دعم اقتصاد المنطقة بأكملها.

صممت الكنائس، في البدايات المبكرة لبناء الكاتدرائيات، على أيدي هواة متحمسين من روّاسه أديرة، وأساقفة لديهم من التعليم ما يمكنهم من البحث في مبادئ العمارة والهندسة الأساسية. فقام هؤلاء الرجال ببناء مشاريعهم وتمويلها. ولكن، مع مرور الوقت، وتعقد علم العمارة، أصبحت إدارة تلك المشاريع وتصميمها منحصرتين بمحترفين كانوا يجوبون أوروبا كمعماريين مستقلين.

كان هؤلاء يعرفون باسم «البنائين الأسياد». قد تكون هذه الوظيفة - من الناحية المعموية - إحدى أفضل الوظائف في مسيحية القرون الوسطى، ولكتها لم تكن كذلك على جميع الصُّدُع، فهوّلاء لم يكونوا رسامين فحسب، بل كانوا مدربين مشاريع أيضاً، وكان عليهم إدارة عملية لوجستية ضخمة ضمت، إلى جانب موقع البناء، المحاجر التي تم اقتلاع الأحجار منها، والغابات التي تم قطع دعائم الأسقف منها، ونظام النقل، الذي تم نقل المواد الخام عبره - مثاث من الأميال في بعض الأوقات. وتشير صحفة التفاصيل في كاتدرائية أوتن (Autun) في فرنسا بوضوح إلى تعدد جوانب هذا العمل واختلافه (وعدّ الناس الذين كانوا يستفيدون من بناء كاتدرائية في مدinetهم).

كان البناء السيد يشرف على عدد ضخم من الحرفيين: كقطاعي الحجر المكلفين بقص الحجر وفق أشكال وأحجام محددة وعمل تماثيل، والجذارين والبيترين المكلفين بوضع الكل الحجرية بعضها فوق بعض، والمطينين والزجاجيين والنجارين المكلفين بنصب الصفائح الخشبية، وبناء هيأكل السقف، وهناك أيضاً السقايفون المسؤولون عن مد الرصاص والأجر على السطح، والحدادون وعمال الحديد، وسائقو العربات المنوط بهم تنظيم الحجر والخشب، ونقلهما من المحاجر، وكان ثمة الحشائرون والداهنون والمتدربون، بالإضافة إلى مئات من العمال، المكلفين بجلب وحمل وإعداد لوازم البناء الثقيلة وال مختلفة. وقد كان يتطلب منهم

لقد تكلمنا هذه الصورة بذكراً واضحةً حول تعقيدات موقع البناء، مع استمرار العمل في جميع جوانب الكنيسة. ونستطيع أن نرى العجلات الراقصة منتصبة بشكل متزحزح في أعلى مواقع البناء.



ذلك أن يশتروا عن سوا عدهم وسيقانهم لإظهار القوة والقدرة على العمل الجاد، حتى يرى مشروع «البناء السيد» النور.

غير أن كل هذه المسؤوليات لا تعني بأي حال من الأحوال أن «البناء السيد»، كان ذات سلطة مطلقة، بل إن موقعه حساس جداً كونه موظفاً لدى المترع، وهو الأستقرائي الثري، أو رجل الكنيسة المسؤول لبناء الكاتدرائية. وستذهب أحالم «البناء السيد» أدراج الرياح، إن لم يواصل المال تدفقه، ويحدث هذا عادة بوفاة المترع. وقد يحتاج الأمر سنوات قبل إيجاد رجل آخر لمواصلة العمل، حتى إن كاتدرائية سالزبريري (Salisbury)، وهي أسرع كاتدرائية تم بناؤها، احتاجت 30 عاماً لإكمالها، فاي تأخير في التمويل قد يؤخر إكمال المشروع لعقود. وكان على بعض البناين العيش خاني الأمل لعدم رؤية مفخرة تصاميمهم وقد اكتملت.

لم يكن البناون في مأمن من الحوادث، فعندما تؤدي عملك على ارتفاع 30 أو 40 متراً فوق الأرض واقفاً على دعامات خشبية مشتبكة بدويأ، فإن ذلك العمل ليس آمناً على الإطلاق. ورغم عدم تدوين معظم الحوادث، إلا أنها على علم بأن وليم سنز (William of Sens)؛ البناء السيد في كاتدرائية كاتربيري، قد سقط عن الصقالة، وعاني إصابات خطيرة دفعته إلى التقاعد.

نفقات كاتدرالية أوتون

إن الأجر المطلوب لحضور الحجارة اللازمة لصيانة كنيسة القديس لازار هو ثمانية ليفرات (وهي عملة فرنسية تعادل الباوند الإنجليزي)

أما بالنسبة إلى الجير فالاجر هو تسع ليفرات وثمان سوات (وهي عملة فرنسية تعادل الشلن الإنجليزي).

وثمن الخشب الجيد المطلوب للأقواس في كنيسة القديس لازار هو سبعة عشر ليفرات وسبعين سوات وسبعة دوانق فرنسية تدفع للتجارين والعمالين.

أما أجراً حداد أوتن فهو 42 ليفرات وعشرين سوات وستة دوانق.

أما أجراً تجارين الذين قاماً بتركيب الألواح على سقف كنيسة القديس

لazar فهو عشرة ليفرات وثمانين سوًات.
ونكلفة الحجارة المجنحة المعروفة بـ (gargoyles) أربعة ليفرات وعشرين
سوًات وتسعه دوانق.

ودفع لـ «ريند» مالك التزل، الذي أجر التزل الذي يسكنه البناء السيد
لفصيلين في السنة ثلاثة ليفرات.

ونكلفة ملابس البناء المذكور، هذا إذا استثنينا الفصل القادم لميلاد القديس
جون المعمدان، عشرة ليفرات

ولـ «بيينا» سراج الخيل ليفران وعشرين سوًات لقاء ما يقوم به من عمل على
مدار العام كسرج للخيل، وترتيب الياقات، وتنبيت الأسقف وغيرها من
أعمال جلدية تتعلق بالعربية.

ولقاء القش وعدة فرس العربة المذكورة تسعة عشر ليفراء، وسبعين عشرة سوًاتاً
واربعة دوانق. أما ثمن الشعير فهو خمسة وعشرون ليفراء، وثلاث سوًات
وتسعه دوانق.

ونكلفة حذوة الفرس أربعة ليفرات، وست سوًات.

ونكلفة الحديد والمسامير المستخدمة في تقوية العربات، وإصلاح القديم
منها، وصنع عربات جديدة ليفران، وأربعين عشرة سوًاتاً وتسعه دوانق.

ولقاء الشحوم الحيواني المذاب والزيت، والخل وثلاثين رطلًا من الشمع
لسنة واحدة، فالأجر هو ليفران، وسبعين دوانق.

سجل جنة ورثة كالدرالية أوتن 1295-1294 (مقططفات)

ومع هذا، ورغم الاجتهاد والإحباط الفني المتوقع وخطر السقوط واحتمال الموت، فمن
الصعب علينا القول: إن عمل رئيس العتال هو أقل الأعمال جاذبية في موقع البناء في القرون
الوسطى. إن أسوأ الأعمال هي التي كانت تدر دخلاً زهيداً. ويشتند التناقض للحصول على
لقب أسوأ الوظائف بين وظيفتين أساسين داعمتين، لا يمكن دونهما وضع الحجارة والطين
معاً، وهاتان الوظيفتان هما: حارق الجير ومشغل العجلة.

حارق الجير: (Lime Burner)

يعد أكسيد الكالسيوم، أو الجير كما هو معروف، أحد أكثر المواد تنوعاً في العالم، فهو مكون أساسي في الطلاء المعمق للجرائم، وتم استخدامه - في الفترة الأخيرة من العصور الوسطى - لتحسين بنية التربة ومعادلة الحموضة فيها، مما يؤدي إلى زيادة في المحاصيل، ييد أن الاستخدام الرئيس للجير هو صنع ملاط البناء. وللماط الجير، وهو خليط من الجير



تظهر هذه الصورة المصورة قاطعي الحجارة في المحاجر، والباحثين في مواقع العمل. ورثه في واجهة الصورة البناء الدهان الذي يقوم بخلط الملاط الجيري المصنوع من الجير المروي الناتج عن عملية حرق الجير.

والرمل والماء، ميزات تجعله - حتى يومنا هذا - أفضل من الأسمدة الحديثة، فهو يسمح للبناء بالتنفس، ولكونه ليس قويا كالحجر، فإنه يحمي البناء من التقشر.

وتكمّن المشكلة في أننا لا نستطيع استخدام الجير في البناء بحالته الطبيعية، إلا بعد حرقه، ويتضمن هذا العمل تسخين الحجر الجيري (وفي بعض الأحيان قشور المحار) إلى درجة يتم خلالها التخلص من ثاني أكسيد الكربون، وتحويل البقايا إلى كلل من «الجير الحي»، الذي يخلط بعد ذلك مع الماء للحصول على جير مطفأ، وهو عبارة عن مسحوق يمكن استخدامه كمساءد، وفي ملاط البناء، قد يدو الأمر بسيطاً، يد أن كل مرحلة من هذه المراحل كانت محفوظة بالمخاطر، ويدو هذا الأمر جلياً من الكلمات المستخدمة لوصف المواد ذات العلاقة، فكلمة (quick lime) تعني الجير الحي، بينما كلمة (slaked lime) أو الجير المطفأ تعني الجير الجاف جداً، وهو يحتاج إلى من يطفيه ظماه.

كانت عملية حرق الجير شتم على أطراف الغابات، وقرباً من موقع البناء، وذلك لتتوفر مصدر ثابت من الخشب لأفران الجير، التي يوضع فيها الحجر الجيري. وكان على العاملين (وهم اثنان «الحججاري» و«الحارق»)، عندما تصل حرارة الفرن إلى الدرجة المطلوبة، وهي 1100 درجة متوية، أن يعملوا لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم. وتكون مناوبة الحجار نهارية، بينما يبقى الحارق مستيقظاً طوال الليل لازالة الجير الحي، وتغذية الفرن بالفحمر والحجر الجيري.

وقد يتسبب ثاني أكسيد الكربون - الناتج عن عملية الاحتراق - في إصابة بعضهم بالشلل، وفي أحيان أخرى، قد يقتلهم. لهذا لم يكن مستبعداً أن يسقط بعض الحارقين المصاين بفقدان الوعي في أفرانهم ليلقوا حتفهم حرقاً. ولكن، حتى وإن حافظوا على أنفسهم من شر الموت حرقاً، لم يكن عملهم مريحاً على الإطلاق. كانت عملية البناء تتم في الصيف، لأن الجليد قد يتسبب في تصدع الحجر، والطين. لهذا ليس مستغرباً إذا عرفنا أن حارقى الجير كانوا يتلقون جزءاً من رواتبهم على شكل بيرة.

إن الجير الحي، الذي يتم إخراجه من الفرن، مادة لاذعة غير مستقرة على الإطلاق، وقابلة للاشتعال على الفور. وتفاعل بعض مع أي شكل من أشكال الماء (بما فيها رطوبة الجلد). وعندما يقوم الحارق بإخراجه من الفرن، قد يتسبب الغبار اللاذع بتحسس في



العينين والأذنف. وقد تكون النتائج أسوأ من ذلك لتهيل إلى حد العمى والإصابة بحروق بالغة.

ولمعالدة المادة الناتجة، كان على الحارق أن يطفئ ظمامها، وكانت هذه العملية خطيرة أيضاً، فهي تفاعل حاد قد يتبع عنه هايدروكسيد الكالسيوم وحرارة وبخار، وللقيام بهذه العملية يقوم الحارق بتطهير كل الجير الحي في الماء، وعجرد غمرها بالماء، يحدث تفاعل انفجاري، وقد تتطلب أجزاء صغيرة من الجير كالقابل العنقودية. وعندما يتتصدع الجير ويتشقق، يمكن الحارق من سحقه إلى مسحوق.

عاني حارقو الجير الأمرئين من الحرارة المخيفة، وكانوا معرضين دائماً للموت تسمماً بأول أكيد الكربيون، أو من غفوة قد تسقطهم في فرن الجير. وقد يتعرض بعضهم للجروح، وقد يصاب بعضهم بالعمى. ومن الطبيعي أن ت تعرض أيديهم وشفافهم للشققات نتيجة احتراق شظايا الجير الحي الالاذعة عند ملامستها رطوبة جلدتهم وبقایا المخاط.

عامل العجلة (Treadmill Operator)

لا يقوم عامل العجلة بشيء آخر سوى إدارة العجلة. فهو لا يتوقف عن الحركة لإدارتها. قد يbedo هذا العمل أقل خطورة من عمل حارق الجير، لكنه ميل إلى أبعد المخدو. نشأت الحاجة لهذا العمل الممل نتيجة الثورة، التي حدثت في بناء الكاتدرائيات في العصور الوسطى، ولقد جاءت نتيجة حتمية لارتفاع الرافعات. فمع اختراع الآلات القوية التي كانت تحمل الحجارة الثقيلة والدعائم الخشبية إلى مكانها المحدد، أصبحت الحمّالات الخشبية أخف بكثير، وأصبحت عملية البناء تتم بسرعة وفاعلية ليس لها مثيل من قبل. ففي السابق كان هناك جدار صلب من الخشب لحمل الحجارة الضخمة التي تنتظر وضعها في مكانها. في حين أن المعماريين يقومون بتصميم أدراج ومرات دائرية متتحمة في بناء الكاتدرائية نفسها، وكذا فإنهم يستطيعون تشييد منصات بناء خفيفة الوزن في موقع البناء نفسه. ومن ثم يستطيعون فك هذه المنصات ونصبها في

يت هذه العجلة في تورماندي
ـ سهـام العـاجـقـقـرـوـسـطـلـيـهـ
ـ خـرـجـوـنـهـ وـصـرـرـهـ الـتـيـ ظـهـرـ
ـ فـيـ نـخـطـرـطـاتـ.ـ وـماـزـالـ
ـ مـثـلـ بـعـضـ الـسـاجـقـ الـأـسـلـيـهـ
ـ لـتـيـ تـسـطـعـ مـشـاهـدـهـ
ـ كـعـنـ الـمـجـرـودـهـ فـيـ كـانـدـرـاـهـ
ـ سـاحـرـبـرـيـ.



مكان آخر ضمن موقع البناء، أو نقلها بعيداً إلى مكان عمل آخر. ويمكننا مشاهدة صور الرافعات في معظم الرسوم التوضيحية لعمليات البناء في أواخر العصور الوسطى. ويتم تشغيل الرافعات الصغيرة عن طريق إدارة عجلة من الخارج، أما الرافعات الكبيرة التي تدور حول محورها، ويمكنها أن ترتفع أو تنخفض، فيتم نقلها إلى مكان العمل - جزءاً تلو الآخر - عبر استخدام الرافعات الصغيرة، أو دواليب الدفع، ومن ثم يتم بناؤها عالياً فوق الكاتدرائية.

ويقوم على تشغيل هذه الرافعات رجال يمشيان داخل دولاب، وهذا يمثلان أوج الثورة المعمارية، بكل ما تحمل الكلمة ثورة من معنى، على الرغم من أن كل ما يقومان به هو المشي.

ويقال إن الأشخاص المكفوفين في المجتمع المحلي هم من اختياروا للقيام بهذا العمل السني. وكانت الرافعة تنصب عادة على أعلى نقطة وصلها البناء. ولا بد أن المنظر كان مطلباً، وكاشفًا عن أجزاء المدينة وما يحيط بها من ريف، وعلى الأرجح لم يصل أي من السكان المحليين هذا العلو في البناء، أو حتى رأى مثله من قبل. إن مجرد رؤية مثل هذا المنظر لهو شيء، فاتن وثير للأعصاب. غير أن مشغلي العجلة كانوا معرضين على الدوام للسقوط بسبب الدوار. فقد مشوا على سلسلة من الصفائح المعدنية المصوقة بعضها إلى جانب بعض، مع وجود

فراغات صغيرة بينها. ولهذا كانوا على الدوام يقعن ضحايا للفراغ المفتوح أسفلهم. وتقول النظرية: إن المعاين بصرياً يستطيعون تحبب الدوار، الذي قد يؤثر على الأصحاء بصرياً. كان مشغلو العجلة يمشون طوال اليوم إلى الأعلى، وإلى الأسفل، من الفجر حتى الغسق، سواءً أكان الجو ماطراً أم شرقاً، لقاء نفقات عيشهم، أو أكثر من ذلك بقليل، ولكن السأم يمكن أسوأ ما ينطوي عليه عملهم.

فالتحكم بالعجلة كان بالغ الصعوبة والخطورة. فإذا ما أخذت العجلة بالدوران، فعملها كعمل أثقل غيره في الدرجة الجبلية. وللأم دوراً واحدة من المحور الذي يحمل الجبل، كان يجب أن تدور العجلة التي يمشي فيها مشغلاً مرتين أو ثلاثة، وكان من الصعب جداً إعطاء العجلة قوة دافعة. ولكن الأصعب كان إيقافها إذا ما تم بيت القوة الدافعة. ومن الأخطار التي كانت تواجه مشغلي العجلة وضع أي جزء من جسمهم خارج الفقص، لأن حركة العجلة الضخمة قد تقطع أيديهم، أو أذرعهم، أو رأسهم. لبارزة عند تقاطع العجلة مع ركائز الرافعة.

وهكذا فإن مشغلي العجلة كانوا عالقين في قفص متحرك خطير، ولاسيما إذا كان مجتمع الرافع سيناً، أو كان الخشب ذات عيوب، أو تعرض للخراب بسبب المطر أو الجليد، ولكن تخلوا عن مشغل العجلة الكيفي إذا ما أخذت هذه التكنولوجيا بالتداعي من ارتفاع خمسين متراً فوق أرض صلبة قاسية، وهذه الحوادث لم تكن نادرة. ولهذا، هل يمكن القول إن عمل مشغل العجلة كان أسوأ عمل في القرون الوسطى؟ مازال هناك عدد كبير من المتنافسين على هذا التميز المرrib، منها على سبيل المثال عطن الكتان أو نفعه.

نافع/عاطن الكتان (Flax Retter)

يجد في العصور الوسطى نوعين أساسين من القماش هما: الصوف والكتان، وكان إنتاج أي منهما يتطلب أداء واحد من أكثر الأعمال سوءاً. فالإنتاج القماش الكتانية، وأعلام الصليبيين، وأغطية المذابح الناعمة الملمس في الكاتدرائيات، كان عمل عاطن الكتان ضروريًا. غير أن هذا العمل كان مملاً ومحنداً للدماغ؛ فلقد كان بطيئاً جداً إلى حد أن مشاهدة فيلم

بالعرض البطيء، لدهان ديلوكس ويثرشيلد (Dulux Weathershield) وهو يجف، يعد سريعاً عند مقارنته بعمل عاطن الكتان.

والكتان، ذو الزهرة الزرقاء، ما زال حتى يومنا هذا يغطي الريف في أواخر مايو، وهو نبات متعددة الاستخدام. فعند طحنها يتم استخراج زيت يذور الكتان، ويمكن معالجة أعناقها ذات الشعرات لاستخلاص شعرات الكتان. إن عملية عطن الكتان عملية بطيئة إلى حد مرض، ويتم خلالها فصل حزم الشعرات، التي تحبط بعث زهرة، بعضها عن بعض عبر العطن الذي يمكننا من التحكم بها.

قد لا تبدو عبارة «العطن البطيء» مناسبة لوصف وظيفة ما، لكن هذا العمل أسوأ مما توحى به هذه العبارة.

يقوم عاطن الكتان بالتركيز على سويقات الكتان بعد قطعه على درجة مناسبة من النضج، وإزالة البذور لاستخراج الزيت، ويمكن عبر عطن الكتان (ترك الكتان ليتعفن)، من إزالة المادة السكرية والصمغية المسؤولة عن التصاق الشعرات بعضها ببعض. وتطلب هذه العملية شيئاً من المهارة، فإذا تعافت النبتة بدرجة تفوق الحد المطلوب، أو كان هناك تفاوت في درجة العطن، فإن المادة الداخلية ستتأذى، وبناء عليه، فإن درجة الحرارة المطلوبة هي التي جعلت هذا العمل مملاً. وكان عليك كعاطن للكتان، أن تراقب هذه العملية طوال الوقت وأسابيع.

ولقد شهدت إنجلترا العصور الوسطى تطبيق طريقتين لعطن الكتان هما: عطن الندى وعطن الماء. تتطلب الطريقة الأولى وضع نبات الكتان في حقل ذي عشب قصير وتركه ثلاثة أو أربعة أسابيع، وخلال هذه الفترة، تأخذ الشعرات بالتكسر بشكل بطيء، وفي أثناء ذلك يقوم العاطن براقبته يومياً. ويد نتاج هذه العملية أجود، ييد أنه يحافظ الشمن.

اما الطريقة الأخرى، فلقد كانت تتطلب مهارة أكبر، وتستغرق وقتاً أقصر قد يتدنى من سبعة أيام إلى عشرة. وفيها يُجمع الكتان بعناية فائقة على شكل حزم، لضمان العطن المتساوي، ويوضع تحت الماء، وأسرع ما يكون العمل في الماء الراكد، لأنه يحتفظ بحرارة الشمس، التي قد تسهم في تسريع عملية العطن.

ولكن كل طريقة لها عيوبها، فعطن الندى كان مهلاً بحق؛ وقد يتطلب شهر أو كاملاً من المراقبة المستمرة. وحتى لو تمكنت من تحمل السأم معبقاء متتها معظم أيام الصيف - فوق

ما يمكن اعتباره بحق كومة من العفن - فإنك معرض لأن تخسر مصوّلك كلّه، إذا ما تغير المحو، لأن هذا قد يؤدي إلى تفawت في درجة العطن.

ومن جهة أخرى، كان عطن الماء كريهاً، رغم أنه الطريقة الأسرع، والأكثر إنتاجية. فتفاعل الماء مع الكتان قد يتسبّب في مادة تسمى بحامض الزبدة (butyric acid)، وهذا الحامض ذو رائحة كريهة، ولا سيما عند استخدام الماء الرأكد، كماء بركة أو خزان ماء، وتكون العملية أسوأ إذا ما حاول عاطن الكتان تحبس الرائحة الكريهة عبر استخدام الماء الجاري. على الرغم من أنه أسرع، وخال من الرائحة الكريهة، لأن العطن قد يلوث مصدر الماء، وبهذا قد يصبح عاطن الكتان مقاطعاً وموضع سخط جيرانه.

وبنتيجة عمله، قد يجد عاطن الكتان نفسه في موقف لا يحسد عليه، فهو مقطوع بين مراقبة دائمة لحفل من النبات الميت، ذي رائحة كريهة جداً، وبين أن يصبح موضع سخط الجميع. لم يتفرض عمل عاطن الكتان على الإطلاق، فالكتان مازال يعالج، ولكن بطريقة تستغرق ستة وثلاثين ساعة، بدلاً من أشهر طويلة. غير أن عمل عاطن الكتان أصبح أقل أهمية بسبب استخدام نبات جديد، فقد شهدت أوروبا في القرن الرابع عشر دخول نبتة جديدة من العالم العربي ذات ألياف أخف هي القطن (cotton) أو (قطن) كما أصبحت تعرف الآن.

ولكن العمل الذي قد ينال الشرف الأعلى لكونه الأكثر ساماً، والذي لا يمثل له في الوضاعة، يبعد ملايين الأميال عن رائحة العطن الريفية. فهو يقع في صلب العمل الحكومي.

ناسخ اللفائف الأنبوية (Pipe Roll Transcriber):

هل كنت ستوافق على القيام بعمل ذي دخل جيد، يد أنه يتطلب نسخ سجلات إبرادات الدولة بخط طبيعي غير مختزل دون أخطاء؟ كان هذا هو عمل ناسخ اللفائف الأنبوية، الذي لا يحسد عليه.

أصبح المجتمع القروسطي خلال القرن الثاني عشر أكثر تعقيداً، فصناعة الصوف جعلت الأفراد والمؤسسات أثرياء، ويتواز مع ذلك، أصبح نظام الضريبة الذي أقره الملك أكثر تعقيداً. فلقد سن الملك هنري الأول عام 1129، اللفافة العظيمة، وهي نظام دونت به جميع الديون

التي تدين بها المقاطعات للملك مرة واحدة في العام. ونص القانون على ترحيل الديون، التي لا يتم سدادها للعام الذي يليه. وكان ولاة الملك يقدمون إلى الخزينة حاملين ما يديرون به من ضرائب، ويقوم ناسخ اللقائف حينها بتحجيم كتابة سجل حار تنسخ فيه القيد. وكان يقوم بهذا العمل ناسخ الوزير.

اكتسب وزير الخزينة اسمه من غطاء الطاولة ذي المربعات البيضاء والسوداء الذي يشبه رفعة الشطرنج، والذي استخدم في حفظ سجلات مؤقتة للمعاملات المالية في الخزينة. بل كان يستخدم كعداد أو حاسبة، فقد كانت الكرات على القضايا تشير إلى الباوندات، والشلنات والقروش المستدامة، وتلك التي تم دفعها. ونستمد معظم معلوماتنا حول عمل ناسخ الوزير، والنظام الضريبي من كتاب، كتب بين عامي 1176 و1178، وهي فترة وجيزة تلت سن نظام اللقائف الأنبوية. خط ريتشارد فيتزنيجل (Richard Fitznigel) قيم الخزينة، كتابه سجلات سكارابيو (The Dialogues of Scaccario) كحوار بين تلميذ وسيده، يطلعه فيه بالتفصيل على عمل الحكومة. والفقرة التالية تتضمن وصف فيتزنيجل للناسخ:

«إن منضدة الحساب سطح ذو زوايا أربع، يبلغ طولها عشرة أقدام وعرضها خمسة، وتوضع أمام أولئك الذين يجعلون حولها كالطاولة تماماً. وحوافها مرتفعة بمقدار أصابع يد الرجل الأربع، وذلك للحيلولة دون سقوط أي شيء، قد يوضع عليها. وتغطي المنضدة بقماش يتم شراوه عادة في موسم عيد الفصح، وهذا القماش ليس اعتيادياً، بل كان أسود موسوماً بخطوط يعد بعضها عن بعض مسافة قدم أو مقدار ذراع. وفي هذه الفراغات توضع عدادات، لكل منها قيمة مختلفة، وستكلم عن هذا لاحقاً. وعلى الرغم من أن هذا السطح يدعى منضدة الحساب (exchequer)، إلا أن الاسم قد تغير كثيراً ليشير إلى هيئة الأفراد القائمين على لوح الحساب. لهذا - أعلم - إذا ماسن أي قاتون في أي وقت من الأوقات عبر مجلس تشريعي محلي أنه قد تم على طاولة هذا الخازن في هذه السنة أو تلك»

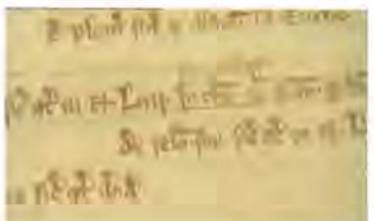
تم تحويل هذه الوثائق، بحلول عام 1300، إلى لفائف أنبوبية. وسميت بذلك إشارة إلى الطريقة المميزة التي تباطط بها أغلفتها بعضها إلى بعض. وبدت عند لفتها كأجزاء من أنبوب واحد، وربما يشير هذا الشكل إلى دورها في تدفق المال إلى الخزينة، كما يسمى الأنابيب في تدفق الماء. كانت اللفائف عريضة، وأصبحت مع مرور السنين أطول بحيث أصبح طول بعضها ست أقدام. وأصدروا المزيد من اللفائف كل سنة، وذلك لأن جزءاً كبيراً من ديون الدولة يقع غالباً بلا سداد. ولهذا كانت الديون تدور في كل أنبوبة للسنوات اللاحقة.

كان النسخ، نظراً لأهمية المعلومات التي تحويها اللفائف، يكتوّنها على رفاقات جلدية، وساعد استخدام هذه المادة في تخفي الغش، لصعوبة مسح ما كتب عليها. وعني هذا أيضاً عدم قدرة النسخ على مسح أخطائهم. وإذا ما حدث خطأ ما، كانت تم الإشارة إليه بخط صغير تحت الكلمة الخطأة، أو بوضع نقطة صغيرة إلى جانب الخطأ.

وتعود وظيفة الناسخ عملاً جمع بحرفية عالية قمة التوتر والتشدد. ولقد عمل ناسخ الوزير على وقفة واحدة مع شخص ياتس آخر هو ناسخ الخزينة، الذي كان يجهز الرفاقات الجلدية، ويكتب ما يعلى عليه. وحالما يتنهي من كتابة الأرقام، كما جاءات، كان على الناسخ أن يعيد كتابتها كلمة كلمة، وبسرعة.

وعلى سبيل المثال، قد يظهر وبشكل مفاجئ شريف سيسكيس ووفده المرافق له. وتشير أرقام طاولة الحسابات حينها إلى أنه يدين للملك بستمائة وأثنين وأربعين باونداً، وأربع عشرة سنوات، وتسعة دوانق، ولكنه دفع ستمائة وتسعة عشر باونداً، وبسبعين سنتاً وثلاثة دوانق، وبناء عليه يتم تحريك خرزات الحساب لتشير إلى وضعه الجديد: بأنه يدين بثلاثة وعشرين باونداً، وسبعين سنتاً، وستة دوانق، ويتم إسقاط الأرقام الجديدة على اللفائف الأنبوية على الفور، ويقوم الناسخ بنسخها على الفور، فما له من عمل مثير؟

وكانت هذه المهمة للناسخ مثل قمة التوتر وضغط العمل؛ فعليه أن يكون سرياً ودقيقاً، فليس هناك مجال للخطأ، وكان الناسخ يقوم بعمله ويداه باردةتان في غرفة حجرية معرضة لمختلف تيارات الهواء، وكان يعلم بأن يومه هذا لا يختلف عن أي يوم آخر في عمله، وكان الناسخ في أثناء عمله موضع مراقبة تامة من قبل موظف الوزير، الذي يسترق النظر من خلف كف الناسخ لتصيد أخطائه. وتطلب العمل تركيزاً عالياً لتجنب حدوث أخطاء، فضلاً



عن كون المادة المكتوبة مملة جداً. ولا يقارن وضع هؤلاء النسخ بوضع كتاب الاختزال في المحاكم، أو بطابعي الكلام المحكي في القرون اللاحقة، لأن الآخرين يكتبون مادة لها طعمها الخاص. إن عملية نسخ اللفائف الأنبوية أشبه ما تكون بنسخ دليل الهاتف. تلخص عبارة فترنايجل التالية كنه هذا العمل: «إنه تحر دقيق، يبد أنه مضن في الوقت ذاته»:

«إن العناية، والجهد والحماسة التي قد يشعر بها آخر الناسخين تكمن في

العمل المطلوب منهم القيام به، إلا هو نسخ اللفافة كثي، ساري. لا يظهر في اللفائف عمدان الأخرى كلمة كلمة. محافظاً على الترتيب نفسه كما من الأرقام بل نص مكتوب وفق طريقة تحدثنا سابقاً، والوثيرة ذاتها. يقوم الناسخ بكتابة الكتابة المتعة حينها. وضم الاشارة إلى الأخطاء غير وضع خط تحت الخطأ وكتابة التصحح لعله.

الدعفات التي (في نظر البارونات)، يجب أن تدفع في أثناء انعقاد جلسة الناسخ، عن طريق الخازن

والأنباء، ويقوم الناسخ كذلك بكتابة الكتب الملكية المتعلقة بحساب، أو إسقاط، الحسابات التي تعتقد البارونات أنها تستحق الحساب أو الإسقاط في أثناء انعقاد جلسة الناسخ المحاسب. ومن واجباته أيضاً عند سداد ديون المفوضين في المقاطعات، وعند انتهاء فترة سداد الديون الملكية، التي صدر بحقها أوامر بوجوب الحضور إلى المحكمة، أن ينسخ الديون بدقة وعناية فائقة؛ وذلك لإرسالها إلى جميع أنحاء المملكة، فلأجلها وبسبها سيتم استدعاء الناسخ المحاسب الجديد».



وقد سلت هذه الوظيفة شاغلها جميع جوانب شخصيته، فهي لا تطوي على أي جانب شخصي، وقد حملت الوثائق الرسمية في العصورظلمة في أماكن أخرى، إشارات خاصة تشير إلى النسخ الذين قاموا بوضعها.

ومن هذه العلامات: كتابات ورسوم ليس لها معنى، وخرشات، وملحوظات هزلية تشير إلى درجة السأم الذي يشعرون به في عملهم.

وكانت القواعد تنص على أن يتولى «النساخ الخنز كي لا يكتبوا شيئاً خاصاً بهم في اللفائف». ولم يسمح للناسخ حتى التمتع بخاصية خط يده؛ بل عليهم جميعاً إنقان خط واحد، لتمييز عملهم من عمل الآخرين. ونظراً لكتابة الحسابات تحت ضغط مستمر، تم استخدام خط معلق حديث سهل الكتابة؛ عوضاً من الكتابة ذات الروايا التي شاعت في بدايات القرون الوسطى، التي تم استخدامها في سجلات الأنجلو-سكون.

ومن ناحية مادية، كان الناسخون، يجنون مالاً وفيرأ. فعلى سبيل المثال، تلقى الناسخون عام 1136 أجراً قيمته خمسة دوافع في اليوم، في وقت كان فرسان البلاط يتلقون أجراً يقدر بثمانية دوافع في اليوم. وكان الناسخون يستمتعون بإجازات طويلة بين قفزات انعقاد المحكمة.

وعندما تم الاستغناء عن نظام اللفائف الأنبوية بعد إصلاحات عام 1832، تبين أن هناك بعض اللفائف تضم ديوناً تعود إلى القرن الثالث عشر. ونظراً للحاجة الماسة لحفظ ما عددده 624 لفافة أنبوية في مكان آخر عدا مكتب المحاسب، تم إنشاء مكتب القيد العامة وهو ما يسمى الآن بالأرشيف الوطني. تم اللفائف الأنبوية المؤرخين بمصادر رائعة مكتنهم من تعقب دقائق الحياة في المحكمة، وذلك عبر الديون ودفعات السداد المتعددة.

أصبحت اللفائف الأنبوية أكثر طولاً مع غزو الاقتصاد الإنجليزي، مدفوعاً بنمو صناعة الصوف، وبرزت قيمة هذه الصناعة ومكانتها بشكل واضح، في صورة رئيس الوزراء، وهو جالس بعظمة فوق كيس فيه صوف. وقد أصبح عدد الأغنام في إنجلترا بحلول عام 1300،

خمسة عشر مليوناً، أي ما يقارب ثلاثة أضعاف عدد السكان.
 اعلم - إذا كان اسم عائلتك (Fuller) أو (Tucker) أو حتى (Walker) - أن أحد أجدادك
 البعدين قد عمل في صناعة الصوف، وأنه قضى يومه بأكمله، يمشي بثاقل في بول الإنسان
 البائس، غائصاً حتى ركبتيه، ومن هنا جاء الاسم (Walker) أي (المشاء).
 ومن المؤكد أن هذا العمل مؤهلاً تماماً لعنة أسوأ مهنة في القرون الوسطى.

أسوأ مهنة على الإطلاق

(Fuller)

كانت الخطوة التالية لجز صوف الأغنام، تمشيطها، ثم لنها لتصبح خيوطاً للغزل يتم
 نسجها. ولتسهيل عملية الحياكة، يترك الدهن الطبيعي في الصوف. غير أن القماش الناتج بدا
 خشنًا، ومتشابكاً إلى حد بعيد، وكانت مهمة القصار أن يدوس الصوف، ليزيل منه الدهن



شاهد جز صوف الأغنام يعود إلى القرن الخامس عشر. ولكن هل الشخص المرادي الأحمر يجلس مرآياً أم أنه يتظاهر بالاصرار في حوض قدر ذي رائحة كريهة؟



والشوائب الأخرى. وقد يجعل عملية الغسل القماش أكثر نعومة، ومنكثاً لسد الثقوب الصغيرة وأكثر سماكة، بينما تsem عمليه الدوس في شبک سحفات⁽¹⁾ ألياف الصوف بعضها بعض لزيجاد سطح متماسك لا يتشتت.

ومن شروط السائل، الذي ينفع فيه الصوف المحبوك بشكل غير متماسك، أن يكون قلويأ ليسمهم في تفكك الدهن. وكان أرخص محلول قلوي متواافق حينها هو البول القديم. وكان على القصار أن يحصل على غالونات من هذه المادة، التي يقوم بجمعها عادة من المزارع والبيوت

لا شيء على الإطلاق قد يعدل رائحة اللحم النسخة، حتى إن أحد القصاريين المجدين في هذه الصادرة عن البول البالات، للأموريا الصادرة عن فرنسية إلى المهنة قام بإنشاء سلسلة من الحمامات العامة، يقوم درجة تدفقها إلى الشفاف في كل مرة تأخذ فيها شهيفاً. بدأ ثابت بشكل لا يدع مجالاً للشك أن العملية ناجحة، عادة بسلبها خيراتها.

لم يكن هذا العمل شيئاً ماماً، فقد امتلك للمرتفع سرى ملائكة معدودة حتى تحمل المعن من فوق القماش وترسب في البول.

القصارون المواد التي كانوا يبحاجتها، ولم يتضوروا جوعاً على الإطلاق، فقد شكلوا عنصراً لا يمكن الاستغناء عنه في الصناعة الرئيسية المساعدة في تلك الفترة، وكانت يكسبون قوتاً يعادل قوت ساكني العملة النقدية.

سيبدو العمل إذا نظرنا إليه بأذواقنا - نحن أبناء القرن العشرين والحادي والعشرين - مقرضاً، بل ورتباً إلى حد السأم. فهو يستغرق سبع أو ثمان ساعات من الدوس المتواصل فوق نقطة ما لإنتاج عمل كامل من القماش السميك. لم يكن القصار ليجرؤ على أن يغيب ذهنه للحظة واحدة، وحاله هنا كحال عاطل الكان. فعليهما أن يكونا يقطنين لضمان حصول كامل

(1) مفردها سخفة وهي الشحمة التي على الظهر الملتقة بالجلد.



القماش على معالجة متساوية متناسقة. وعلى القصاريين أن يكونوا مهرة بما يكفي ليعرروا مقدار ما يحتاجه القماش من الدوس. وقد تؤدي قلة الانتباه إلى حدوث فتحات في القماش، فيذهب جهده سدى ويصبح القماش المعالج غير صالح. وبعد إتمام هذه العملية، يغمس القماش في الماء ويعملق على مشابك ليحف. وتنصب هذه المشابك في العادة على جوانب النلال، ل تقوم الشمس والريح بتجفيف المادة المخضلة بالماء. وكان حمل القماش الثقيل الذي يقطر ماء فوق تلة ونشره هناك عملاً قاسياً في حد ذاته. يتم ثبيت الصوف من أطرافه على أطراف المنشر، وخطورة أخرى، يعدل قضيب المنشر السفلي بحيث يصبح القماش مشدوداً ومتناوياً. ومن هذه العملية، التي تسبب التوتر، حصلنا على العبارة (tenterhooks) وتعني حرفيًا «على الكلابات»، والمصطلح المرادف لها في العربية هو «على الجمر».

وليس غريباً أن نعرف أن هذا العمل من أوائل الأعمال التي أصبحت آلية، فلقد أسهمت الدواليب التي تدار بالماء إبان القرن الثالث عشر في اختراع الواح القصار، وهي مطارق ضخمة من خشب البلوط، مثبتة إلى دواليب مسخرة بالماء، تقوم بطرق الصوف تاركة الأذر ذاته الذي تقوم به رجل القصار. وصممت الآلة بحيث إنها في كل مرة يتم بها طرق الصوف.

كان الصوف يلتقط القماش بкамاله معاجلة متماثلة، مما قد يضمن تقليل فرصة عطبه. ييد أن عملية الاتاج الضخمة الأكية لم تستغن عن رائحة البول، وتم في بعض الحالات، استبدال البول بخلط من الطين المستخرج من المناجم، والسيليكا وأكسيد الألミニوم، ولكن بقى البول مستخدماً حتى نهاية القرن السابع عشر، كما يوضح هذا الوصف الذي كتبته سيليا فينيس (Celia Fiennes) لطواحين القصارة في جزيرة وايت عام 1698:

«يتم جلب الصوف من التول، ويوضع في طواحين القصارة، ولكن في بداية الأمر يقومون بتنظيف غرفهم وفركها بالصوف، وقد يترك هذا رائحة كريهة في الغرفة، وذلك لأن الزيوت والدهون، كما أعتقد، تلوث الغرفة ولا تنظفها إطلاقاً، ولكنني أعتقد أن لهذا دوراً في عملهم يقدرون عليه هم، ومن ثم يرسلون في طلب معارفهم من القصاريين، والصياغين، والخانكين ليقوموا بدورهم في تنظيف بيوتهم وهذا ما كنت شاهداً عليه بأم عيني. وبعد ذلك، يقومون بنقع الصوف في البول، ومن ثم غسله بالصابون. ووضعه في طواحين القصارة، والعمل عليه ليجف ويصبح كثيفاً بما يكفي، ومن ثم يقومون بفتح الماء عليه، ونفضه وتقوم الطواحين بشد القماش وإرخاره، وبعد هذا المنظر مسلياً في حد ذاته، فالألواح الخشبية المثلثة بدت كأستان عظيمة، وقد يعتقد الرائي أنها ستحرج القماش، لكنها لا تفعل ذلك. تطبق الطواحين على القماش بقوة عظيمة، حتى إنه يمكن القول: إنه إذا ما كان هناك شخص واقف بجانبها وأمسكت بقطعة من ثيابه، ستكون قادرة على سحقه في طرفة عين».

لم تحمل طواحين القصارة محل الطريقة التقليدية في الاتاج بشكل كامل، فلقد كانت طواحين القصارة متنوعة في لندن في الفترة التي مرت في الأعوام بين 1298 و 1417، حفاظاً على الطريقة التقليدية. بل إن القصارة التقليدية - باستخدام القدمين - قد بقيت مستخدمة في فلورنسا، التي يدعى أهلها بأن هذه الطريقة هي الوحيدة التي تتبع قماشاً صوفياً ثقيراً،

وعلى درجة عالية من الجودة.

قد يبدو العمل إذاً ممكناً من إغلاق أنفك سهلاً إلى حد ما، ولكنني أعدك أنك، بعد نصف ساعة من القصارة التقليدية، لن تنظر إلى بلوزتك بذات الطريقة التي تراها الآن. وظلت عملية القصارة في قصيدة ولم يلتفت لانجلاند المسمى «رويا حراث الدعامة الخشبية»، التي تعود إلى القرن الرابع عشر كمجاز على تعميد. ومن الواضح في هذه القصيدة، أن الطريقيتين التقليدية والأكاديمية كانتا تسيران جنباً إلى جنب، حتى بعد مرأة عام من اختراع طواحين القصارة، وهي الفترة التي كتبت فيها القصيدة، وتقول القصيدة:

«لا يصلح القماش القادم من التول للبس
حتى يتم قصارته بالقلم أو المخشب،
وغسله جيداً بالماء وفركه بتجشم،
وثنيه وصيغه ليصل إلى يد الخياط». 101



مطبخ بودوري، ولكن تقوم النساء هنا بدور غلام السفود، حيث يقعن بوضع الدجاج على قصيب الشي.
ويجلسن عليه.

الفصل الثالث

أسوأ المهن في العهد التيودوري

إن ما نعرفه عن التيودوريين فهو شديد الإدهاش. فلقد خرجنوا من عمق العصور الوسطى الموات، كما لو أنهم شخصيات في فيلم ملحمي، فهنري الثامن وزوجاته السُّت، وتوماس مور، وماري الدموية (Bloody Mary)، وماري ملكة الإسكتلنديين، والملكة إليزابيث، وفرانسيس دراك، ووالتر رالي، كانوا جميعهم متحضرین وأذكياء، وعاطفين ووطنيين.



وإذا ما اعتقדنا بصحة هذه الحقيقة، فإن آلة الإعلام التيودورية كانت ناجحة، فمنذ اللحظة الأولى التي تلت انتصار هنري التيودوري في ميدان المعركة في بوسورث (Bosworth)، حاول هو وأسلفه أن يرسموا خطأً واضحًا بين «الأيام الماضية السيئة» والعصر التيودوري الجديد الملئ بالتفاؤل. وكان التيودوريون في أوج حظهم، لأن فترة حكمهم التي زادت على قرن بقليل ضمت مزيجاً آخرًا وفريداً من التوسع الاقتصادي والثقافي، مكثتهم من تحقيق هذه الثورة الإعلامية. ييد أن النتيجة النهائية كانت نسخة وردية «لإنجلترا القديمة السعيدة» في ظل النهضة التيودورية.

جعلت حركة الإصلاح الديني المال - الذي كان في السابق ملكاً للأديرة - يتدفق في الصناديق الملكية، وعززت الانتصارات العسكرية، وبراعة البحرية الإنجليزية، مكانة التجارة ومصادر القوة إلى حد لم يسبق له مثيل، واستخدمت هذه الثروة في رعاية الأعمال الخلاقية على مختلف أنواعها، وأخذت الأفكار الإنسانية بالتدفق على إنجلترا من جميع أرجاء القارة. فقد قدم إلى إنجلترا الرسام هانز هولبين (Hans Holbein) - على سبيل المثال - لرسم صور لا تنسى لأعظم الشخصيات السياسية التيودورية، وكذلك قام الملحنون من أمثال تاليس (Tallis) وبيرد (Byrd) وجون دولاند (John Dowland) باجترار صوت إنجليزي مميز في الموسيقى. وأخذ الكتاب من أمثال سبنسر، وفي مقدمتهم شكسبير بالطبع، يبد اللغة الإنجليزية

فارتقوا بها إلى آفاق جديدة، فكانوا يمدون ملوكهم باقتدار، ويحطون من قدر من سقوفهم من الملوك.

يبد أن كثيراً من جوانب النهضة التيودورية كانت خادعة، وربما قد فاتنا الحديث عن حقيقة الحياة في القرن السادس عشر. لكن يمكننا القول: إن ظروف الحياة لمعظم السكان في العهد التيودوري كانت استمراراً لظروف حياة القرون الوسطى البائسة، مع أن التيودوريين يرفضون الإقرار بهذه الحقيقة. فلقد ترکت النهضة الإنجليزية في البلاط الملكي، والبيئة المدنية، التي لا يسكنها سوى 6% من مجموع السكان، ونصفهم كانوا من اللذين، أما الباقي، فاعشاوا - دوماً - على الزراعة، ولهذا لم تتأثر حياتهم قيداً أبداً بازدهار الأدب الإنجليزي، غير أنها تأثرت كثيراً بآبوحات الوباء المتكررة وبالمجاعتين الرئيسيتين، اللتين ضربتا البلاد، في خمسينيات القرن السادس عشر وتسعينياته.

وأظن أن كثيراً من هؤلاء الناس سيختار - إذا ما طلب منهم ذلك - الرجوع إلى الأيام القديمة السعيدة، التي سبقت هزيمة السابع، الذي تنسب إليه إزالة آخر مظاهر عدم الاستقرار المرافقة لحروب الورود (Wars of the Roses)، غير أن ابنه، هنري الثامن، سبب رعباً عمّ البلاد، وفاق تلك الحرب. فلقد انفصل - وهو من خط الكتيبات المعادية للبروتستانت في صلاة القدس، ومن تم تسميته من قبل البابا «بالمدافعين عن الإيمان» - عن الكنيسة الكاثوليكية عام 1534 ليجيز لنفسه الزواج من آن بولين (Anne Boleyn). ولم يتميز بقية العهد التيودوري بانعدام الأمن، والكبت، والاضطهاد كلما حاولت الأنظمة المتعاقبة فرض آرائها الدينية فحسب، وإنما بتدمير الأنظمة الرهبانية أيضاً الأمر الذي أزال - وبصرية واحدة - نظام الأمن الاجتماعي السائد في القرون الوسطى. وكان أعظم ثأر لعملية الإصلاح الديني هو الزيادة الهائلة في عدد العاطلين عن العمل من متسلين ومتشردين.

ولكن ما المهن التي كانت متوفرة في سوق العمل التيودوري؟

الجلاد (Executioner):

يمكنا بمحاجة القول حول القبضة التيودورية الحديدية في الحكم بالإشارة إلى الرموزين المثلازمين: برج لندن وحاميل الفأس المقعن، المنذر بموت قريب. ورغم أن القرون الوسطى

قد شهدت العديد من وقائع تنفيذ أحكام الإعدام، فإن الفاس لم تصبح أداء ترمز لسيطرة الدولة إلا في عهد التيودوريين. وارتدى كل من سبق إلى المفصلة—وإن كان في سابق عهده ذا منصب وجاهة—ابتداءً بسيدة البرج الدموي، وانتهاءً بهوغارت ذي الرقبة التي لا تحمل رأساً، طوق الرقبة التيودوري المكشكش. وضمت قائمة من ضربت أعناقهم بعضاً من أشهر الأسماء في تلك الفترة كوماس مور، وأن بولين، وماري ملكة الإسكتلنديين.

وما يفهم في عد هذه الوظيفة واحدة من أسوأ المهن هو الفطاعة الملزمة لطبيعتها، ومن يضطلع بها، وتلك المكانة النيمونة لشاغلها بين أفراد المجتمع ناهيك عن النظر البشع والشعور بالدمار النفسي لانهاء حياة إنسان. لكن التلويع بالفاس ليس سوى جزء بسيط من عمل الجلاد، فقد بلغ عدد عمليات الإعدام خلال الفترة التيودورية 70 ألف عملية؛ لم تشغل عمليات قطع الرأس منها سوى عدد ضئيل، ذلك أن عمليات الموت السريع بواسطة التصل كانت حقاً خالصاً للنبلاء. أما عدد حالات الحرق المخصصة لليروستتين في عهد الملكة ماري فقد بلغ مئتين وتسعاً وثمانين حالة. وكانت حالات الشنق الطارئة، والمثلج؛ وتعني به جذب الأطراف إلى جهات متباينة والتقطيع، مخصصة للخربنة والثمردين. ولا تundo باقي حالات الإعدام عن كونها عمليات شنق اعتيادية. ولم يتم عمليات الإعدام في برج لندن، مع غزارة ما سطّرناه من أساطير حول هذا الموضوع؛ فعدد العمليات التي سميت هناك لا تزيد على سبع عمليات إعدام فقط، بدأت بوليم لورد هاستنجز عام 1483، وانتهت ببرورت ديفيرا، إبريل إيسكس في الخامس من شهر فبراير عام 1601. وكانت عمليات الإعدام الأخرى تتم خارج البرج، على تلّه، أو في تايرن (Tyburn).

وتشير رابطة تايرن أن الجنادين قد اكتسبوا الكببة جاك كيتش (Jack Ketch) في القرن السادس عشر وما تلاه. وكانت الأرض المحاطة بتايرن ملكاً لعائلة تسمى جاكيت (Jacquette) لما يزيد على 300 عام، وجاءت الكببة تحرifaً سيناً لهذا الاسم. وفي وقتنا الحاضر يستدل على مكان نصب المشانق بحلقة نحاسية مثبتة في الرصيف؛ ومكانها جزيرة المرور الوسطية الواقعة في متصف إدجوار رود (Edgeware Road) عند تقاطعه مع ماربل آرك (Marble Arch).

كانت عمليات الشنق فظيعة للغاية، وكانت الضحية في بدايات الفترة التيودورية تقاد إلى

المشتفة على سياج تجره الخيل. وفي العادة، يعتلي مساعد الجلاد قمة المشتفة متظراً صعود الضحية، التي تُعزى من ثيابها. ويقوم المساعد لحظة صعود الضحية بوضع جبل رقبتها، ومن ثم يقوم الجلاد بسحب السلم، الذي يقف عليه المدان.

تسخت هذه الطريقة بأخرى أجمع منها، يتم من خلالها شنق مجموعة من الناس مرة واحدة. وتنطلب هذه الطريقة أن يجعل المحكوم عليهم بالإعدام على عربة، وأن يلف الحبل حول أنفاسهم على شكل عقد. ومن ثم تربط الخيال بقضيب خشبي مشتبث بشكل أفقى. وتصفع الخيل لدفعها، وجعلها تتحرك لتجر العربة من تحت المدانين.

بيد أن كلتا العمليتين كانتا بطيبة ومؤلمة، فلم تكن الخيال تعقد بطريقة تسهم في كسر العنق، كما هي الحال في عمليات الشنق القضائية الحديثة. ولذا كانت عمليات الشنق القديمة موتاً بالحقن يدوم نصف ساعة، تتفتح خلاله العينان، وتواصل القدمان في أثناء الرفس، تاهيك عن إفراج ما في المثانة والأمعاء من فضلات.

وكان للجلاد - بعيد الانتهاء من عملية الإعدام - حق التصرف بملابس المحكوم عليهم، كما كان له حق بيع أجزاء من العقدة التي تحبطة برقبة المدان؛ فقد عذّت هذه الأجزاء جائبة للحظ الجيد. ومن هنا جاءت العبارة الإنجليزية (money for an old rope) ومعناها المحرفي «مال مقابل حبل قديم»، وتعد هذه العبارة إحدى العبارات المرتبطة بعمل جاك كيتش، ومعناها المجازي «طريقة سهلة لخني المال».

وقد يتبثث بكل محكوم عليه بالإعدام بعض أصدقائه، كانت مهمتهم



خمسة محظوظين تم إعدامهم شنقاً

إنتهاء معاناة المحكوم عليه بالإعدام سريعاً، عبر التثبيت بقدميه وجنبيهما للأسفل على أمل أن ينكسر عنقه، أو أن يجعل ذلك في عملية اختناق. ولكن، قد تعرض هؤلاء حياة الجلاد للخطر. فإذا ما كان المحكوم عليه شخصية معروفة، سيغدو الموقف شديد التعقيد، وقد يكون هناك احتمال لتعريضه لعمل انتقامي. إن أفضل مثال يمكن سرده كمثال على هذا، يأتي من فترة زمنية لاحقة. فقد تملّك الرعب جورج كورنيت جويس، وهو من نفذ حكم الإعدام بحق الملك تشارلز الأول، عندما عاد تشارلز الثاني للعرش، مما دفعه لعيش حياة جديدة في آشبي - دو - لازوخ (Ashby-de-la-Zouch) كامرأة تدعى جان جويس. ولكن لم تنج شخصيته الجديدة في خداع أعدائه، الذين وجده وقتلوه.

ولم يفهم قناع الرأس الاحتفالي، الذي يضعه الجلاد في إخفاء شخصيته، فالجميع كان على علم بهويته، حتى إن بعض الجلادين قد حفظوا نوعاً من الشهرة. كان الجلادون في معظم الأحيان مجرمين صدر بحقهم حكم جرمي، وكان عليهم حتى يتقدوا أنفسهم من الإعدام أن يقوموا بهذا العمل. فجون كروسلامد - على سبيل المثال - سمح عفواً في مقابل قيامه بإعدام والده وأخيه اللذين كانوا محکومين بالإعدام. ويقال إن شبحه المذعوب يحوم حول كاتدرائية ديريك حتى الآن. ومن الأمثلة الأخرى على المجرمين الذين تحولوا إلى جلادين، تومس ديريك؛ الجلاد الإليزيائي، الذي اتهم بالاغتصاب، ومنع عفواً من إيرل إيسبيكس، الذي لقي حتفه إعداماً - بعد اتهامه بالخيانة - على يد ديريك نفسه عام 1601. قام ديريك خلال عمله بشنق ثلاثة منهم، وأصبح اسمه - لكتة حالات الإعدام التي نفذها - مرادفاً للوظيفة نفسها، بل وانتقل اسمه في العصر الحديث ليدل على الرافة التي تشبه المشنقة التي تستخدم في رفع البضاعة إلى سطح السفينة.

وأظهرت الدراسات العملية أن غطاء الرأس الاحتفالي ذا الشقوق الرفيعة المخصصة للعينين لم يكن مناسباً لهذه المهنة، التي تتطلب تزامن اليد والعين وسرعتهما. ومن المحتمل أن زي العمل كان يتكون من صدرية جلدية عملية بلا أكمام، وبنطال قصير يصل إلى ما دون الركبتين بقليل حيث يربط بحزام حبلي. تخلص الجلاد فيما بعد من غطاء رأسه الاحتفالي لصالح غطاء أقل صرامة ذي فجوات واسعة للعينين، أو قناع بسيط ليتمكن من رؤية ما كان يفعله. لم يكن لباس الرأس هذا تكريباً، بل كان في حد ذاته رسالة دالة على أن هذا الجلاد مثل

لا وجه له لعدالة الناج البريطاني. ولم تكن الكلمة جلاد في تلك الفترة تعني قاتلاً؛ فما ينفذه جاك كتش، إنما هو حكم المحكمة.

أنت تعلم جيداً يا ديريك كيف أفقدت حياتك التي كانت مهددة بجزء
حادته الاغتصاب التي قمت بها في كولز.

أرجوزة موت بيريل آيسكس، زهاء عام 1600، بلا اسم

أنت لو كان هناك ديريك ليقوم بشنقه أيضاً.

تومس ديك، الخطايا السبع، 1606

أم يكُون ديريك ثروته قبل سبع سنوات.

توماس ميدلتون، الزوجة البيوريانية (الصفرية)

أو أرملة هارع والطين، 1687

يقوم بجولات مع الشيطان، وديريك مضيقه ونُزل تايورن محل إقامته.

ديك، قارع أجراس لندن، 1608

تستخدم الكلمة ديريك بشكل سيء بدلاً من الجlad، وذلك لأن اسم أحد أشهر الجنادين في تايورن كان ديريك.

توماس بلونت، تاريخ تأويل القوانين، 1656

كانت عمليات الشنق مجذبة للشعب، والإخلال بالنظام، وبدت خطرة في الوقت نفسه. غير أن قطع الرأس كان يعني قتل شخص آخر بكلتا يديك. وعادة ما خُصّ الأرستقراطيون بهذا الطابع من الإعدام، لأنَّه يُظهر الفكرة التالية بأنَّ هذا الأرستقراطي قد لقي حتفه باستخدام الفولاذ البارد في المعركة. كانت عمليات قطع الرأس نادرة، ولهذا كانت مشهداً



البودريون هم من مهنة بالإنطاع السائد عن برج لندن أنه آداة استخدمتها الحكومة للقمع. ولكن مع هذا لقي عدد قليل من الناس حفهم إعداماً داخل أسوار البرج.

يستقطب عدداً كبيراً من المشاهدين. ولم يكن يد الجلاد خيار إزاء الإعداد مثل هذا الأمر، فهو يتعرض لضغط كبير من الجماهير الغفيرة التي تطالب بتقديم عرض جيد. أما الضحايا، فكانوا يتوقعون منه عملاً احترافياً، فجعل ما كانوا يريدونه ضربة قاتلة سريعة تنهي بها معاناتهم، ولا يريدون شخصاً يقطع رقبتهم بضربيات متعددة قد تستغرق بعض دقائق متظرين ضربته القاضية. فلقد ارتفع الفأس ونزل مرات عديدة في حالة ماري، ملكة الإسكتلنديين قبل أن يتم إعدامها بشكل لائق، واضطر الجلاد لاستخدام سكين السليخ، التي عادة يحملها على حزامه لقطع ما بقي عالقاً من أوتار. وليس من الصعب علينا أن نفهم سبب توقعه الحصول على رشوة كبيرة تتراوح من سبعة إلى عشرة شلنات لتحفيزه على القيام بقطع حاد. وبعد هذا المبلغ ضخماً، عند مقارنته بأجر العامل حينها، وكان سبعة باوندات في السنة، ومن الممكن أن تصبح الرشوة أكبر من هذا. وفي هذا الصدد، تخربنا سجلات مكتب الوثائق إلى أن السير وليم -أمير البرج- قد دفع مبلغاً مقداره 100 كروان فرنسي إلى جلاد آن بولين في كاليه كي لا يفسد الأمر، وفي حال أفسد الأمر، فليس هناك من ضمانات باسترداد المبلغ المدفوع.

وقدت الفأس بشكلها المخيف ذات احتفالي إلى جانب استخداماتها العملية في عملية الإعدام. وقد يحدث أن يكون نصل الفأس غير حاد بما يكفي لإحداث قتل مباشر، وفي هذه الحال، قد يقع الموت نتيجة تهتك الفقرات، لا نتيجة القطع الحاد. وقد يدو المشهد مرتعباً إلى أبعد حد، لأن الدم المنطابر من أوردة الرقبة غير المقطوعة بشكل كامل قد تلطخ الجلاد والمنصة المحيطة به. وحتى في الحالات التي يتم بها قطع الرأس بشكل كامل، يواصل القلب النبض لدقائق يضخ خلالها الدم. وعلى الرغم من أن الضحية ستفقد الوعي بعد الضربة الأولى، إلا أن قصص الشفاء، التي تواصل الحركة بعد الموت وغيرها من ردود الفعل العصبية، تقصص حقيقة.

والفقرة الثالثة جزء من سرد شاهد عيان لاعدام ماري، ملكة الإسكنلندين على يد روبرت ويتغيلد. ولم تترك هذه الفقرة أي تفصيل إلا وقد تناولته. كان هناك خوف من أن ماري ستتحول إلى شهيدة، ولذا لم يتم إعطاء ملابسها للجلاد، بل تم التخلص منها:

طلب الجلادون منها، وهم راكعون، وقد انتهت من صلاتها، أن تتحمّم عفوهما سيقومون به، وأجابتهم بقولها: «أصفح عنكم من صميم قلبي، ولكن ألمني منكم الآن أن تضعوا نهاية لمشاكلي».

وقامت، بعد أن تلمس طريقها نحو الكتلة الخشبية، بمد رأسها عليها، واضعة ذقنها فوق القالب الخشبي، وكانت كلتا يديها ثابتة فوق الكتلة الخشبية، وكادتا تتعرضان للقطع لولا رؤيتها في اللحظة الأخيرة. ومن ثم عمددت فوق اللوح الخشبي بخشوع، مادة ذراعيها للأعلى هاتفة: «بين يديك يا الله» ثلاث أو أربع مرات، ومن ثم، وبعد أن ساد السكون عليها، قام أحد الجلادين بالإمساك بها، فيما قام الجلاد الآخر بضربيها ضربتين بفأس، ولم تصدر سوي صوت بسيط جداً، أو لم تكن تصدر أي صوت على الإطلاق، ولم تحرك ساكناً من مكانها، ولهذا قام الجلاد بقطع رأسها

المتعلق بجسدها عن طريق غضروف واحد فقط، يمكن الجلااد بعد قطع ذلك الغضروف من رفع رأسها ليراه الجميع، وهتف قائلًا: «فليحفظ الله الملكة». سقط شعر الضحية المستعار فبدأ شعر رأسها الحقيقي وقد غزاه الشيب، وقد بلغت من العمر السبعين، وأصبح رأسها صغيراً جداً إذا ما قارناته بوضعه قبل سقوط الشعر المستعار. وتغير وجهها كثيراً عما كانت عليه قبل أن يتم إعدامها، ولم يتذكر وجهها وهي ميتة سوى القليل من الناس. واصلت شفاتها الحركة للأعلى وللأسفل مدة ربع ساعة بعد أن قطع رأسها.

وبعد ذلك، شاهد أحد الجلاادين - في أثناء قيامه بنزع أربطة قدميهما - كلبيها الصغير زاحفا تحت ملابسيها، ولم يستطع الوصول إليها إلا بعد عناء، ولم يفارق الجسد الهمد إطلاقاً، بل يقى متمدداً بين رأسها وكفيها، وقد ناله من دمائها ما ناله، وجيئها بـ «إعاده وغسله»، كما في التخلص من جميع الأشياء التي وصلها الدم إما بحرقها، أو غسلها لتعود نظيفة. تلقى الجلادون أجراً لهم لقاء ما قاموا به، بيد أنهم لم يتمكنوا من الحصول على أي شيء يعود للضحية.

لا يعد عمل الجلااد الوحشي قد انتهى حتى بعد التخلص من الجثة، فلقد كان يتم تعلق رؤوس الخونة ليشاهدها القاصي والداني على جسر لندن، وهو الطريق العام الوحيد بين المدينة وساوثورك (Southwark). وكان عليه، لمنع الجوارح المتلهفة التي عيل صرها من الانقضاض على الرؤوس المعلقة، وطمس معالها، أن يقوم بغلق الرؤوس في قدر كبير مع بذور الكمون والملح. وأشار الدكتور توماس باليلى، الذي تناول أحداث إعدام الأسقف جون فيشر مع السير توماس مور في ثلة البرج عام 1535 - بعد ثلاثين عاماً على حدوثها - أن وجه المتوفى المسلوق، قد بدا أكثر صحة بعد أربعة عشر يوماً على تعليقه مما كان عليه قبل إعدامه. وتشكل هذه الواقع مادة لكتابيس عانى منها الجلااد في العادة. ولهذا، ليس مستغرباً أن كثيراً من الجلاادين قد أنهوا حيواناتهم بأنفسهم.



إعدام ماري ملكة الإسكتلنديين في قلعة فرذريهافي. ويقال إن الملكة إليزابيث قد ندمت وغمرها أسف شديد أعتقد حتى يوم وفاتها جراء توقيعها مذكرة إعدام ماري.

غلام السفَّاد / غلام الشَّيْ (Spit Boy)

منح الكاردينال والسي (Wolsey) الملك هنري الثامن عام 1526، المبني التيودوري العظيم: بلاط هامبتون (Hampton Court). وقد شعر الملك بالإهانة من تصرف والسي المزهو بنفسه، وحاول الكاردينال بدوره أن يهدئ من روعه. وما زال القصر شاهداً على السياسة المعقّدة التي كانت سائدة في البلاط التيودوري، فلقد كانت المراتب والتراتبية طاغية حينها.

كانت حاشية الملك في قصر هامبتون تضم ألفاً ومتى شخص في الشتاء، وثمانمائة شخص في الصيف، ناهيك عن الخدم، الذين قد يزيد عددهم على الألف. وكانت جميعهم يتناولون طعامهم في القصر. وحين تولى الملك هنري العرش، وسع المطابخ، فأصبح هناك خمسون غرفة لتحضير الطعام؛ أي ما مساحته ستة وثلاثون ألف قدم مربع مخصصة لمعدة هنري.

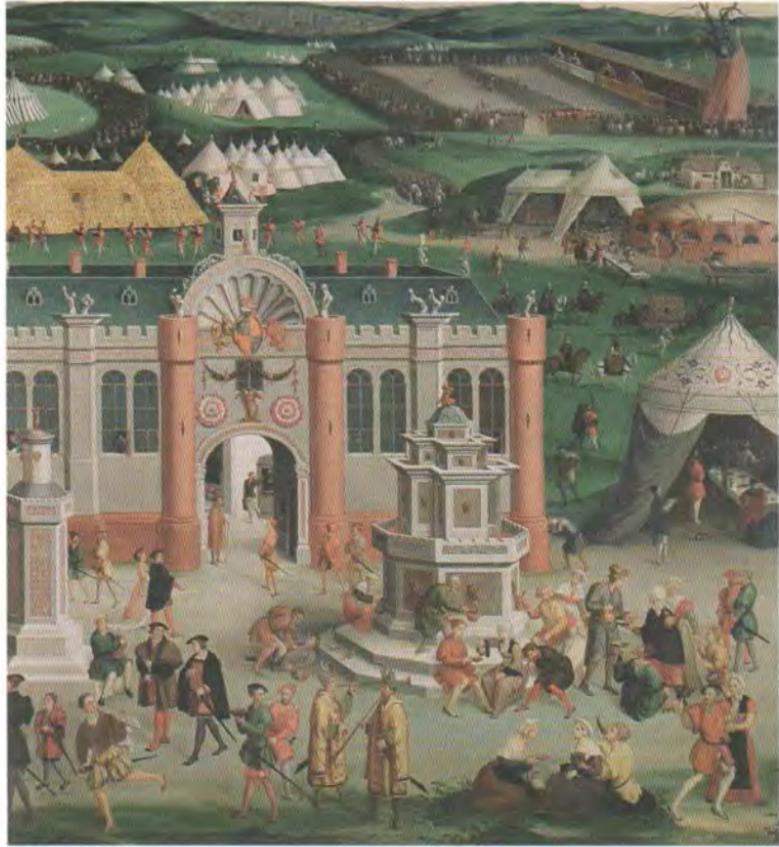
وكانت هذه الغرف جميعها تقع بالحركة عند إعداد الوجبة الرئيسة في النهار، التي تقدم عادة في الساعة الحادية عشرة صباحاً. وبدت الترتيبة واضحة هنا أيضاً، فقد كانت ملابس العاملين في المطبخ دالة على اختلاف مراتبهم. ويعمل في هذه المطابخ عادةً ما يزيد على مئتي شخص كانوا يقومون بالقطيع، والطهي، والصراخ على بعضهم، والت الشام. وكل يختلف هذا الوضع عن وضع فندق رفيع المستوى هذه الأيام.

ويقع في أدنى سلسلة العاملين في الطعام غلام السفود، وكان يعرف في بعض الأحيان بـ (Galipines) أو (Turn-Broaches). لقد كان ما نسبته 70٪ من طعام الأرستقراطيين في العهد التيودوري، على عكس طعام العامة، الذي يعتمد على حساء الخضار المركز، ومتجادات الألبان، يقوم على اللحم، وكان معظمه محمرأً. وكانت وظيفة غلام السفود، إدارة السفافيد الحديدية الضخمة لساعات طويلة أيام نيران الأفران المفتوحة اللاهبة.

ويعيناً عن أن العمل شديد الإيلال، دع عنك أنه شاق للغاية، لما يتطلبه من إجهاد لعضلات الظهر والذراعين، فإنه عمل قاسٍ جداً ولا سيما للغلام. وقد ثبتت تجارب علماء الآثار التي أجريوها في مطابخ بلاط همبتون أن كلمة «غلام» تحمل معنى ازدراياً أكثر من كونه وصفياً. كانت سماكة قضبان الشواء ستة سنتيمترات ويقارب طولها ثلاثة أمتار، وتستوعب مئات المفاصل البقرية، التي قد يزن بعضها ستة كيلوغرامات. وكل هذه، أي ما يزيد على نصف طن من اللحم، لإشعاع شهوات هنري الثامن وأفراد حاشيته، وكان عمل رجل واحد.

كانت ظروف العمل قاتمة، فقد ابتعد هؤلاء الغلمان عن النار المسافة ذاتها التي تفصل اللحم الذي يقومون بشوائه عنها. وقام هؤلاء الفتية بتسيير قضبان الشواء من فجوة صغيرة، حفظتهم من الاصطلاع المباشر بالنار. ومع هذا، كانت الحرارة المحيطة بهم خانقة.

ونستطيع أن نلمس بعض الجوانب المبنية عن قسوة حياة غلمان الشواء من قوانين إلثيم (Elthem Ordinances)، إذ تلزم هذه القواعد، التي كانت تقرر آداب السلوك في البلات، رئيس الطباخين بتزويد غلمان قضبان الشواء بملابس، توجّب عليهم أن يرتدوها، ولقد حرمتهم تلك القواعد إمكانية العمل بلا ملابس أو في خرق بالية كما كانوا يفعلون في السابق، كما حرمتهم هذه القواعد من إمكانية التبول في مستودن النار. وكان عليهم الاستيقاظ عند الساعة الرابعة فجراً، لإشعال النار، ومن ثم العمل لست ساعات دون توقف، مما جعل هذه



بعد اجتماع فرانسيس الأول وهنري الثامن في حقل كلوث أوف غرلند عام 1520 واحداً من أكثر المناظر روعة في التزيادات السياسية، وينبئ غلمان السفري في الحمام البيضاء في حلقة الصورة أناء تمهيزهم ولهم باذخة لالكتيم التزفين.

القاعدة مشكلة، فرغم ارتفاع درجات الحرارة، تقوم أجسامهم بالتخلص من رطوبتها عبر التعرق الزائد. ونحن محقون إذا ما ظننا بأن هذه القوانين كانت لا تتألي بظروف العمل، وأن جل اهتمامها كان منصبأً على زيادة روح الانضباط والهيبة في البلاط. ومن جانب آخر، تلقى الغلمان رواتب مجذبة، ففي العادة يتلقى العامل في مطبخ بلاط

هامبتوون ستة بنسات في اليوم حين يكون على رأس عمله، وأربعة بنسات عندما يكون مريضاً، وبهذا كان أجوره حتى في وقت مرضه يعادل أربعة أضعاف راتب العامل في المخمل.

وتزودنا مراجعة ثبتت على هذه اللوائح، تعود إلى عام 1591 على الأرجح، بلحمة عن كمية اللحوم الهائلة التي كان على غلمان الشواء التعامل معها سنوياً وهي: 1240 ثوراً، و8200 خروف، و2330 غزالاً، و760 عجلة، و1870 خنزيراً، و53 خنزيراً برياً. وهذه هي الأعداد التي ضمتها القيد الملكية في عام واحد، ولقد تعامل غلمان الشواء مع هذه المواد بشكل يومي. كما ضمت الوجبات التبودورية أصنافاً متعددة من الطيور: كالبط، والبجع، واللقالق، والدرّاج، والبلشون، والواق، والجراف، واللحجل، والسمن، والديوك، والزفاق، والنوارس، والحمام وطائر الفيرة.

وعدد أيام الصوم الكبير والجمع أياماً تقليدية للصوم الديني، ولا يعني هذا عدم تناول الطعام على الإطلاق، بل يعني ببساطة عدم وجود اللحم في الأكل. وتكونت الوليمة التبودورية، التي تليق بملك من أشواط متعاقبة من الطعام، وضم كل شوط مجموعة من الأطباق، وبهذا كانت وليمة هنري الثامن يوم الجمعة، والمكونة من سمك وخلصار تبدأ بخمسة عشر طبقاً مختلفاً تقدم له على شكل عينات ليذوقها. وهذه تشمل الحساء، وسمك الأنجلترا، وسمك الجلكي، وسمك الكراكي، والسلمون المصطاد من نهر النايمز، والسمك الأبيض، وسمك الحدوقي والبورى، وذنب البحر، والدنس، وسمك موسى، وسمك السلور، وسمك الشبوط، والسلمون المرقط، والسلطعونات، وجراد البحر، وخنزير البحر (الدلفين)، أو الفقمة (وكانت تعد في تلك الأيام نوعاً من السمك). ومن ثم هناك الجولة الثانية من الأطباق وتضم تسعة أطباق، قد تبدو لمعظمنا متماثلة تماماً. وقد تضم حساء آخر، وسمك الحفش، وسمك الأبراميس، وسمك التتش، وسمك الفرخ، والأنجلترا بتنوعها، والسلمون، والبطارخ، وجراد البحر، والجميري، وكعكة الفواكه، والقططان، والفواكه، وخبيز التفاح، والبرتقال، والزبدة، والبيض.

ممارسات إلثام (The Eltham Ordinances)

كان العصر التيودوري مهوساً بال النظام والانضباط في جميع جوانب الحياة. فقد كانت هناك غزارة في القواعد والأنظمة. قام الكاردينال والسي عام 1526 بتنقيح القواعد السابقة، التي كانت تحكم شؤون البلاط الملكي، فيما كان يعرف سابقاً بـ«ممارسات إلثام»، وتم تنقيح هذه المراسيم على الدوام خلال الفترة التيودورية، وشملت جميع جوانب إدارة البلاط، وخاصة تقدم الطعام والإعداد له، وهذا كان يتطلب أموالاً طائلة.

وتطلب أولى المهام في بلاط قد يضم الفأر وخمسة شخص، التخلص من جميع المنطفلين.

«علىك مرة أو مرتين في الأسبوع تفقد جميع المكاتب والغرف في البلاط لترى إن كان هناك غرباء يأكلون في هذه المكاتب، والغرف أثناء أوقات الوجبات، وفي أي وقت آخر، بما لا يتناسب مع إرادة الملك»
وتحتاج التحكم بما تتفق عليه الطعام، إن تمكنت من منع الحاشية من تناول وجبات منتصف الليل.

«قد يقوم بعض البلاء، والساقة وغيرهم بمخطي حدود البهجة المتفق عليها، وقد يتناولون الطعام في الروابي، والأماكن السرية غير متقيدين بتناول الطعام في القاعة المخصصة لهذا الغرض غير آبهين لغرفة الملك أو قاعته». حرص التيودوريون المهووسون بالرتبة والمكانة، على أن يتلقى جميع أفراد الحاشية طعاماً مناسباً. ولا يقدم جميع الطعام الذي تحتويه قائمة الطعام إلا للملك ومستشاريه، وكان على شاغلي الوظائف الدنيا كالقائم على تعليم الملابس، ومسؤول المقامرة، وعاملي البلاط وموظفيه» أن يقتاتوا لحم البقر ولحم العجل، أو ما شابههما من اللحوم المحمرة، كالخنزير، والأوز والأرانب المغمسة بشراب المزر.

وليس من قبل المصادفة أن مراسيم إثام قد ظهرت في العام ذاته الذي سلم فيه والسي فصر هامبيتون إلى الملك هنري الثامن. وجاءت مراجعة رئيس الأساقفة للأداب السلوك في البلاط كمسمار آخر دُقَّ في نعشة السياسي. فلقد كان يحاول جاهداً التخلص من أولئك الذين كان يعتقد بأنهم مؤثرون في الملك. بيد أنه، في مراسيمه، كان قد تجاوز الحد، فقلص عدد السادة في الجناح الملكي الخاص إلى النصف، وتحلص من أعدائه، كويليم كومبتون، موظف الحمام المتنقل، فكره الملك تدخله الصارخ، وكانت هديته لقاء هذا القصر الفخم المجاور لنهر التايمز، محاولته التي ذهبت أدراج الرياح تهدىء ملكه الغاضب.

موظف الحمام المتنقل (Groom of the Stool):

معلوم لدى الجميع أن ما يدخل جوف الإنسان يخرج بعد حين. كان هنري الثامن يشارك - وعن رغبة - في تناول العشرين طبقاً الآتفة الذكر مرتين في اليوم. وقد حوله نظامه الغذائي القائم على الكثير من اللحم والدهن، والقليل من الخضار، من أحد أكثر الأماء قبولاً في بلاد المسيح؛ إذ كان طوله ستة أقدام وإن شين، وكان عريض الأكتاف، نشيطاً مغرماً بالنساء، إلى ملك ضخم ذي عينين غائرتين، مثلما ظهر في الكثير من الصور التي رسمها الفنان هولبيان. وبلغ طول خصره في أيامه الأخيرة 54إنشاً، وكان حينها يعاني من التقرس والسفل. وبلغ وزنه أربعة وعشرين رطلاً (ما يعادل 334 باونداً) مما جعله لا يتمكن من ركوب فرسه بنفسه، بل كان يتم رفعه، ويرجع السبب في زيادة وزنه إلى حادثة المحاولة بالرماد التي تعود إلى عام 1536، وقد عانى حينها من جرح في فخذه لم يمكنه من ممارسة التمارين فحسب، وإنما تطور إلى دمل متقيح في أعلى الفخذ. وعبداً موظف الحمام المتنقل الشخص الموكِل إليه التعامل مع هذه الكلة الضخمة من الدهن، وعن مراقبة فضلات هنري الثامن بكل ما تحمله من نظامه الغذائي البائس. كان على هذا المسكون مسح مؤخرة هنري الثامن. نعم، كان يحق يقوم بمسح مؤخرة هنري الثامن.

اعتقدت البيودوريون أن سيدهم شخص قد اختاره رب، وأن رب قد عينه ومسحه. وأنه مطاع في كل ما يطلب. وفي حين أنها نظرت على الخلوة عند دخولنا الحمام، كانت حياة الملك في الحمام تتم تحت أنظار الجميع.

ويعد هذا المنصب ذات مكانة رفيعة في البلاط. ولا يحق إلا لأرستقراطي من علية القوم أن يلمس المؤخرة الملكية. وامتاز شاغل هذا المنصب بميزة الانفراد مع الملك في أشد اللحظاتخصوصية. ويحمل هذا الموظف مفاتيح الشقق الملكية، وفي العادة يساعد سيده على ارتداء ملابسه. ويحصل شاغل هذا المنصب على أجر جيد جداً، بل وعُدَّ هذا العمل خطوة نحو تضليلية للوصول إلى منصب أعلى.

بيد أن ذلك الاقتراب من الملك كان له عواقبه أيضاً. فعلى سبيل المثال، عندما أراد هنري طريقة للتخلص من آن بولين، لم يجد سوى موظف حمامه، السير هنري نوريس، الذي أعد عام 1536 لارتكابه - كما شيع عنه - الزنا معها.



التصرف الصحي التبودوري الغريب من نوعه، بني ليديوم؛ وفي الحقيقة بني كيبيت من الطوب.

والعمل ببساطة، إذا تناستنا المخاطر السياسية، كريه جداً. كانت طرق العمل وأدواته شديدة البساطة، فأول ما تحتاجه هو قطعة من الأثاث ليجلس عليها الملك، وكان هذا صندوقاً ذا ضمادة، أو كرسيّاً مغلقاً ذات فجوة في الأعلى، أما في الأسفل، فيوضع دلو أو حوض غير مرئي. وهذا الكرسي هو ما منح اسمه للفضلات التي يسقطها الملك في الدلو فأصبحت تسمى بذات الاسم. وكان المقعد المعلق مزخرفاً، بيد أنه ذو وزن خفيف. ولا يفترض بالملك إذا أراد قضاء حاجته أن يسرع للطابق العلوي ليجلس على الكرسي، بل كان على موظف المقعد أن يحمله إلى الملك، ولهذا كان يجب أن يكون خفيف الوزن.

ويزورونا نص يعود للقرن الخامس عشر يدعى «كتاب تربية الأطفال» (The Babees Boke) (of Nurture) بقائمة من مستلزمات العمل الأخرى: «تأكد من وجود قماش، وقطن، أو حرير لمسح مؤخرة الملك، ولكن على أهبة الاستعداد، عندما ينادي، متظراً أمره، حاملاً حوضاً وابريقاً ومنشفة على كتفك». وفي حين أن العامة يستخدمون الطحالب لمسح مؤخراتهم، كان لا يصلح للملك سوى الأفضل، فلقد كان يستخدم مناديل قماشية، محاكاة في طبقتين على شكل جوهرة، وكانت سميكه وسريعة الامتصاص ومن هنا جاء استخدام الأمريكيين للكلمة (happy) للإشارة إلى المناديل السريعة الامتصاص.

ولا يتم التخلص من الفضلات الملكية بمجرد استقرارها في الدلو، فلها قصة علينا سردها. فقد كانت هذه الفضلات تتعصب باهتمام شديد للاستدلال على حسن صحة الملك. وكان متوفعاً من موظف الحمام، عند انسداد المنطقة الهضمية للملك، بسبب نظامه الغذائي المقيت، أن يتحقق الملك بحقنه شرجية. وورد عن السير توماس هينيج (Sir Thomas Heneage) الذي أصبح موظف الحمام بعد التخلص من هنري نوريس، أنه أخبر توماس كروم ويل، سكرتير الملك في سبتمبر من العام 1539، وعلى وجهه علامات الرضا أن سيده «يتمتع بصحة جيدة بعد أن حقنه بمليّن وحقنة شرجية».

وحلماً ينتهي من تفحص فضلات الملك، يتم فتح السبيل أمامها لبداً رحلتها إلى نهر التانيز عبر نظام التصريف المبهر. ويجدن الذكر هنا أنه في الثمانينيات من القرن الخامس عشر تم إعادة اكتشاف كتاب حول نظام مد الأنابيب الروماني كجزء من إحياء الاهتمام في العالم الكلاسيكي، وكان اسم الكتاب «مياه مدينة روما» (De Aquae urbis Romae) للمؤلف



هنري الثامن. لا تغادر لدبنا لوحة تعبر عن وجهة نظر موظف الخمام المتكل.

سيكتوس يوليوس فرونتينوس (Sextus Julius Frontinus). ولقد تم توظيف أحد أسلوب تركيب الأنابيب، التي قدمها هذا الكتاب، في بلاط هامبتون عندما تم بناؤه. فلقد مُنْدَّت الأنابيب، وشققت قنوات بطول ميلين، لاستخدام في نقل فضلات البلاط إلى النهر. وإنما لا شك فيه، أن بعض الأنابيب قد تعرض للانسداد، وحينها يتم استدعاء رجل ثُدَّ وظيفة موظف الحمام بالمقارنة بوظيفته رفاهًا لا يجد إليه سبيلاً.

مزيل الفضلات (Gong Scourer):

تعني الكلمة (gong) أو (gung) فضلات الإنسان، وشاغل هذه الوظيفة يقوم بما تدل عليه وظيفته: إزالة فضلات الإنسان. فهو يقارب في عمله عمل شركة داينو-رود (Dyno-Rod) للسباكية، وهو منظف البالوعات الأول في أيامه. وكان يعرف أيضًا بفلاح الفضلات أو (Fermour)، وهو اسم اشتق من الكلمة الفرنسية التي تعني «يدفع بعيداً».

قضى مزيل الفضلات حياته في العمل خاصاً حتى ركبته، أو خصره أو حتى رقته في فضلات الإنسان، وكان في العادة يعمل ضمن فريق، قد يضم في الغالب ولدين مستعددين للعمل بدلائهم. فالولد ذو نفع عند فتح انسداد في مكان ضيق.

وتلقى مزيلو الفضلات في بلاط هامبتون لقاء، قيامهم بعملهم هذا مكافآت مالية جيدة. فلقد كانوا يتلقون ستة بنسات في اليوم. وطلب مزيل الفضلات الخاص بالملكة إليزابيث وكان يدعى سيمبسون أن يتلقى نصف أجره على شكل مشروب براندي، بيد أن مزيلي الفضلات في بلاط هامبتون لم يواجهوا مشاكل كبيرة كتلك التي كان يواجهها زملاؤهم العاملون في مدينة لندن.

فلقد ارتفع عدد سكان لندن، خلال القرن السادس عشر بما يعادل 400 بالمئة، وكانت إحدى أكبر المشاكل التي قد تواجه المدينة هي إجراءات الصرف الصحي. ولنا أن نخوب بخيالنا فتصور فضلات الإنسان وقد تم قذفها من الطابق العلوي على المارة الذين لا يتوقفون هذا الفعل في الشوارع القدرة في الأسفل. ومع أن هذا الوضع حقيقي، إلا أن الصورة غير كاملة.

لقد حاول المجلس البلدي في مدينة لندن توفير مرحاض واحد لكل عشرين مسكنًا،



فترات التصريف في قصر هامبورن. يتم تنظيفها هذه الأيام.
للسنة الأولى 400 عام كانت وحلة مرعبة في القلادم لمساعدة مزبل

الغضالات، الذي لم يكن يحمل سوى مشعل لإثارة طرقه.

في حماماتهم. وقد يؤدي بناء الحفر الامتصاصية بالقرب من منزل جار ذلك الشخص، إلى تسرُّب السوائل العفنة نحو قبو جاره، الأمر الذي قد يتهم بالمحكمة.

وتحظى القواعد الصارمة الخاصة بفلاتي الفضلات مدى جدية سلطات المدينة في محاولتها لتنظيم إدارة الفضلات، والروائح التي كانوا يعتقدون أنها تحمل المرض معها، ومهما يسمى ماسحى الفضلات السكن إلا في مناطق محددة في المدينة، وكان عليهم كذلك العمل في نوبة ليلية دائمة تبدأ عند التاسعة وتنتهي عند الخامسة فجرًا، ولم تكن شوارع المدينة مضادة لهؤلاً كان عليهم العمل بمساعدة شموع كثيرة الدخان، مصنوعة من شحوم الحيوانات.

ويقوم فلاح الفضلات بنقل حوض كبير أو ما كان يسمى بالأبروب عبر شوارع المدينة على عربة تجرها الخيول. ويقوم وفريقه فور وصولهم الحفرة الامتصاصية باقتلاع الواقع مقصع المرحاض، ويضطرون -في المراحيض الكبيرة أو الصغيرة- إلى هدم الجدران لإفراغ ما فيه من الجانب.

ويحيطها بزيتون الفضلات السائلة، وتكون هذه من طبقتين، السائل في الأعلى الذي يمكن التخلص منه بسهولة عبر نضحه بالدلاء، ففي العادة لا يتم استدعاء ناضج الحفر إلا عندما تكون الحفرة ممتلئة، أما الطبقة السفلية، فهي الطبقة الصلبة، وتكون على شكل ضبَر متراكمة عليه أن يقتلعه. يعد هذا العمل في حد ذاته بالغ السوء في الشهور الباردة، ولكن تخيل العمل في أعماق المرحاض نفسه في ليالي الصيف الحارة. لا بد أن العمل كان شبيه

وكانت معظم الحمامات العامة ذات مقاعد خشبية تم بناؤها فوق مجاري المياه كهر فليت، الذي كان يقطع مدينة لندن ليصب في نهر التايمز، وعلاوة على ذلك، ضمت العديد من البيوت الكبيرة مراحيض خاصة بها لها حفرها الامتصاصية الخاصة بها، ولا تعدو هذه أيضًا عن كونها مقاعد غير متنفسة موضوعة فوق خزان. ولكن كان هناك شعور عام بأن مالكي هذه الحمامات مسؤولون عن الفضلات الملقاة



جون هنت، وريث الفقيد

السيد إن بروك،

رجل ليل وناقل قمامه.

بالقرب من عربة وخيال
شارع غفول، وقرب طاحونة الجبل،
لندن.

رجال الليل أو فلاحو الفضلات وهم على رأس عملهم. والبراميل المقرحة من الأعلى هي ما كان يسمى سابقاً بالأزابيب. وكان على
اللاحمي الفضلات المعددين الجلوس فيها كمقرية.

مسالك جهنم. وقد يصادف ناضح الخفر في أثناء عمله جميع أصناف القذارة، كجثث
متحللة لأطفال غير متوقعين، يتم التخلص منها عبر رميها في الخفرة.
كان العمل شديد المخطورة، وذاراثة مقرزة، وقام فلاحو الفضلات، عندما أصبح التبغ
متوفراً، باكتساب عادة التدخين لنفث رواحه أشد بغضاً منه. وتشير تقارير الطبيب الشرعي
إلى أن بعض فلاحي الفضلات قد قضوا نحبهم اختناقًا كثتيرة حتى تسممهم بسلوفيد
الهييدروجين.

تلقي ناضحو الفضلات - كغيرهم من العاملين في البلاط - رواتب مجزية. وتشير سجلات

بعض بيوت المدن الكبرى، إلى أن أجراً نصف حفنة حمام عام هي عشرة شلنات، ولكن هذا المبلغ لا يذهب بكامله إلى جيده، بل عليه اقتسامه مع عدد من العمال، ويتضمن المبلغ أيضاً تكلفة الحصان والعربة.

ومن جهة أخرى، كانت عقوبات مخالفة تعليمات المدينة الصارمة قاسية جداً. فعلى سبيل المثال، قام أحد فلاحي الفضلات بسكب فضلات بشرية في أحد مصارف المياه بدلاً من حملها خارج المدينة، وكان عقابه بوضعه في حوضه، الذي يملاً بالفضلات إلى رقبته، ومن ثم يوضع في غولدن لان (Golden Lane) في لندن مع تعلق لافتة في رقبته تدل على جريمه.

ولا تعدو هذه المعاملة أن تكون صفة على معصم الشخص فحسب، إذا ما قورنت بالعقوبات الصادرة بحق النساء العاملات اللواتي قد يخالفن التعليمات الخاصة بعملهن.

بانعة السمك (Fishwife)

وبانعة السمك هي امرأة تجوب المدينة حاملة حمولة من السمك على رأسها للبيع، وهي امرأة خشنة ذات صوت أحش (قاموس تشامبرز).



بالعات السمك التبردوريات كما هو واضح في هذا الرسم البسيط من نسخة تعود إلى العام 1582. كن ذوات صوت أحش، لا يلطفن سوى بيديه الكلام، ويدزنون مسفلات. ولا يناسين هذه الأيام سوى أن يكن متافسات في برنامج الأغذية الكبير، أما في القرن السادس عشر فقد كن تهديداً للنظام الاجتماعي.

يتحسّد موقف الرجال التيودوريين من الجيش الجرار للنساء العاملات في طريقة تعاملهن مع بالعات السمك.

يتوفّر أمام معظم النساء خيار «أوحد» فيما يتعلّق بالعمل، الا وهو الزواج، فلم يكن متاحاً لهن القيام بأعمال خاصة بهن، بل كان عليهن العمل مع أزواجهن، كزوجة الخباز مثلاً. وأصبحت وظيفة بائعة السمك هي الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة بسبب طبيعة هذا العمل. كانت هؤلاء النساء يساعدن أزواجهن في تنظيف السمك من الداخل، وتدخينه وبيعه، ولكن كان عليهن، عندما يكون أزواجهن في البحر، القيام بالعمل بأنفسهن؛ فلم تكن بدرجة عالية من الحرية. احتاجت هؤلاء النساء إلى صوت جهير، وشخصية جريئة ليقمن بالترويج لضائعهن. ولم يكن في مصلحتهن أن يكن كالزنابق الخجل في السوق التيودوري؛ ولهذا كان ذوات صوت أبجش. ولم يكن في مقدورهن تناول العديد من أنواع السمك الذي يقمن ببيعه، فالسمك الأبيض، على سبيل المثال، كان طعاماً مرتفع السعر، وخاصة بعلبة الفول. ولم يكن يتناولن سوى ما يتناوله الرجال العاملون من طعام بحري وهو المحار.

كان سلوك هؤلاء النساء قاسياً جداً، فقد كن يشربن الخمر، ويدخنن، ويتفاظلن باللفاظ ناوية. ووضفّهن هذا جعلهن في مواجهة مباشرة مع منظومة الأخلاق السائدّة في العصر التيودوري. فقد أصبحن يمثلن الصورة النمطية للنساء اللواتي قد يشكلن تهديداً للرجل، بل وأصبح لقب عملهن موضوع ردود فعل معادية. وما زلنا حتى يومنا هذا نستخدم هذا اللقب بطريقة ازدرائية.

انتشرت الإصلاحات البروتستانتية في جميع أرجاء البلاد، مسهمة في خلق وضعين مختلفين هما: التفكك الاجتماعي والضغط السياسي. وبات المسؤولون توافقين لإعادة إقرار النظام. إن غزارة كتب السلوك التي كانت تضم تعليمات واضحة حول ما على المرأة اتباعه، لبست سوى مؤشر لرغبة التيودوريين في تضييق الخناق على الحياة الخاصة ووضعها تحت قواعد شديدة.

ولقد عرفت النساء اللواتي كن يكسرن القواعد الاجتماعية «بالسلبيات»، وكانت هذه الكلمة تستخدم في عهد التيودوريين لوصف أي سلوك شائن، ولا يفوقها سواً سوى كلمة

«عاهرة». حتى إنه يمكن أن يطلق هذا الوصف، ونقصد به «السلطة»، على المرأة بأمر المحكمة. ويكافئ هذا في النظام القانوني الجديد تهمة التحرش، التي قد تتضمن الإلطفالية، والتهديد الجسدي أو العنف.

الزوجة الصالحة

بعد كتاب جون فيتزهيربرت «كتاب التدبير المنزلي» دليلاً إرشادياً محسناً تماماً لكتاب «تربيـة الأطفال». ولن يكون لدى من يحرص على أن تقوم زوجته المستقبلية باتباع هذه التعليمات وقتاً كثيراً لتقريعها.

عليكِ بعد الاستيقاظ، والنهر من الفراش، وتجهيز نفسكِ
مسح البيت أولاً،
وتجهيز المائدة ووضع كل شيء في مكانه في بيتكِ،
وحليب بقرتكِ،
وإطعام عجولتكِ،
وتصنيع الحليب،
وإيقاظ الأطفال وإلباسهم.
وتقدير الفطور، والغداء، والعشاء لزوجكِ، وأطفالكِ، والخدم وتناولي حصةكِ منهم.
ونقل النورة والشعر إلى المطبخة،
لختير النورة، وتخمير الشعر عندهما تستدعي الحاجة،
وعليكِ صنع الزبدة والجبن عندهما تستطيعين،
وإطعام خازيركِ صباحاً ومساءً، وإطعام دجاجكِ اللحم في الصباح،
وعندما يحين الوقت الملائم خلال العام عليكِ النبه إلى بعض دجاجكِ، وبطكِ، وإوزكِ،
وجمعها والحرص على عدم اقتراب أي وحش أو خنزير أو قوارض لتعيث بها».

جون فيتزهيربرت كتاب التدبير / الزوج 1525

كانت النساء اللواتي قد يمثلن أمام القاضي لكونهن «سلطات» متزوجات في معظم الأحيان، ويتمين إلى أدنى مراتب الطبقة المتوسطة العربية، التي يتميّز بها السواد الأعظم من السكان. وهو لاء النسوة كن زوجات الجزارين، والخبازين، والخانكيين، وبائعي الأسماك بطبيعة الحال، وكان هناك أيضاً بعض السلطات الثريات كزوجات التجار، وفي بعض الأحيان كن نساء يتمين إلى الطبقة النبلة.

ثلاث سلطات

على الرغم من أن بعض أعظم الأسماء في تاريخ الفترة كان أسماء نساء كماري تيودور، وإليزابيث الأولى، وماري ملكة الإسكتلنديين، فإن من غير الاعتيادي أن تشق أسماء نساء من الطبقة الوسطى طريقها إلى كتب التاريخ. ومن المثير للسخرية، أن النساء اللواتي تحكمن من تسجيل أسمائهن في التاريخ هن اللواتي أصبحن سيدات السمعة لجعل أنفسهن ضارات ومزعجات، ومثيلات هولاء، كاثرين بارناباكي من لندن التي تم إعلانها سلطة لأنها اتهمت إحدى جارتها بقتل طفلها، وقامتها بمحاصبة «اللصوص، والأذال والمسولين». وهي لم تكن تتقى لفاظها، ومن ضمن ما قالت: «أنت لست سوى امرأة محبة للشجار، وسكنية تتقلن يومياً من بيت من معنى، وكل رجة قد تطال الحبل تدفع المجام فرق اللسان بشكل مؤذٍ



إلى آخر وأنت محمورة».

وكانت كل من آجنس دافيز ومارغريت دافيز (وليس بينهما علاقة قرابة) مشتركتين في شجارات طويلة الأمد، وتم تسمية كليهما مؤخراً «بالسلبيتين»، بيد أن آجنس «قد منحت عفواً لم تله مارغريت. مما جعل مزيداً منها يغرون، بداعي الانتقام، على بيت آجنس ليلة عيد الميلاد، ويتناولون فطيرتين من فطائر اللحم المفروم، ويتوالون في قتل حساتها، ومن ثم قاما بربطها في مقعد العقوبات وأنزلوها في الماء سبع مرات».

كانت الملكة إليزابيث إحدى أكثر النساء استقلالاً في عزوفها عن الزواج، فقد تجنبت الزواج كما تجنبت الطاعون. وهذا لم يمنع من أن عصرها قد شهد - بشكل مثير للسخرية - ارتفاعاً حاداً في عدد النساء المشاكسات اللواتي تم تقديمهن للقضاء. وأصبحت العقوبة المفروضة بحق السلبيات المتهمنات أشد قسوة. ففي حين اكتفى في السابق، بفرض غرامة عليهم، إلا أنهن واجهن في عصر الملكة إليزابيث واحدة من عقوباتهن مذلتين هما اللجام أو كرسي التغطيس.

ويعود اللجام العقوبة الأكثر شيوعاً في المدن الشمالية والشرقية، وهناك سجلات تشير إلى استخدامه في بريجنورث، وتشستر، وبرستون، ومانشستر، ونيوكاسل، واللجام قناع معدني يتم إحكامه حول رأس المسيدة كما لو كان حزاماً لعفة الوجه. ويتم تثبيت قطعة معدنية صغيرة داخل الفم لتضغط اللسان إلى الأسفل (وهو الجزء الذي تمت الإساءة به)، ومن ثم يربط جبل في مقدمة اللجام يتم به قيادة السلطة عبر الشوارع. والعقوبة هنا رمزية، تشير إلى ترويض وحش قاس لا يسهل ترويضه.

ويستخدم كرسي التغطيس في بقية المناطق، وينظر إلى هذه العقوبة أنها عقوبة اجتماعية تستخدم للرجال والنساء على حد سواء منذ القرن الحادي عشر، لكنها أصبحت خلال العهد البيدوري مقتصرة على النساء. ويرى العامة أن كرسي التغطيس - من ناحية رمزية - أداة مناسبة لتطهيف حدة لسان المرأة.

وتشير كتب القانون، ككتاب جون كشن، «المحكمة الريفية» (Le Court Leet)، إلى



لتسنى لي تجربة كرسي التقطيس، تم ربطي إلى كرسي في رياح شهر ديسمبر القارسة، ووُجد على الطرف الآخر نصف ذرية من الشاب ضخام الأجسام، يملأهم الحماس المغمس في الماء، ووُجد في الساحة عظاماً لتدخل في حال حدوث ظاريء، ومع علمي أنني سأبل وأشعر بالبرد الشديد، لم يارجوني ذلك أنتي ساغرق إذا ما حدث خلل ما، وليس من المستغرب أن نعلم أن عدداً لا يُحصى به من النساء قد لقين حتفه مع وجود الجماهير غير المكرفة، وانعدام وسائل الأمان.

وجوب قيام العَزَب وما شابهها من مؤسسات بتوفير كرسي العقاب هذا والمحافظة عليه، وكانت الكراسي مصنوعة من الخشب، ومزخرفة في الغالب، وقد تكون على هيئة لعبة لوح التوازن أو معلقة على جبال، وكان بعضها عجلات، يتم بواسطتها التشهير بالمرأة السليطة في أرجاء المدينة.

ولقد ارتأت بعض الأماكن عبر تمكين المرأة من مشاهدة العقوبات التي قد ت تعرض لها طريقة فعالة في ردعها عن الاستمرار في عملها الشائن، وقد أخذت بعض المدن دوراً تشتهر في دورسيت بعض الجوانب الإنسانية عند تطبيق العقوبة، فلم تغطس النساء في الماء إلا في الظروف الجوية الدافئة، غير أن مدنًا أخرى لم تكن تحلى بالرحمة، وكان يوم التقطيس يوم هرج ومرج لل المجتمع بأكمله، حتى إن بعض السليميات قد لقين حتفهن غرقاً نتيجة الحماسة الشديدة.

ووصف معلم فرنسي يدعى هنري ميسن العملية «بالمسلية إلى حد ما». وهي كذلك من

وجهة نظر المشاهدين، لامن وجهة نظر المتهمة. وكلتا العقوتين مذلة إلى حد كبير، فهي مثل العدالة الاجتماعية، ولكن أسوأ جانب فيها ماثل في أن الجموع الهائفة ليست سوى جيران المتهمة، وهم الذين ينبغي على المتهمة التعايش معهم بعد إيقاع العقوبة عليها.

وبدت جميع العقوبات الرادعة، في حال بعض النساء ذوات البأس دون فائدة، وقد عرف عن بعضهن أنهن - في أثناء تفتيذ العقوبة بحقهن - واصلن كيل أشنع الكلام في حق من أصدر الحكم عليهم، ويشير خبير التاريخيات جون ستو إلى قيام امرأة بالصراخ على أسفل لندن، فقادها سلوكها الشائن هذا للجلوس على كرسي التغطيس، وبدلًا من الشعور بالندم، «جلست على الكرسي ساعة كاملة مستمتعة بهذه العقوبة الشنيعة».

إن ازدهار حضارة سامية، في ظل هذه الظروف، فهو شيء غير بحق، يهد أن العهد الإلزامي هو العصر الذهبي للأدب الإنجليزي، فقد قام خلاله شعراء كايدموند سبنسر والسير فيليب سيدني بمحارسة مهتهم بحرية تامة، وتنسحاب الحال على كتاب المسرح كشكبير، ومارلو، وكيد، وويستر. وكانت مسارح روز وغلوب في صحيم هذه النهضة المفاجئة. ولقد أسهمت في قيام المسارح مهنة تعد من أسوأ المهن، هي المثل الغلام.



الغلام الممثل (Boy Actor):

قد يتادر إلى ذهنك للوهلة الأولى أن وضع الممثلين المشاركون في أعمال أدبية «كمهملات»، سيكون مختلفاً عن وضع المشاركين في رياضات تعذيب الدية، والمهرجين، وموسيقى الشوارع. ولكنه لا يختلف - في الحقيقة - عن أي

منهم. فقد عدت صنوف التسلية - على احتلالها - مربية، بل وتم نفيها إلى الحي الفقير في ساوثوارك على الجهة الأخرى لنهر التايمز، بعيداً عن مدينة لندن الجليلة. في العصر البرورسي.



إن زيارة إلى مسرح غرب الشكيري هذه الأيام بعد أن تم إغاثة بناته تعمّد سمة تقافية سامية. ولكن لم يكن المسرح للتبردوريين مختلفاً عن حلبات صيد الديبة.

حتى إن واعظاً في كنيسة القديس بول قد أخبر الحشود المجتمعة خلال فترة انتشار وباء «الطاعون أن سبب الطاعون هو الخطيئة، وإذا ما أمعنا في الأمر جيداً، فسنجد أن سبب الخطيئة هو المسرحيات وبذل فسبب الطاعون هو المسرحيات».

وساوثورك مكان كثيف، قد يتعرض فيه غلام العمل لسلب ماله على يد سرّاق في أثناء توجهه للعمل، وقد يجد المسرحيون الوضع خارج لندن أسوأ بكثير. ووفقاً لمادة سُنت عام 1530 لردع المتسكعين، قد يتعرض المثلوث المؤدون دون الحصول على رخصة للجلد مرتبين في سوق المدينة، وقد يفقدون أجزاء من آذانهم، أو قد يوضعون في المخيبة إذا مات الإمساك بهم مرة أخرى.

أصبح الغلام الممثل، نظرالسوء سمعة المسرح حينها، ضرورة ملحقة؛ فالأدوار النسائية في المسرح كان يؤديها غلمان، وقام الرجال بالبالغون بأداء الأدوار النسائية الأكبر سنًا.



نالان فيلد، محل إليزابيثي. كانت رعاية أفراد الطفة العليا السامية للملطين التبودوريين أمراً ضرورياً. وقد لقى قاتون بعود إلى عام 1572 أن جميع الملطين الشاعرين الذين لم يعودوا إلى أي بارون في هذا المائل أو إلى أي شخص ذي درجة رفيعة سهر ضرن أنفسهم إلى المحاكمة وسجدون محانين، ومشتردين، وشحاذين مهقرسين». وكثيراً ما قام مستشارو الملك بممنع المسرحات في أرجاء لندن بسبب تقشّي الطاعنة، الأمر الذي جعل وظائف الملطين أقلّ ديناميكية.

ويبدو أن شكسبير قد استمتع باستخدام الإشارات الجنسية الغامضة لأدواره النسائية، ففي مسرحية الليلة الثانية عشرة - على سبيل المثال - قام غلام مراهق بأداء دور فيولا - وهي فتاة تتنكر في المسرحية كغلام.

ولم يجن الغلام المثل سوى قوته اليومي، وكان الانهاك صفة ملازمة لعمله، وقد يتعرض، إذا ما كان أداؤه سيئاً، إلى القاطف فاحشة، وفي بعض الأحيان، إلى قذائف يوجهها الجائعون في حلقة المسرح.

وكان كل مثل مُعرضاً للخطر الاحتراق، فالإضاعة في المسارح قد تكون مميتة، بيد أن القيام بدور امرأة كان محفوفاً بعدم الرضا، بل بالخطر في بعض الأحيان. فمكياج المسرح الأبيض مميت لأنّه يستخدم مادة الرصاص كثيراً، مما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى تهدل كل لحمة كبيرة. وإضافة إلى ذلك، كانت الفساتين والأطواق المنفوحة ذات الطبقات في حد ذاتها عاملًا شديد الإزعاج، ولم تكن المشدات التي قد يرتديها الغلام المثل سارة على الإطلاق، فهي تضغط حول المعدة بشدة، وتضيق الخناق على العجاجب الحاجز. غير أنّشد ما كان يزعج الغلام المثل هي الدبابيس، وهناك المئات منها، كانت الملابس الداخلية غريبة بعضها إلى بعض، في حين كانت الفساتين مشبوبة بعضها إلى بعض ببساطة باستخدام الدبابيس، وهذه الطريقة جعلت عملية تغيير حجم الثوب لتناسب أجسام مختلفة أمرع مما نقوم به الآن. وكان لهذه الطريقة دور في حفظ القماش. ولم تسلم اليافة التيودورية، وهي أحد رموز ذلك العصر، من استخدام الدبابيس فيها. وكانت تتشكل باستخدام مكواة محمّة على قماش طويل مغموم بالشأ، ومن ثم يتم استخدام الدبابيس التي قد تصل إلى 200 دبوس في مناطق مختلفة، وفي هذا الشأن، قال كاتب مسرحي يدعى تومكينز، عند ملاحظته أن عملية تديس ثياب الغلام ليبدو في صورة امرأة قد استغرقت خمس ساعات: «قد تحتاج السفينة وقتاً أقصى في إعدادها من تجهيز سيدة نبيلة». هل ذلك أن تخيل وضع هؤلاء الغلمان الذين يواصلون الوقوف بلا حراك لفترة طويلة كي لا يتعرضوا للوحزات الإبر الضخمة العدد. لا بد أن هذا الوضع يداً كمالاً أنك ارتديت قنفذاً بالملطوب. ويدرك جميع نساء ذلك العصر هذه الحقيقة من خبراتهم اليومية. وليس غريباً أن تبدو الملكة إليزابيث متصلة في جميع اللوحات التي رسمت لها.

ولم يسع للغلمان بالتجوال وهم مرتدون ملابس المسرح كي لا تتسخ أو تتمزق. ولم تكن هذه الملابس نسخاً مسرحية - وإنما هي ملابس حقيقة بكل جواهرها وموادها النسبية. وبعد المسرح أحد الأماكن القليلة التي يستطيع العامة تلمس جوانب الوثبة فيها، في

مجتمع فقد الاحتفالات المبهجة والصلوات المؤثرة التي امتاز بها الدين الكاثولوكي الروماني. وتم حراسة الثوب - عادة - بحرص شديد، ويورثه المثل إلى مساعدته، ويعود الثوب ميزة اقتصادية لمالكه، فهو أغلى شيء يمتلكه المثل. ومهما بلغت درجة سوء عمل الغلام المثل، فلن تصل سوء أولئك الذين قاموا بصنع هذه الدبابيس.

صانع الدبابيس (Pinner):

شكلت صناعة الدبابيس جزءاً رئيساً مهما من الاقتصاد في عصر التيودوريين، فالرجال والنساء على حد سواء - وخاصة الأغنياء - كانوا بحاجة إلى الدبابيس حتى لا تساقط قطع ملابسهم عنهم. وفي العادة يتم تقديم الدبابيس هدايا. وتعني عبارة «مال الدبوس» (pin money) هذه الأيام المال الفائض عن الحاجة، ولكنها كانت عند صياغتها تعود إلى المال اللازم لإبقاء ملابس الشخص متصلة على جلده. وقد قالت الملكة إليزابيث في شهر أكتوبر من عام 1563، بشراء منه واحد وعشرين ألف دبوس من صانع دبابيسها ويدعى روبرت كارليس. وتم توريد ثلاثة ملايين دبوس عام 1583 إلى لندن.



وهذه الأرقام لا تعني أن صناعة الدبابيس لم تكن مزدهرة في العاصمة، بل على العكس تماماً، فقد بلغ عدد صناع الدبابيس زهاء الثلاثة آلاف شخص، ويمثل هذا الرقم عدد العاملين في نظام النقل في لندن هذه الأيام. ولكننا - في الحقيقة - لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الناس وعن حرفتهم، فقد كانوا ذوي رواتب زهيدة، وكانت حرفتهم شائعة جداً إلى حد بروجر هدسون الذي كان يجد صعوبة في تحصيل الدافري مما يلزم منه مواد، يحاول إعادة بناء غرفة الدبابيس. إنها لم تجذب أحداً لل الكتابة عنها.

ونستقي معلوماتنا عن هذه الحرفة من علماء الآثار، وكانت عملية صناعة دبابيس التشبث تتم على النحو الآتي: في بداية الأمر، يتم نقش أحازيز أفقية في ظلف (عظمة قدم بقرة)، ومن ثم يتم ملء هذه الأحازيز بأسلاك نحاسية، تقطع في أطوال مناسبة. وبعد ذلك، يقوم صانع الدبابيس ببرد أحد الأطراف ليصبح ذا رأس حاد. ويلي ذلك،ربط قطعة قصيرة من السلك حول رأس الدبوبس، وتبنيه بشئي رأس الدبوبس على نصابة الدبوبس بطرقه عليه. وكثيراً ما كانت الدبابيس ذات النوعية الجيدة تطلى بطبقة رقيقة من الطلاء الكيميائي.

وقد يدل حجم الأحازيز إلى أن صناع الدبابيس قد استخدموها أطفالاً في عملهم، فمعظم الأجزاء الدقيقة المملة تحتاج إلى أصابع صغيرة ليتم إنجازها، وتعد صناعة الدبابيس إحدى أولى الحرف التي قد تتطلب قيام عدد من العمال باداء أجزاء مختلفة من العمل. ولقد أصبحت هذه العملية مع بداية القرن الثامن عشر منظمة جدأ، وهذا دفع الاقتصادي آدم سميث للاستشهاد بها في كتابه «ثروة الأمم» مثالاً على نظريته في «توزيع العمل».

وهناك وجهان مختلفان لسوق صناعة الدبابيس أحدهما سام والآخر وضع. ونحن نعلم أنه كان هناك سبعة وعشرون نوعاً مختلفاً من الدبابيس، وأن بعضها كان جميلاً. وكانت الدبابيس الجميلة تتاج عمل حرفيين متضمين لنقابة صناع الدبابيس، ييد أن السواد الأعظم من الدبابيس كان منتجأً في البيوت، التي كان أصحابها يقطنون في أماكن قرية من مصادر المواد الخام المطلوبة في هذه الحرفة كسوق الجزارين في سميث فيلد. وتشكل القرى العاملة في العادة من صانع دبابيس متسكن، يشرف على أعضاء أسرة، وحرفيين أدنى منه مرتبة ومهارة. وكان هؤلاء يعملون في علية منزلهم ذات النافذة الجنوبية، لتزودهم بالضوء اللازم للقيام بالأعمال الدقيقة.

لا بد أن العمل كان مملأً إلى حدٍ لا يصدق، هذا إلى جانب المخاطر الصحية الناتجة عن استنشاق أجزاء صغيرة من المعدن والغبار الصادر عن المواد الخام.

سن الملك هنري الثامن في محاولته للتصدي للمتاجرات الرخيصة قانوناً يضع على أن تكون جميع رؤوس الدبابيس ملحومة، مما جعل الأمر أكثر سوءاً. وأضاف هذا القانون عصرًا جديداً من الخطأ؛ وذلك لأن اللحام هو عبارة عن صهرة غبية بالقصدير (أو ما يسمى بالبورق)، أو خليط مكون من الفضة بنسبة 4٪، والقصدير بنسبة 96٪. ويتحقق عن لحام الفضة

هذا أخذنة الكاديموم التي قد تسبب سرطان الرئة.

ولا يجني صناع الديابايس سوى ما يقيهم ضنك العيش، فلم يكن القرش (البني) خلال العصر الإلزابي ذا قيمة تذكر، فهو يكفي لشراء رغيف خبز واحد، أو تذكرة لحضور مسرحية، أو ركوب عبارة لقطع نهر التايمز. ولجمي شلن واحد، أي ما يعادل اثني عشر قرشاً، كان على صناع الديابايس صنع ألف دبوس تحاسبي. وأشارت تجارب العصر التيودوري إلى أن إنتاج هذا العدد يستغرق خمسين ساعة من العمل. وحتى لو استطاع صانعو الديابايس المهرة من العمل ضعف هذا الوقت، فإنهم لن يستطيعوا سوى توفير متطلبات الحياة الرئيسية، ولا عجب أن كان هذا العمل حكراً على الشباب، وكبار السن، والمعوزين. ومع المخاطر المرافقة لهذا العمل كالسلام الذي يعد صفة ملزمة لهذا العمل، والراتب المتدني، لم يحصل العمل على اللقب الأسمى كأساً مهنية في تلك الفترة. بل تم حفظ ذلك الشرف لصانع اللون الأزرق، نظراً لطبيعته التنتة المقرفة والمبيبة للغشيان.

أسوأ الأعمال على الإطلاق

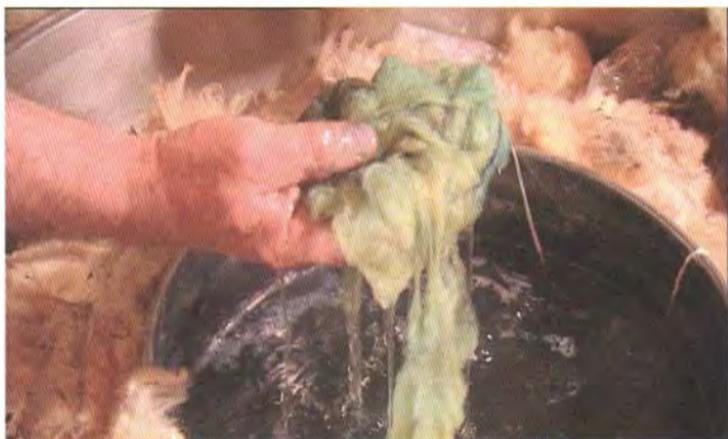
صابغ البليج (Woad Dyer):

كان المصدر الرئيس لللون الأزرق الباهي الذي مازلتنا نراه في البسط والأقمصة التيودورية، قبل استيراد النيلة من الشرق في نهايات القرن السادس عشر، هي النيلة المستخلصة من نبات البليج.

ونبات البليج قريب الصلة بالقرنيط، فهو نبات قوي ذو أزهار صفراء تقف على ساق وقد يرتفع متراً عن الأرض. وقد وصل هذا النبات إلى بريطانيا من جنوب أوروبا عبر السنتين الذين أطلقوا عليه الكلمة (glasto)، وكانت مستعمرة غلاستونيري تعنى «المكان الذي ينمو فيه البليج».

غير أن العملية التي استخلص بها الصبغ الأزرق كانت كريهة جداً مما جعل صابغي البليج - كانوا يشكلون مجموعة مبنوذة كفلاحي الفضلات - مجموعة مهمشة في المجتمع، وتكون المشكلة في الرائحة الكريهة التي يصعب وصفها على الورق. ولكن دعونا نوضح الأمر بهذه الطريقة، فكم تود أن تكون المسافة التي تفصلك عن أي رائحة كريهة؟

لم تكتف الملكة إليزابيث - على سبيل المثال - بأمر الصباغين بالتوقف عن العمل نهائياً عند مرورها عبر المدن الريفية، وإنما أصدرت مرسوماً يأمرهم بعدم الاقتراب من مكان إقامتها بقدر خمسة أميال. أجل، كانت صباغة النيلج ذات رائحة كريهة تتجاوز الوصف.



كيماء النيلج. تم التقاط هاتين الصورتين بفارق عشر ثوان عن بعضهما، لقد تغير لون النبات إلى الأزرق مجرد ملامسة الهواء.



لولا رائحة النيلج الكريهة لما بان جمال بعض النسالج، كهله السجاجدة الفرسية التي تعود إلى القرن السادس عشر. لقد تحكت خلقة النيلج الزرقاء النابعة من المحافظة على رونتها بشكل أفضل من الأصاغ الحمراء والخضراء التي سرعان ما يختفي لونها.

ومع هذه الحقيقة، لا يمكن لنا أن نصفهم بأدنى المراتب وضاعة، بل كانوا حرفين مهرا على درجة عالية من الاتقان، ويمكن وصفهم برواد الصناعة الكيميائية، فقد قضاوا جل حياتهم وهم يعملون في عملية كيميائية دقيقة. ففي البدء يختر النيلج ويجفف على شكل كرات. وتسمى هذا العملية بالفمر، وتصرر أداخنة بغيضة جداً. ويطلب تحضير خمسة كيلوغرامات من الصبغ خصين كيلوغراماً من أوراق النيلج. وقد تم استيراد معظم النيلج المستخدم خلال الفترة التيودورية على هذه الشاكلة من جنوب غرب فرنسا حيث تستطيع أن تصبح غنياً - كما كان يقال - بالجلوس ومراقبة النيلج الخاص بك وهو ينمو.

وتصبح الرائحة أسوأ عندما يتم سحق الكرات لاستخلاص الصبغ منها، ومعاودة تخميرها في سائل قلوي يشبه إلى حد كبير السائل القلوي الذي كان القصار يستخدمه، وقد استخدم الصاباغون البول في بعض الأحيان، على الرغم من أن الجير، أو رماد الخشب في الماء المغلي كان له التأثير نفسه. وفي العادة، يتم وضع النيلج المجفف في حوض مليء بالسائل مدة ثلاثة أيام على درجة حرارة تناهز خصين مئوية. وتتلاصص مهمة الصاباغين في هذه المرحلة في المحافظة على قلوية السائل دون استخدام معدات خاصة لفحص معدل الحموضة في محلول. فقد كانوا يقومون بذلك غير استخدام حواسهم.

ويستطيعون، على سبيل المثال، لمس محلول للحكم على قوامه، والخلط الناتج لزج كالماء وقد اخلط به زيت الحمام. ويستطيع الصاباغون أيضاً استخدام التذوق والرائحة للحكم على حالة محلول. وكانت هذه الشاطرات المزعجة جزءاً من عمل يومي يقوم به الصاباغون، ييد أن النيلج المطبوخ ذو رائحة وطعم يشبهان إلى حد كبير رائحة الملعوف المغلي المتعرفن، والمخلوط بالمياه العادمة. وليست هذه الصورة نتاج خيالنا، فلقد أظهرت التحاليل الكيميائية أن الخلط يحوي الغازات نفسها التي تصدر عن فضلات الإنسان غير المعالجة.

وحلماً يحضر الخليط، يتم صبغ الصوف قبل نسجه، للتأكد من أن العامل الملون قد توزع بشكل متماثل في جميع أجزاء القماش. وبعبارة أخرى، كانت هذه العملية بحق صيفاً للمادة في بدايتها. ومن ثم يوضع الصوف في مصفاة معدنية يتم وضعها في حوض الصباغة طوال الليل، ووظيفة المصفاة هنا حماية القماش من تربات النيلج في قاع الحوض.

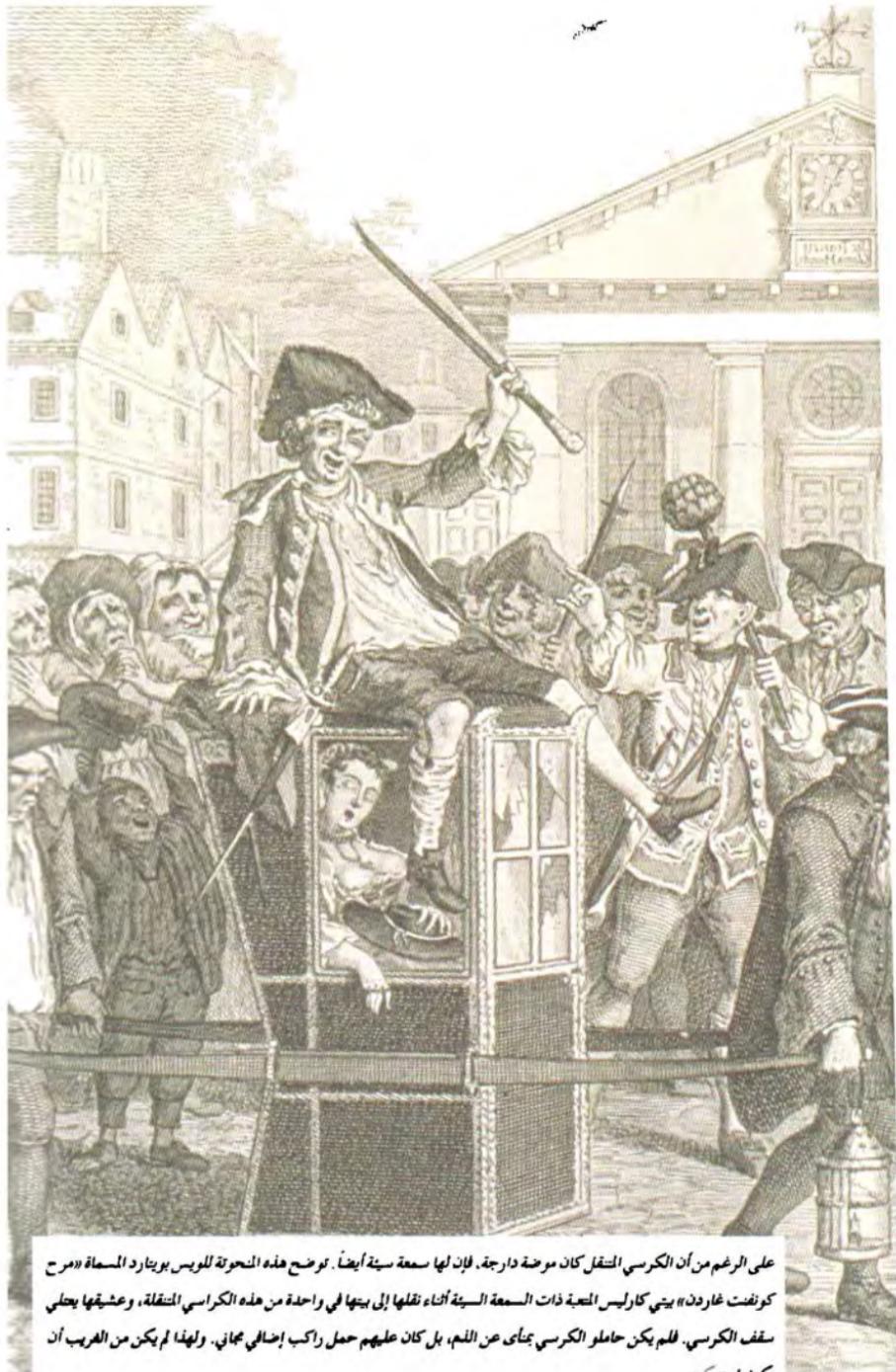
ولا يكون لون الصوف، عند إزالة الغطاء أزرق، بل أبيض ميالاً للخضراء، وتحدد العملية

الكيميائية عندما يتم إخراج الصوف من الحوض. فبات النيلج (النيلة) لا يعمل عمله إلا عند تعرضه للأكسجين، ويكون الأثر لحظياً، فعندما يتم إخراج الصوف البائس ذي اللون الأخضر الفاتح، وفور ملامسة الهواء، يتتحول اللون ليصبح شديد الرقة.

وقد يكون صابغو النيلج أكثر توفيقاً من نظرائهم في القرون الوسطى، لكنهم احتفظوا بالصيت السين نفسه. وهناك بعض السجلات المتعلقة بسلوكيات غير معينة اجتماعياً للصابغين. فقد تم الإمساك ببعضهم، وهم يحاولون التخلص من المحاليل الخطيرة والمصرة بالبيئة يسكبها في الشارع، أو في أقرب بحري ماء، ومن الطبيعي أن يؤدي هذا إلى احتجاجات.

وبشكل عام كان يميل الصابغون للسرية ووراثة هذه المهن عن أسلافهم. ولكن حتى لو قاموا بتبديل ملابسهم والاستحمام بشكل جيد، فإنهم سيقون متفردين عن باقي الناس. فآيديهم وأظافر أصابعهم كانت على الدوام زرقاء، وقد ورد أن بعضهم كان له عرق أزرق، وفي الغالب كانوا يتزوجون من صابغات، لا يكتفى لأناس قد يدلون كجنة ستلتون الرقة، اللون.

اختفى صابفو النيلج مع قدوم النيلة من المناطق الاستوائية، بيد أن مهاراتهم هي ما مهد الطريق لقيام تقنيات الصباغة الحديثة. ولكن النيلج عاد هذه الأيام - مع الاهتمام المتزايد بالأصباغ الطبيعية - ليحتل مكانة مرموقة. وتم زراعته هذه الأيام في جنوب إنجلترا، وشرق إنجلترا. ولكنك ستقوم، إذا ما قام أحد الناس بفتح محل للنيلج بجانبك، بالتقدم ضده بشكوى للسلطات المحلية، أو إزالة أنفك جراحياً.



على الرغم من أن الكرسي المُتقلَّل كان موضع دارجة، فإن لها سمعة سيئة أيضاً. توضح هذه التحورة للويس بولارد المسماة «مرح كونفنت غاردن» بيتي كارليس الصبة ذات السمعة السيئة أثناء نقلها إلى بيتها في واحدة من هذه الكراسي المُتقلَّلة، وعشيقها يحمل سقف الكرسي. فلم يكن حاملو الكرسي عبئي عن النم، بل كان عليهم حمل راكب إضافي مجاني. ولهذا لم يكن من الغريب أن

الفصل الرابع

أسوأ المهن في العهد الستيوارتي

توفيت الملكة إлизابيث عام 1603، دون أن تجرب من يخلفها على العرش، فجلس على عرش إنجلترا ابن منافتها، ماري ملكة الإسكتلنديين، فأصبح جيمس السادس - ملك إسكتلندا - جيمس الأول ملك إنجلترا. وبهذا احتجت الملكتان في شخص ملك واحد، وشكلت اتفاقية الاعداد وجه بريطانيا الجديدة.



استهل جيمس ستيوارت عهده بقرن متقلب، شهد الكثير من الانقلابات الدينية والسياسية والاجتماعية، وقدرت بعض الأسئلة العظمى - كتلك المتعلقة بكون الملك كاثوليكي أو بروتستانتيا، أو فيما إذا كان له الحق المطلق في الحكم، أو عبر موافقة البرلمان - إلى حداثة ملح البارود، وال الحرب الأهلية، وإعدام تشارلز الأول و«الثورة المجيدة» عام 1688، لكن - وكما هي العادة - لم تكن سفينة الدولة تبحر بغيرها، فقد احتاجت جميع هذه الأحداث السياسية بالغة الأهمية إلى جيش من أصحاب المهن الدينية، وكانت على أتم الاستعداد لنشر سمع الدهليز على رصيف الجنوح الخشبي ومن ثم دفعها فوقه، مثلما فعل الغايكين في السابق، وقد أصبح عدد سكان بريطانيا، بحلول القرن الثامن عشر، سبعة ملايين ونصف مليون شخص، كان أكثر من ثلثهم عملاً يعيشون على أجور متسطها شلن في اليوم. واعتمد خمسة وعشرون بالمائة من السكان - كما يمكننا الرؤم - على معونات تقوم بتوزيعها الأبرشيات وفقاً لقوابين الفقراء الإليزابيثية. وإذا ما كانت أحد العامة، فيصبح حق التصويت مرتبطاً بامتلاكك قطعة أرض تعادل الأربعين شلنًا. وكان الاضطراب السياسي الذي شرذم البلد نتاج مؤامرة حاكها أفراد من النخبة، الذين قد لا يعرفهم معظم العامة إطلاقاً. ومع هذا، غالباً الكثير من الفقراء منخرطين بشدة في أحداث العصر الجسيمة. وثمة وظيفة قد لا يستطيع غاي فوكس (Guy Fawkes)، ولا الحثالة، ولا أنصار البرلمان المعارضون



جيمس الأول، ملك إنجلترا واسكتلندا.

للمملك تسخير أمرهم من غيرها. ولو لا عمل رجل ترات البوتاسيوم، لن يكون هناك ملح البارود (أو البودرة السوداء كما كان الستيوارتيون يسمونها)، كي يستخدم في البنادق، أو على شكل متفجرات في محاولة لنسف البرلمان والإطاحة بالملك.

موظف ملح البارود (Saltpetre Man):

بعد ملح البارود تركيّاً بسيطاً ميناً مكوناً من ثلاث مواد كيميائية ينبع مختلافة هي: 10 بالمائة كربون، و 15 بالمائة كبريت، و 75 بالمائة نترات البوتاسيوم. ويتحتّل المكون الأخير الأكسجين، الذي يتمدد عند احتراقه، مسبباً رد فعل انفجاري مع الكربون. وتحتاج إلى خمسة وعشرين غراماً من ملح البارود لإطلاق قذيفة مدفع، ولهذا قد تحتاج إلى كيارات ضخمة من ملح البارود خلال أوقات الحرب، وكان على رجل ملح البارود أن ينتجهما كاملة.

وتعد مهنة ملاح البارود، مزيجاً غريباً من عمل الخلاب، ووكيل الأرضي، وعامل المزرعة وناضج الحفر الامتصاصية، رغم أن عمله بسيط جداً. كان البول والبراز المصدران الرئيسيان للتراز في العهد الستيواري؛ وفي العادة يتم ترکهما في الأرض طويلاً ليتحلل إلى كالسيوم ونترات الصوديوم. وعلى ملاح البارود أن يجد تربة مشبعة بالبول والبراز، ومن ثم الحفر لاستخراج أجود الأجزاء باستخدام طرق العمل التقليدية القاسية. وأماكه المفضلة هي المرأحين، وزرائب المخازير، وأكواخ السماد، وأبراج الحمام. وأي مكان آخر تشربت فيه التربة فضلات الطيور. يقوم ناضج الحفرة الامتصاصية بالتخالص من الفضلات، أما ملاح البارود فيتحولها إلى بضاعة.

إن نقل أطنان من التربة الغنية بالمواد الكلسية عمل شاق يتحقق (وقد يسبب الفتق في بعض الأحيان)، ولكن ما دور الخلاب في هذه العملية؟ يمكن دوره في الاتفاق على بعض الجوانب الشاقة لهذا العمل. وقد يمكن كل من السير جون بروك وتوماس رسيل (عام 1625) من إيجاد طريقة يتم من خلالها استخلاص التراز من البول مباشرة. فقد طلب من أصحاب المنازل في لندن وويستمنستر وضع مبولاتهم خارج أبواب بيوتهم ليتم جمعها يومياً خلال نصف، وكل يومين خلال فصل الشتاء. ويحجب ملاح البارود الشوارع ليفرغ هذا السائل الشمسي في برamil. وتعد هذه الطريقة، مهما بلغ السائل سوءاً من حيث الرائحة والتلوّحة، أفضل من سابقتها نظراً لأنها جبته ساعات حفر طويلة. ومن المحرن أن نعلم أن مخضّة البول تُنورية هذه قد تم الاستغناء عنها، لعدم فاعلية هذه الطريقة -حسب ما وجد اللاحقون؛ وبذا عاد ملاح البارود إلى طرق القديمة المجربة والموثوقة.

ولكن إن خطر يوماً بيالك أن ملاح البارود هو ابن الأرض البريء، فعليك نسيان هذه الفكرة. فملح البارود أهم من أن تتركه يهد هواة متجمسين. كانت ثلية حاجات الأمة من هذه المادة ضرورة ملحمة؛ فالدافع عن أرجاء الوطن غاية تفوق كل غاية. وإذا ما احتاجت الأمة لملحى بارود، فإنها لن تعدد حيلة في إيجادهم أينما كانوا. كان لدى هؤلاء رخصة منحها لهم الملك - يجيز لهم دخول أي بيت والغير أسفله، ولهذا استعملوا سلطتهم في وجهها الصحيح - وفي أحياناً أخرى - أساووا استعمالها، مما جعلهم موضع كراهية لدى جميع الناس. وأطلقت عليهم النسخة الأولى لجريدة التايمز اسم «الدهماء». واكتسب بعض ملحى البارود ألقاباً شائنة مثل «رالف الفظ» و«ويل الوليزي»، مما أكسبهم سمعة مماثلة تلك التي يتمتع بها التجرون.

ولم يقض هؤلاء أيامهم في تربة غنية بالفضلات فحسب، وإنما كان عليهم التحلّي بأخلاق فاضلة، وجلد سميك - كجلد مفتشٍ ضريرٍ القيمة الإضافية - عند دخولهم البيوت عنوة لاستخراج بيوت الدجاج والمراحيض. وحاول ملاحو البارود (عام 1638) الحصول على تصريح يجيز لهم دخول الكنائس بحثاً عن مواد غنية بالترات، ذلك أن «النساء - لطول صلوات الكاتس في القرن السابع عشر - كن يلن في أماكنهن، وهذا يشكل ملح بارود ذات جودة عالية».

حاول الناس تجنب دخول ملحى البارود إلى بيوتهم عبر فرش المناطق المحيطة بمناحيهم بالحصى، أو تميدها؛ وبذل ذلك تكون هناك تربة ليتم نهباها. وفي بعض الأحيان، كانوا يتلقون أوامر لإزالة الرصفة المضافة، وإعادة الطبقة الترابية للسماح بتشكيل طبقة ملح البارود. وقد اعتقل السير هنري سامبورن عام 1634 لرفضه السماح لملحى البارود دخول برج الحمام المخاصل به، ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع الغرامة.

وكان هؤلاء يتوقعون من مالك المنزل أن يقوم، فور انتهاءهم من إزالة ما يريدون، بتوفير وسيلة نقل لما حصلوا عليه وفق أسعار مخفضة، مما أضاف إليه إهانة فوق مصابه. تمنع ملاحو البارود بأسعار خاصة على الطرق الرئيسية التي تستوجب أجراً. وفرض عليهم أخيراً - نتيجة لحالة الغضب العام - الحصول على موافقة أصحاب المنزل قبل دخول العقار، وعلىهم التصرف بشكل جيد أيضاً بعد استخلاص التربة الضرورية. وتم أيضاً سن قانون أحاز



متامر ملح البارود. تخيل للحظة لو لم يكن غيره فوركس موجوداً معهم عبيراً للربح البارود. أههن أنا - سببهمي بما المطلوب - بالاحتفال بالألعاب النارية في الخامس من نوفمبر، بما كان يمكن تسميته «ليلة روبرت هاتسي». .

إعفاء عقارات النخبة من دخولها.

ويمكن القول، اعتماداً على حجم الفوذ الذي كان ملاحو البارود يتمتعون به: أنهن يبحتون رواتب مرتفعة. فصناعة ملح البارود تقوم على مبالغ هائلة.

ولكن، كما هي الحال دائمًا مع شاغلي المهن الوضيعة، لا يحصل من يكبح للقيام بهذه العمل إلا على القليل من ثماره. وكان من يجني المال هم رؤساء العصابات، الذين يستطيعون تحمل النفقات الافتتاحية لهذه الحرفة. ويتم التعاقد مع المتاجرين لتوريد كميات متفق عليها من نترات البوتاسيوم وفق أسعار محددة. ويدفعون لعمالهم أجوراً زهيدة لجني أرباح طائلة. ولم يجنز أولئك الأشخاص الذين كانوا يدخلون بيوت الناس عنوة، ويتحمرون شكاوينهم، وإنما لهم لاستخلاص التربة الموجودة أسفل مراحيلهم، أكثر مما كان يجنيه عامل المزرعة، وكذا لم يتمكنوا من الحصول على مبالغ ضئيلة عبر طرق أخرى منها التغاضي عن أحد البيوت بالقصد، فرشوة ملح البارود عدت جرماً يخالف عليه القانون.

وإذا ما تساءلت عن الطريقة التي قد يعرفون من خلالها أجزاء التربة الغنية بتراث

البوتاسيوم، فاعلم أنهم كانوا يتذوقونها، فالتربة المشبعة بالبول تضم رواسب بيضاء اللون، وفي العادة تحتوي هذه البثورات على الصوديوم، وتكون ذات مذاق صالح ولاذع. وتفاعل هذه المادة مع الماء، على شكل تفاعل ماض للحرارة، وهذا يعني أن نترات البوتاسيوم تحول، بمجرد أن يضعها ملح البارود في فمه، ومحجرد ملامسة لسانه، إلى زيد ذي ملمس بارد. ولا يقتصر العمل على التذوق واللمس فقط، فصناعة ملح البارود - وهي اختراع عربي، وصف مراحله «حسن الرماح» في كتابه الذي يعود إلى القرن الثالث عشر - ذات مراحل متعددة. فيلي عملية استخلاص التربة، مزجها بالرماد في مصفاة، ومن ثم يذاب الخليط في الماء، ويغلى كحساء كريه الرائحة حتى يتحول إلى بثورات، تخلط فيما بعد مع الغراء أو الدم. وقد يحتوي الطفح، الذي قد يطفو على فوهه القدر، بعض البقايا العضوية. ومحجرد إزالة هذه البقايا، يتم إعادة بثورة المزيج وغضله.

وفي نهاية المطاف، يتم نقل نترات البوتاسيوم إلى صانع ملح البارود المرخص من الدولة، الذي كان يدعى خلال تلك الفترة جون إيفلين في سري، الذي كان يقوم بخلط المكونات الأخرى باستخدام مداخل تخرها الحيل، ويكون في أثناء هذه العملية حريصاً على إبقاء المكونات رطبة ليتجنب إصدار شرارات أو وقوع حوادث من أي نوع. ومن ثم يتم طحن البوترة (ال الخليط) الناتجة وتحجيفها قبل استخدامها للقتل أو التشهيه أو تفعير دفاعات العدو. تنص نترات البوتاسيوم الرطوبة من الهواء ولهذا يصبح ملح البارود رطباً أو فاسداً إذا ما ترك طويلاً. وكانت هذه هي حال ملح البارود الذي استخدم في مؤامرة ملح البارود. وقد اشتراك غاي فوكس في المؤامرة لأنه كان خبير تفجيرات، ولكن نظراً لسرية المخطط، لم يكن عقدوره شراء بوترة جاهزة، فقد جأ إلى خطة بديلة فيها مكر، فاشترى ملح بارود فرنسي فاسد، واستطاع الحصول على ستة وثلاثين برميلاً، يتسع الواحد منها لستة رطل من ملح البارود. وكان يمكن للثلاثة آلاف والستمائة رطل التي حصل عليها، لو كانت طازجة، أن تحول مساحة تعادل مساحة وستمئتي هكتار بقطر يزيد على خمسة كيلومترات إلى أرض ياب، يهد أن ملح البارود المستخدم في أشهر حادثة تم استخدامه فيها كان فاسداً.

وتصففت بقية الفترة الستيوارية، إذا ما تناسبنا هذا الفشل الذريع، بالانفجارات كبيرة وصغيرة، كان أكثرها أثراً هي تلك الانفجارات التي استخدم فيها ملح البارود لايقاف تقدم

الحريق العظيم في لندن، فلقد حصل صامونيل بيبيس (قائد القوات البحرية) في الخامس من سبتمبر من عام 1666 على تقويض من الملك بالسماح لبحارته باستخدام ملح البارود لسف صف من المنازل لإحداث فجوة، لمنع النار من الانتشار. وأشار جون إيفيلين، حفيد صانع ملح البارود الشهير، إلى أن هذه الخطة قد تم وضعها عندما نشبت النار، وكان بالإمكان حينها، إذا ما تم تبني الخطة، إنقاد معظم المدينة، لو لا الأغبياء الذين عارضوا إحداث فجوات في الحريق، خشية فقدان أملاكهم في هذه العملية.

بيد أن معظم استخدامات البويرة السوداء لم تكن مفيدة تماماً. فلقد قام أوليفر كرومويل، خلال الحرب الأهلية، بنسف قلاع الأرستقراطيين الذين وقفوا بوجهه. وتعني كلمة (slighting) هذه الأيام جعل الشخص يشعر بالمرارة بتجاهله إياه، ولكن الكلمة في القرن السابع عشر كانت تعني تسوية البناء بالأرض. تمكّن كرومويل، عبر نسف جانب واحد من القلعة (كما حدث في توتييري في ديربيشاير وآتشي-دو-لا-زوج في لسترشاير) وتركها عرضة ل مختلف صنوف العوارض، من تحويل معارضه إلى أنقاض.

ويشير هذا العمل الوحشي بوضوح إلى مدى الشعور بالمرارة التي كان يعاني منها طرفاً القتال في الحرب الأهلية؛ فلقد وقعت خلال أربعة أعوام امتدت من عام 1642 إلى عام 1646 سلسلة من المعارك الدموية والمحاصرات البائسة في مواقع مختلفة في إنجلترا. وكان ملح البارود دوراً بارزاً في الصراع؛ فلقد استخدم في البنادق، والمدافع وفي سلاح غريب أسهם في خلق أنظر المهن على الإطلاق؛ يدعى «المتفجرة».

مساعد المتفجر (Petardier's Assistant):

تعد «المتفجرة» أداة تفجر مباشرة تستخدم في حروب الحصار، وتتكون من صفيحة خشبية ووعاء معدني صغير على شكل جرس، فيه فجوة صغيرة في الخلف لإدخال فتيل الإشعال، وستة أرطال من ملح البارود محفوظة في الجرس. ويستخدم هذه القبلة في العادة لفتح بوابات القلاع أو المدن المحاصرة عنوة، وذلك عبر خلع الأبواب من فصالاتها، أو حفر فجوات فيها، أو تدمير أي عارضة أو قفل قد يشكلان عائقاً في فتحها. اخترع هذه الأداة هوغونوتس (Huguenots) في نهاية القرن السادس عشر.

ولقد خضعت «المتفجرة» خلال الحرب الأهلية إلى المفجر (Petardier)، الذي يشبه اسمه إلى حد كبير اسم قريبه في العمل؛ المسؤول عن المدفع، فكلاهما مهندسان متخصصان باستخدام ملح البارود. ويقوم المفجر، فضلاً عن صنع أداة التفجير، بعمليات تحت الأرض لالقيام بتفجيرات تحت جدار القلعة. وكان المفجرون ضباطاً مهرة، يحصلون على مكافآت على هذا الأساس؛ فعلى سبيل المثال، كان المفجر الرئيس (عام 1627) يحصل على ستة شلالات وثمانية بنسات في اليوم، وكان لديه مساعدان. وإذا تناستنا المخاطر المهنية لتعامله مع ملح البارود، لم تكن هناك أي جوانب خطيرة في عمله، ناهيك عن كونه ذات قيمة عالية، ولا يمكن الاستغناء عنه، أو تعريضه للخطر. فمساعداته هما من يعرضان نفسيهما للخطر بدلاً منه. ولم تكن المتفجرة سوى رأس حربي، ولم يكن مساعد المفجر سوى صاروخ بشري موجه لتوسيع الحمولة اللازمة. وتتلخص مهمته، التي لا يحسد عليها، في الاقتراب من البوابات، تحت وايل نيران المحاصرين، لغرس المتفجرة في الجدار في ظل زخات السهام المتواصلة، وهو يقوم بإشعال الفتيل والهرب بعيداً.

وكان لدى مساعد المفجر خياران لا ثالث لهما، أولهما الدخول ببطء تحت درع عصين بشدة، أو العدو، كما لو أنه نسخة القرن السابع عشر جوني ويلكسون، وهو يحمل كرة رغبي تزن 20 لبيرة. ولم يكن هناك من يكرر ثقلاً قد يجري للمساعد، فجعل ما كانوا يهتمون به هو المتفجرة نفسها. لهذا كان مساعد المفجر يقوم بهمه متسللاً عند الفجر أو الغروب، ومساعدة نقطية من نيران المشاة المحيطة به.

وعلى الرغم من جميع هذه الاحتياطات، إلا أن معدل الاستزاف كان مرتفعاً جداً، فالمساعد لم يكن معرضاً للقتل من المدافعين وحسب، وإنما قد تحوله قاتله، التي لا يمكن التبرير بسلوكها إلى أشلاء، والشذرة الآتية تقدم لنا دليلاً على ذلك:

دعها تعمل كما قدر لها، فإذا منها من رياضة بدعة أن ترى المهندس
وقد أودت بحياته المتفجرة التي صنعواها، ولكن يكون الأمر سهلاً
ولكنني ساحر حفرة تحت مناجمهم
ومن ثم سأقوم بنسفهم إلى القبر

هاملت، الفصل الثالث، النظر الرابع



في تجربة حديثة استخدم فيها متفجرة من الحجم المناسب، وبدلات واقية، وكرات دهان بدلاً من الرصاص، يمكن المدافعون عن الجنود أن القلعة من إسقاط المتفجرة قبل أن يبعد عنها 50 متراً.

والعبارة (hoist with his own petar)، التي تعني «أودت بحياته المتفجرة التي صنعها»، إنما هي مجاز – صاغه شكسبير قبل جلوس الملك جيمس الأول على العرش – يشبه إلى حد كبير إطلاق الشخص الرصاص على قدمه خطأ. غير أن هناك تأويلاً آخر مستمدًا من كون الاسم المستخدم للمفجر مشتق من الفعل اللاتيني (pedere)، الذي يعني «يخرج ريحًا ذات صوت»، في إشارة إلى الانفجار المكون الناتج عن هذه الأداة عند سماعه من بين صفوف الجنود.

وعلى مساعد المفجر، فور وصوله البوابة، حماية المتفجرة. ويورد دليل إرشادي معاصر ما على المساعد فعله في هذا الشأن: «يجب تثبيت خطاف صغير على المادة التي تريدون تدميرها، وعلى الخطاف، يتم تثبيت حلقة المتفجرة، ومن ثم تثبيت المتفجرة عبر إسنادها إلى دعامة خشبية متشعبية للبقاء بعيداً عنها بقدر الإمكان». وبعد كل هذا، كان على مساعد المفجر، إشعال فنيل المتفجرة، ويقوم بذلك باستخدام قطعة حبل مغمورة بتراث الصوديوم، تسمى «الكريت البطيء»، وهي أداة تشبه إلى حد كبير الشريط الأحمر الذي نستخدمه في

إشعال الألعاب النارية هذه الأيام. وكلا طرفي هذا الحبل قابل للاشتعال، تحسباً لفقدان أحد الأطراف خلال الرحلة الجنونية عبر خطوط العدو. وقد تناول مساعد المفجر نوبات من الربع تخوفاً من اشتعال المتفجرة بشكل مفاجئ، مما قد يجعله مفجراً انتشارياً دون إرادته. ويمكن القول: إن هذه المهنة يحقق شديدة الخطورة، وقد يستدعي هذا تجهيز المساعدين بعض المساعدة الطبية؛ فعندما قام جورج كارناج (Georg Carnage) بنسف بوابة قلعة أوسوستري بمتفجرته، كان مخموراً حتى الثمالة قبل محاولة القيام بهذا التفجير.

ويقدم الدليل الارشادي الذي يعود للقرن السابع عشر تعليمات واضحة في هذا الشأن: «أشعل القتيل الأزرق، وارجع مسافة تضمن فيها سلامتك» وعلى المفجر توخي الحذر لتجنب رد الفعل العسكري إذا جأ إلى مكان مواز لها؛ أي، يعني آخر، لا تهرب بعيداً عنها بخط مستقيم. فرد الفعل ماثل لقوة المتفجرة ومعاكس لها، وقد يؤدي الانفجار إلى دفع الأداة نفسها إلى الخلف. وقد يجد مساعد المفجر نفسه، إذا لم يتبع التعليمات، في ساق غير متوقع للعودة إلى خطوط جيشه مع جرس المتفجرة العدنى.

انتهت الحرب الأهلية بسقوط أو كسفورد الذي لا يستطيع أن تسبقه إلى المتفجرة، بل إلى استسلام الملك تشارلز الأول. ويمكن لنا القول: إن أسوأ مهن ذلك العصر، كانت مهنة الملك نفسه، لأنها بعد ثلاث سنوات من جلوسه على العرش، حكم وقطع رأسه، وتم تجريده، في أثناء مسيرة يليق قدره (على يد صديقنا القدمي، الجلاذ كورنيت جوبيس)، من هيهته كملك. وكانت إحدى مظاهر الإذلال التي لاقها، حرمانه من ركوب العربة في طريقه إلى وايتهيل (Whitehall)، فقد حمل إلى هناك على أكتاف مزاولي المهنة السابقة الذكر.

حامل الكرسي الملق (Sedan Chair Bearer):

أدت الكراسي الملقحة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر دور سيارات الأجرة السوداء. وفي حين يقوم السائقون بقيادة سيارات الأجرة، كان من يقوم بنقل الكرسي من مكان إلى آخر هو حامل الكرسي. ولا يقتصر دور هؤلاء - لسوء حظهم - على توجيه مركبتهم، وإنما يزبونهم بآرائهم السياسية، بل تعدى دورهم ذلك، ليقوموا بهم أنفسهم بدور المحرك والعجلات. كان عملهم بسيطاً، لكنه منهك إلى أبعد حد؛ فهذا النوع من

تفويضاً ملكيّاً بصنع الكراسي المتنقلة وتأجيرها في لندن ووستمنستر. ولم يمض سوى وقت قصير حتى أصبحت الكراسي المتنقلة شائعة، وذلك لأنها تعد عملية، أكثر من العربات التي تجرها الخيول في شوارع لندن المردحمة. فيستطيع حاملو الكرسي المتنقل الرجوع إلى الخلف والانعطاف بسهولة، كما يستطيعون سلوك طرق مختصرة، وتوصيل ركابهم إلى حيث مقصدتهم، وكانوا أقل عرضة للوقوع في أزمات مرورية. بدأ النبلاء يذهبون إلى بيوت القهوة والشوكولاتة باستخدام هذه المقاعد المتنقلة. و تستطيع إذا كان لديك التزام غرامي لا تزيد لزوجتك أن تعلم به، الانتحال - يتدرج كامل وسريعة تامة - إلى موعدك السري عبر ركوب أحد هذه المقاعد وإغلاق ستائر نوافذه. وسرعان ما أخذت المقاعد المتنقلة بالانتشار في كل مدينة في بريطانيا نظراً لميزاتها العظيمة الجلية. وعُدَّ وجودها في المدينة قضية فخر، فهي تحمل دلائل ومؤشرات على رفقي المجتمع، وعلى توفر أنواع السلية المسائية في العالم الجديد مثل حفلات الرقص التذكرة والخلفات الغنائية، ووجود رعاة للنشاطات من الأغنياء والأذكياء.

ومع انتشار الهوس بهذه المركبات، تعددت حقوق الملكية، وقام على حمل الأسطول الأول من الكراسي رجال مستأجريون، ييد أن الحمالين أنفسهم قاموا في الأوقات اللاحقة بشراء كراسيهم الخاصة، فاستأجر كل منهم رجلا آخر ليساعده في حمل الكرسي، أو تشاركا في ملكيته. وأصبح عمل حامل الكرسي، كما هي حال سائق التاكسي هذه الأيام، متاحاً للمهاجرين، فقد كان هناك حمالون وبليزيون، وإسكندنزيون وإيرلنديون على وجه الخصوص، وقد ورد وجود حمالين من الجنس الطيف.

ولا يتوقف تشابه الكراسي المتنقلة مع سيارات الأجرة عند هذا الحد، فقد كان للأغنياء كراسيهم الخاصة بهم، و تستطيع، إن لم يكن لديك كرسيك الخاص، حجز أحد هذه الكراسي مسبقاً، أو أن تستقل أحدها من أماكن وقوفها، أو أن تنادي على أحدها في الشارع، ويقوم حامل الكرسي للإشارة على خلو الكرسي، أو قدرته على تحمل ركاب، بحمله في وضع مقلوب، عوضاً من الضوء الأصفر الذي تستخدمه سيارات الأجرة هذه الأيام.

وفي العادة، يقوم الرجل في المقدمة بالتفاوض على السعر مع الزبون، ويتحقق لهما، مجرد دخول الزبون الكرسي، الحصول على أجراً هاماً بأكمله. ويعتز الحمالون عادة بقدرة خارقة ولباقة

كاملتين. فالكرسي المتنقل وحده كان يزن فارغاً زهاء الثلاثين كيلوغراماً، أضف إليه ثمانين كيلوغراماً كمعدل لوزن الشخص، وبذلابكون نصيب كل حمال خمسة وخمسين كيلوغراماً يحملها وهو يهروء مسافة ميل. ومن الواضح أن الكراسي المتنقلة كانت مصممة لرحلات قصيرة، بيد أن هناك سجلات تشير إلى وجود رحلات أطول. فعلى سبيل المثال، انتقلت امرأة عام 1728 من لندن إلى بات، مستخدمة أحد الكراسي المتنقلة، كما أن هناك امرأة أخرى كانت تقوم برحلات سنوية من لندن إلى سويسرا باستخدام فريق متعاقب من الحمالين.

ويذكر القول: إن هناك ظلماً باهتاً في نظام التعرفة؛ وذلك لأن جميع الركاب كانوا يدفعون التعرفة ذاتها بغض النظر عن وزنهم؛ فالفرق بين حمل نيل غوين (Nell Gwen) وصموئيل بيبيس (Samuel Pepys) – وكلاهما استخدم الكرسي – فرق واضح للعيان. وفي هذا السياق، نشر الدكتور جونسون في مجلة رامبلر (Rambler) وتعني «المسكع» رسالة، قد تكون منسوبة لأحد الحمالين تقول:

«اعتداد الرجال ذوو الأجسام الضخمة حشر أنفسهم بالكرسي، وطالبوه بأن يتم حملهم مقابل شلن، وهو أجرٌ قد تتقاضاه في العادة من شابة رشيقه القوام قد لا يشعر بوزنها على أكتافنا. ونستحق أن يدفعوا لنا أجرًا متفقاً مع مقدار الجهد المبذول. وأقترح أن يتم توفير مقاييس في الأماكن العامة يتم من خلالها وزن الكراسي كذلك التي تستخدمن في وزن العربات، وعلى أولئك الذين جعلتهم الرخاء والغنى غير قادرین على حمل أنفسهم، ان يعطوا جزءاً من فائضهم لأولئك الذين يحملونهم».

ولم يقتصر بؤس حاملي الكراسي المتنقلة على مشاكل الوزن، بل تعداها إلى طبيعة الحمالين، فهو لاءً بالأساس تجاه مكانهم الشارع، ولا ينقطعون عنه مهما كانت الظروف، وتعد الظروف الجوية القاسية أفضل الأوقات لممارسة عملهم، فليس هناك من أحد يود المشي وقد أغرت الأمطار الغزيرة الشارع؛ لهذا كانت الملابس المبللة بالماء دون وجود طريقة حديثة لتجفيفها منظراً شائعاً جداً. وطلب من أصحاب المنازل في ظروف الجو المتجمدة

رمي الرماد في الشوارع لتشكين الحمالين من المشي بثبات على الجليد. وورد عن جون إيفيلين، كاتب اليوميات، قوله ساخراً: «كان الكرسي وسيلة نقل مناسبة للأشخاص اللاهفين وراء تلبية رغباتهم الحسية، ولنساء المتعة الساعيات للوصول إلى مواعيدهن الغرامية بخفية وسرية تامة». كما وأشارت أغنية تعود إلى عام (1695) تدعى «رجل الكرسي الباهج» إلى التنوع الطبقي الواسع لأنواع الزبائن الذين يخدمهم حامل الكرسي.

«نحمل الكسالى، والجذريين بالفخر، والمصابين بالنفس ومرضى السلفس، نعتاش بحمل جميع صنوف البشر في صندوق».

ولم تكن الكراسي ثقيلة فحسب، بل كانت مريكة كثيراً. فالقضبان كانت طويلة عن قصد، لتمكين الحمال الخلفي من رؤية دربه، ومع هذا، يقوم الحمال الأمامي بتزويد الحمال الخلفي بالاتجاهات.

ووفقاً لرواية القرن السابع عشر لنظام الطرق الرئيسية، كان للكراسي المتنقلة أولوية المرور على المشاة، وكثيراً ما كانت العبارات «خذ حذرك» أو «عن إذنك لو سمحتك!» تتردد في الشوارع للطلب من المارة إفساح المجال أمام الكراسي المتنقلة للعبور. ولم يكن هناك أرصفة مرتفعة في تلك الأيام؛ فقد كانت المواجه الحديدية هي ما يفصل الطريق الافتراضية عن الرصيف، وكثيراً ما تعرض المشاة للدهس من حاملي الكراسي المتنقلة. ووصف زائر فرنسي يدعى سيزار دو سوسيير هذا الوضع في مذكراته: «تلقيت دفعة قوية رمتني على بعد أربعة أقدام، ومن المؤكد أنني كنت أستقط على ظهري لولا جدار أحد المنازل الذي منع سقوطي، وضاعف الإصابة التي حلّت بيدي». وورد أنه قام بعض المشاة الذين حشروا بين البناء والكراسي الكريهة، بالاستسلام لعنف الشوارع حين قاموا بكسر زجاج الكرسي. وفي الليل يحمل غلام مصباحاً مضيناً الطريق أمام حاملي الكرسي، يهدى أن الكراسي المتنقلة كانت عرضة لعمليات السطو، وكانت هذه مشكلة للزبائن أكثر منها للحمالين. فعندما كان يتم إيقافهم، كان الحمالون يتراجعون بخنوع إلى الخلف، لإتاحة المجال أمام السارق لسلب مال الربون. فأعظم خطر قد يمس حياة الحمالين هو دمار الكرسي.



ستة ملكة وملة شارلز الأول. لقد أحب لكررة الكرسي الملقى المحمول لأنه كان يعتقد أن الكثير من العربات قد سببت الإذدحام ولم يكن يعلم أنه ينبعه الإذان لهم بالعمل في لندن سبب حمل في واحدة منها عند وفاته. وقد زعم السير بيريلس قبل ذلك بعشرين سنة على العرش في شهادته ضد من وقع ملكة وملة الملك أن الناس كانوا يصرخون قائلين: «ما الذي يحدث؟ أختصرن الملك في كرسي عادي، كما يحمل المصاير بالطاععون؟»

أصبحت الكراسي المتنقلة مع بداية القرن الثامن عشر شائعة جداً، إلى حد استدعى سن قيود عليها. فأصبحت هناك غرامات، وحالات إيقاف عن العمل، وحالات سجن فيها للحملون الذين استخدمو اللغة مشينة، أو طالبوا بأجر مرتفع، أو كان لهم حالات تصرف مشينة كالعنف أو عدم الانضباط أو سد الطريق أو الشمل، أو الحالات المتصلة بأولئك الذين ترددت كراسيهم إلى أبعد حد.

كان عمل حمال الكراسي قاسياً وسبيناً، ييد أن هناك عملاً آخر مساوياً له في السوء، لكنه لم يتضمن أي جانب من جوانب الإثارة الإنسانية، أو فرصة ربحية كتلك التي كانت متاحة لحمل الكراسي.



الاتساع العظيم لنهر السر هو ميلادهن الجديد عام 1813 ، بحضور البلاء المخلين.

حمل الماء (Water Carrier)

أصبح نقل الماء مع غو المدن عملاً أساسياً، فضلاً عن أن توفير الماء النقي أضحم مشكلة كبيرة. ولم يكن معظم الماء المنقول مستخدماً للشرب، فالبيروقراطية والخمر هما المشروبات المفضلتان دائمًا على شرب ماء لاذع أو آسن، أو ملوث. وكان الماء ضرورياً للطبخ، والغسيل، وللأطفال. وأصبح منظر بعض الرجال وهم يحملون براميل الماء المثبتة على عارضة خشبية يضعونها فوق أكتافهم جزءاً من الحياة في العصر الستيوارتي.

ونستمد أفضل معلوماتنا عن هؤلاء من مدينة لندن، التي كانت تقوم على تنظيم توصيل المياه منذ العصور الوسطى. تأسست شركة حمالي الماء في مدينة لندن عام 1496. وكان أعضاؤها يجوبون شوارع المدينة حاملين أنوعية طويلة مخروطية الشكل على ظهورهم، وأصبح عقدورهم في تلك الأوقات، الحصول على الماء المستخدم في الغسيل من الأنهار، أو تعبئة أو عيتم بماء الشرب من الينابيع، أو الآبار، أو القنوات الصناعية.



هل يتعافى الدجال؟

للمدعى الطب، الراغبين في بيع محتاجاتهم الخاصة من الأدوية. وليس هناك من أحد في القرن السابع عشر قد يشكك في إدراج آكل العلاجم في منظومة أسوأ الأعمال؛ فهو لاء، كانوا يقومون بما لا يمكن تصوره؛ كوضع العلاجم في أفواههم وابتلاعها. وكان هذا العمل - في منظور جميع الناس - ضرباً من الجنون، وبثابة الانتخار.

والعلاجم مخلوقات لطيفة تعصي معظم حياتها في بيته رطبة مظلمة، وهي لا تشبه الضفادع الشائعة الانتشار، التي تقر من مفترسيها بالقفر أو السباحة بعيداً، وإنما تبقى في مكانها، إن تعرضت لخطر ما، وتفرز مادة سمية حليبية بيضاء من الغدة اللعائية الموجودة خلف الأذن، وهذه المادة كفيلة بجعل أكثر الحيوانات المفترسة شدة تحاشاها.

والاعتقاد الشائع آنذاك، هو أن هذه المادة ذات المذاق السيئ قادرة على قتل الإنسان. ويقوم المطبع - وقد يطلق عليه كلمة (Mountebank) وتعني الدجال؛ لأنه كان يرتقي فوق المناضل لترويج سلطته - بجلب انتباه العامة عن طريق مشهد مثيلي يظهر خلاله خلاصه من

أما في التجارة، فقد قامت شركة الهند الشرقية البريطانية بإرساء القواعد الاقتصادية لما أصبح فيما بعد إمبراطورية امتدت إلى جميع أرجاء العالم. ييد أن هذا الانفجار في التجارة الجديدة لم يكن مقتراً على الأغنياء وال المتعلمين. فلقد انتشرت الوصفات، والعلاجات وغيرها من المنتجات المصونة ببراءات الحق الخاص، وكانت جميع هذه المنتجات تتضرر تسويقها. وتزودنا أشكاال التجارية الأولية بوحد من أغرب الأعمال سوءاً في هذا الكتاب ألا هو آكل العلاجم. وبعد آكلو العلاجم، عند مقارتهم بحياة حمال المياه القاسية والبساطة، دجالين كسال. ويعمل هؤلاء في العادة مساعدين للداعي الطب، الراغبين في بيع محتاجاتهم الخاصة من الأدوية. وليس هناك من أحد في القرن السابع عشر قد يشكك في إدراج آكل العلاجم في منظومة أسوأ الأعمال؛ فهو لاء، كانوا يقومون بما لا يمكن تصوره؛ كوضع العلاجم في أفواههم وابتلاعها. وكان هذا العمل - في منظور جميع الناس - ضرباً من الجنون، وبثابة الانتخار.

ومع الازدياد المطرد في عدد السكانـ إذ بلغ عدد سكان المدينة خلال الفترة الستيوارتية 500000 شخصـ أصبحت مشكلة شح الماء تفاقم شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى أزمة حقيقةـ وعلى الرغم من أن بعض البيوت المتقدمة قد تم توصيل الماء إليها عبر أنابيب مرتبطة بأنبوب الماء الرئيسـ إلا أن الغالبية العظمى من اللندنيين لم يكن لديهم مصادرهم الخاصة من الماءـ أما الفقراءـ فبقي المجال أمامهم مفتوحاً لاستخدام الآبار والينابيع التقليديةـ التي عدت حينها ملوثة بالتيفوئيد والكولييرا الناجحين عن اختلاط مياهها بالفضلات البشريةـ ولم تحل المشكلة إلا بعد مشروع تجاري جريءـ فقد قام هيو ميدلتون عام 1609 بتمويل شق نهر جديد بجلب الماء إلى العاصمة من هيرتفوردشايرـ لم يكن ميدلتون مهندساًـ بل صانع بمحورات ذرورية لا تخيبـ ولقد وضع مخططاته لتزويد القناة الصناعية بالماء من الينابيع في آمويل وتشادويل وتحويلها إلى كليركين وبيلـ.

كانت عملية بناء انحدار سهل على طول أربعين ميلاً مهمة ضخمةـ شارف خلالها ميدلتون على الإفلاسـ لكنه نجح في إقناع الملك جيمس بتعطية نصف تكلفة المشروعـ وتم الانتهاء من شق القناة عام 1613ـ ووزع ماء النهر الجديدـ عند كليركين إلى جميع أرجاء لندن عبر شبكة من الأنابيب الخشبية والرصاصية تمتد إلى بيوت الأغنياءـ ولباقي المواطنين من خلال أربعة آلاف حمال ماءـ كانوا يحملون الماء على أكتافهمـ.

ولا يخفى على أحد أن الماء ثقيل الوزنـ فوزن كل لتر منه يبلغ كيلوغراماً واحداًـ ويحمل كل حمال برمبلين مخروطي الشكل بين الواحد منها خمسة عشر لتراًـ وستكشف لديك بعض الأفكار عن قسوة الحياة اليومية لحمل الماء إذا ما شاهدت المسابقة التليفزيونية «أقوى رجل في العالم»ـ بما تضم من متنافسين ضخام الجسمـ وهم يصرخون بينما يحملون براميل ثقيلة الوزن حينهاـ أصبح هيو ميدلتون باروناـ وما زال هناك مثال له في آيلينغتون غرين (Islington Green)ـ ولكن ليس هناك من نصب يذكرنا بأولئك الذين كانوا يحملون الماءـ.

أكل العلاجم/ المفخادع (Toad Eater)

لم يكن ميدلتون وحيداًـ فعالم الستيوارترين كان مليئاً بالمشاريع والابتكاراتـ فقد تم تأسيس الجمعية الملكية في تلك الفترةـ وقام إسحاق نيوتن في كامبريدج بتعريف قوانين الجاذبيةـ

موت محقق. ويقوم مساعدته، آكل العلاجم بابتلاع علجم سام، ويتناول بعده جرعة من الدواء المعروض للبيع الخاص بالدجال كثرياق مضاد لسم العلجم. والأمل يحدو الطبيب الدجال وأكل العلاجم - إذا ما نجا من الموت - بأن تندى جميع زجاجات الدواء من على رفوف البيع.

ولكن، هل كان هذا العرض يحق بحد ذاته عمل مجازي لا فحراً طيباً؟ من المحتمل، أن يكون آكل العلاجم قد ابتلع العلجم بالفعل، وربما قام بابتلاعه لاحقاً، وهذا احتمال بعيد عن الواقع. وفي الحقيقة، حليب العلجم ليس مميتاً، ولكنه قد يجعلك شديد الإعياء، ومصاباً بالغثيان. ومن المحتمل أن يقوم آكل العلاجم بإخفاء ذلك الحيوان البرمائي ذي الرغب في راحة يده. ولم يكن هذا النوع من التسويق نادراً، والتعبير الفرنسي الذي يصف هذا الوضع هو (*un avalar des couleuvres*) ويعني «بالغ أفاعي العشب».

ولم يكن أحد متاكداً لحظة العرض إن كان قد ابتلع العلجم أم لا. فمعظم الناس يعرفون شخصاً كان قد قابل رجلاً له أخ شاهد حادثة ابتلاع العلجم بالفعل، ولكن ليس هناك روايات مستندة من المصدر. ومن الممكن أن يكون آكل العلاجم قد قام بهذه الفعلة المخيفة، بيد أنه ليس هناك براهين ثبت ذلك. وعلى أي حال، دعونا نعطي هؤلاء المؤذنين الواثقين بأنفسهم فضل الشك، فنجرم بأن مهمتهم كانت بالفعل واحدة من أسوأ المهن.

ومازالت ذكرى آكري العلاجم، أو (*Toadies*) كما أصبحت تدعى هذه الأيام، حاضرة في لغتنا. فاي شخص يدي استعداده لابتلاع مخلوق سام لأن رئيسه في العمل طلب منه القيام بذلك، إنما هو أسوأ أنواع المتعلقين الأذلاء، أو هكذا يقول المتنطق. والمتعلق بهذه الأيام لص بخيل مصالحة، هذا رغم أن خسارتك المتعمدة أمام رئيسك في العمل في مبارأة للغolf ليست في سوء ابتلاع حيوان برمائي سام.

وهذا يقودنا إلى عمل آخر غير سار لم يكن اسمه موجوداً في قاموسنا.

دخل آكل العلاجم الأدب. فلقد استخدمت قصيدة لروبرت بيرنر كُتُبَتْ بعد انتهاء سلالة الستيوارتيين بثمانين عاماً، هذا التعبير معناه المجازى. وقد قصد بها هنا المتعلقين الاجتماعيين دون ذكر أسماء.

«تفتخر بسمو معارفك

والدوقيات الذين تناولت الطعام معهم مساء أمس

يد أن الحشرة ستبقى حشرة

حتى لو كانت ترتفع على جلد الملكة»

روبرت بيرنز 1791



ملقط يغض القمل (Nit Picker):

كان لكل شخص في العهد الستيوارتي، بعض النظر عن مرتبته علاقة - بطريقة أو باخرى - مع بيوض القمل (الصبيان). وقد أصبحت باروکات الرجال والنساء الفارهة رمزاً لذلك العصر. وكانت - لأنها مصنوعة من شعر الإنسان - معرضة للطفيليات ذاتها التي تسكن الشعر أو الجلد الاعتيادي، والمسماة Pediculus (أو قمل الرأس Humanus Capitis).

وما لاشك فيه أن معظمنا قد خضع لفحص البحث عن قمل الرأس خلال أيام المدرسة، أو عرقنا أطفالاً وجد

القمل في رؤوسهم. ولم تكن عملية استخدام المشط لإزالة بيوض القمل الدقيقة، أو البيوض التي تتعلق بحويصلات الشعر عملية سارة. ومن عساه يقوم بهذه المهمة لكسب عيشه؟ إنه الباحث عن بيوض القمل.

وتستخدم الكلمة هذه الأيام مرادفة لوصف شخص شديد العناية بالتفاصيل، أو متأنق،

اما قبل ثلاثة قرون فقد كانت هذه الكلمة وصفاً لاحدى الوظائف الشائعة. وتقوم الخادمة في البيوت الصغيرة بجازة القمل من باروکات افراد البيت. أما الاتریاء فقد توفرت لهم خدمة متخصصة متكاملة في هذا المجال.

وكانت الموضة في ذلك العصر تقضي بأن يقوم الرجال بقص شعورهم، ولبس شعر مستعار أبيض وضخم، مصنوع من شعر الإنسان المختلط إلى شبكة، وفي كثير من الأحيان، قد تتعلق بعض بيوض القمل بشعر الباروکة، وعندما يفتقس البيض، يزحف القمل عبر الشبكة إلى رأس الشخصية، ليتغذى بامتصاص الدم من المنطقة الخلفية للرقبة وخلف الآذان. والقمل ليس مميتاً، لكنه مزعج للغاية؛ وقد تؤدي الحكة إلى التهابات جلدية وأشكال أخرى من التهابات، وكانت الرقاية صعبة. وهناك من حاول صنع غطاء قاس من الماء والطحين حول شبكة الشعر المستعار للحيلولة دون وصول القمل لشعر الشخص الذي يضع الباروکة. ييد أن ارتداء قبعة فاسية من العجين الجاف لم يكن مريحاً كوجود بيوض القمل تماماً.

ولهذا كان ملقطيو بيوض القمل، ومعظمهم من النساء، يتقللون بشكل دولي من بيت إلى آخر لعرض خدماتهم، أو يتم استدعاؤهم لتنظيف الباروکات.

وكان اختيار الآخر أمام أصحاب الباروکة المصابة هو إعادة الباروکة إلى صانعها والحصول على أخرى نظيفة؛ ولهذا كان لدى صانعي الباروکات أعداداً لا تنتهي من الباروکات المستخدمة المليئة بالقمل. وعلى سبيل المثال، أصبح صانعو نيل بيس غاضباً جداً عندما أرسل له صانع الباروکات باروکة جديدة مليئة بتلك الذوبيات.

اما الفقراء، الذين لا يمكنون من اختيار باروکاتهم بأنفسهم وتصميمها كيفما يشاون، فقد كان أمامهم خيار «الغضسة» في هولندا - وقد يكون هذا الخيار مصدر العباره «الغضسة المحظوظة». حيث يستطيع الناس، لقاء أجرا ثابت مقداره ثلاثة بنسات، الغوص بأيديهم في صندوق مليء بالباروکات. وقد يتجلّى الحظ للمتسابق بإخراجه باروکة غير مصابة. كان عمل هؤلاء النسوة مريعاً كريهاً، لكن القمل الذي عليهم التعامل معه كان إلى حد ما غير مؤذ. ييد أن المتطلّل الوحيد الذي كان على السياورتين الحرصن منه - لو كانوا يعلمون - هو البرغوث، الذي دخل البلاد على ظهور الجرذان السوداء. وكان البرغوث يحمل أسلحة

دمار شامل باللغة الصغر. فلقد أظهرت التجارب المخبرية أن الفيروس تفقد الوعي بعد إصابتها بثلاثة ميكروبات عضوية من فحة (*Yersinia pestis*). وينشر البرغوث مع كل عضة منه أربعة وعشرين ألف ميكروب عضوي، مما يمكن عدّه جرعة مميتة من طاعون الدبلي.

أسوأ المهن خلال فترة الطاعون

(Worst Jobs in the Plague)

حل الطاعون العظيم في بريطانيا عام 1665، وكان من أشد الأمراض قسوة، وضم طاعون الدبلي، الذي يمتاز بالجروح المتقرحة المعروفة بالدبليات، وطاعون تعفن الدم، الذي كان يضرب الأوردة الدموية بشكل مباشر، وطاعون ذات الرئة، الذي كان يهاجم الرئة. وانتشر الوباء في الكثير من المناطق البريطانية، بيد أن لندن كانت الأكثر تأثيراً. وتقلص عدد السكان في غضون بضعة أشهر بقدر الثلث.

وظهر الطاعون في بدايته في سانت غاليلز (St. Giles) الموجودة في ظلال جدار مدينة لندن، حيث كان الفقراء يعيشون في أكواخ مزدحمة جداً بين أكواخ القمام، وأصبحت مارغريت بورتيوس في الثاني عشر من إبريل من عام 1665 أول ضحية رسمية. وبلغ عدد الموتى خلال شهرين ستة آلاف شخص، وارتفع العدد بحلول شهر أغسطس إلى واحد وثمانين ألف شخص. وتم الاحتفاظ بسجلات شهرية تفصل في الطريقة التي مات عليها الناس. لكن الكثير من الفقراء، كما يوضح صموئيل بيتس، لم تظهر أسماؤهم في القوانين الرسمية.

وقد ربط صموئيل بيتس نفسه بين الباروكات المليئة بالقمل والطاعون، وأشار في هذه المذكرات اليومية إلى تفاقم مشكلة لندن، ومن ثم تساءل عن تأثيرها الكبير على صناعة الباروكات.

31 أغسطس 1665

إذًا، انتهي هذا الشهر بحزن عظيم لما أصاب الناس من وباء عظيم

في جميع أرجاء المملكة، وتردنا يومياً أخبار أشد حزناً من سابقتها تخبرنا بتفاقم الوضع.

لقي 7496 شخصاً حتفهم في المدينة هذا الأسبوع، كان عدد المتوفين منهم بالطاعون 6102. وهناك مخاوف من أن عدد المتوفين الحقيقي هذا الأسبوع يقارب عشرة آلاف شخص، بعضهم من الفقراء الذين لا يستطيعون عدّهم لعظم عدد المتوفين، وبعضهم من الأطباء الدجالين، وغيرهم من الذين لا يأبه بهم أحد.

يوم الرب، 3 سبتمبر 1665

نهضت وارتديت بذلتى الحريرية الملونة، كم كانت جميلة، ونظرت إلى باروكي الجديدة، التي اشتريتها منذ فترة قصيرة، ولكنني لم أجربه على لبسها، لأن الوباء كان قد حل في ويستمنستر عندما اشتريتها. وهناك تساؤل عن الموضة التي قد تظهر بعد ما فعله الطاعون بالباروكات. فليس هناك من يريد شراء شعر مستعار خوفاً من العدوى، فمن المحتمل أن يكون هذا الشعر قد قُص من رؤوس أشخاص ماتوا بالطاعون.

وجاء للدجالين وأكلة العلاجم يومهم الموعود، فلقد جأ الناس لأي شيء يحميهم من هذا المرض المخيف، وتم توجيه الناس إلى التبغ كوسيلة زكية بقوة لردع انتشار العدوى. وعلى عكس قوانين الطبيعة الآن، قد يتعرض أي شخص بضبط وهو لا يدخن إلى عقوبة. وكان لهذه السنة التي عكت جراح الناس وقع عظيم في وعيهم، وما زلنا نستخدم العبارة «تجنبه كالطاعون» ويقال: إن لعبة الأطفال «دقى يازهور» (ring ring o' roses) إنما هي إشارة مريرة للأعراض المرض وعواقبه. وسقط كل الناس قتلى خلال العهد المتباورتي. في الحقيقة، لم يسقط كل الناس قتلى، بل بقى هناك أحيا، بما يكفي ليعتنوا بأولئك الذين يدفعون الموت عن أنفسهم، والقيام بمحنة مجموعه من الأعمال المرتبطة بالطاعون.



مجرد إعلان الباحث عن الموتى عن وجود إحدى ضحايا الطاعون في بيت ما، تبقى الجثة داخل البيت حتى منتصف الليل عندما يقوم دافن الطاعون بجوار لاتهم المهددة.

الباحثون عن موتى (Searchers of the Dead)

لم يكن البحث عن الموتى بالعمل الصعب، فلقد كانوا في كل مكان. ويتلخص عمل الباحثين الكيب في دخول المنازل، التي حدثت فيها حالة وفاة، وإجراء تشريح غير متقن وعلى عجل. ويقوم هؤلاء، إذا ما تبين بأن سبب الموت هو الطاعون، بإغلاق المنزل باللواح خشبية لإبقاء قاطنيه في حجر صحي.

ولكن ما السبب الذي قد يدفع شخصاً لاختيار عمل كيبي كهذا؟

والجواب عن هذا السؤال ليس صعباً. فمعظم العاملين في هذه المهنة كانوا نساء قد بلغن من العمر ما أكسبهن معرفة طيبة بسيطة، بيد أنهن لفقرهن قد انسقن للقيام بعمل - اعتقاد العالمون بأمره - أنه قد زاد من فرصهن في الوقوع ضحايا للطاعون. كان معظم هؤلاء النساء مشردات، يعشن على معونات الأبرشيات، ويتلقين أجراً لقاء قيامهن بهذا العمل، وفي حال

رفضهن، كن يهدّدن بقطع معونات الأبرشية عنهن، مما قد يتركهن مفلسات تماماً. ولم تنشأ الحاجة إلى عمل هؤلاء النسوة بسبب طاعون عام 1665 فحسب، وإنما كانت هناك موجات من الطاعون كل خمسة عشر عاماً، أو حول هذا الرقم خلال الفترات البيودورية والستيوارتية. ونحن نعلم أن أربع باحثات عن الموتى من ستيبني كن يتلقين أربعة بنسات مقابل كل جثة نقلنها خلال انتشار طاعون 1625.

غير أن الأسعار انخفضت كثيراً خلال الطاعون العظيم، نظراً للارتفاع الباهر في عدد الموتى والمحضررين، حتى إن الأبرشيات قد خفضت أجورها أيضاً. وتلقى الباحثون عن الموتى زهاء البنسين لقاء كل جثة يفصوصونها.

ويقوم قاطنو بيت المدفون قبل قدوم الباحثين إلى منزلهم، بمحاولات «تركية» الجلو بالأعشاب، أو إخماد العدوى بحرق الكبريت. ويقوم الباحث عن الموتى بعمله في ظل هذه الظروف المليئة بالأذى.

ويجري الباحثون عن الموتى - كخطوة أولى - استجواباً مع الأصدقاء والجيران حول أعراض المرض، وحول طول فترة المرض، وكيفية موته. ومن ثم يتقدلون للجثة، فيبحثون بحرص شديد عن الجروح المتبيحة، وسوداد الجلد، وهي العلامات الفارقة للطاعون. وقد كانوا وهم يلملون أياديهم بالإفرازات الناتجة عن الحرارة والبثور التي تنز بالسؤال من جسم المدفون حديثاً كمن يلعب بالموت. ومن الثير للسخرية، أن هؤلاء لم يكونوا معرضين للخطر عند قيامهم بهذه الأفعال، بل إن مصدر الخطر الذي قد يتهددهم هو حديثهم مع باقي أفراد العائلة. فالأخباء هم من كانوا يعيشون مراحل العدوى، لا أولئك الذين استسلموا للمرض سابقاً.

ويقوم الباحثون بتحريهم استناداً إلى ما يرونه بأم أعينهم، ييد أن هذا لا يعني أن مرحلة التشخيص كانت بالضرورة بسيطة؛ فالجروح الكبيرة المتبيحة، وما يرافقها من رقع سوداء على الجلد هي الأشياء الواضحة، لكن ضحايا بعض الأمراض الأخرى المفرزة كالجلدرى قد تبدو عليهم أعراض مروعة مشابهة. واحتمال الخطأ في التشخيص تحت أصوات أ��واخ لندن الخافتة، كبير جداً.

ويعجرد الإعلان عن وفاة شخص بسبب الطاعون، يتم وضع علامة على منزل المدفون،

ولا يسمح لأحد بولووجه أو الخروج منه إلا للطبيب أو الباحث عن الموتى. ويقوم الباحث، ويرافقه المشرف عليه؛ الموظف الكنسي أو القىدلىت بجمع لائحة بأسباب الوفاة. ييد أن السجلات لم تكن شديدة الدقة، نظراً لأن هؤلاء أيضاً كانوا يموتون بالطاعون.

وكان على الباحثين أداء يمين يتعهدون من خلاله بالقيام بعملهم بأمانة وإخلاص. وعلى الرغم من ذلك تم اتهام بعضهم بقبول الرشوة من عائلات ضحايا الطاعون، ليقوم الباحث بالتنسب أن سبب الوفاة ليس الطاعون، وإنما سبب آخر كالتهاب اللوزتين أو الارتعاب. وسيتمكن الأقارب، إذا ما حصلوا على شهادة «خلوًّا من أمراض» من التنقل إلى مناطق تخلو من المرض المفرغ.

وبدت مهمة الباحث عن الموتى أكثر صعوبة؛ لأن الوباء العظيم كان مزرياً من عدة أنواع من الأمراض، كان أشهرها الطاعون الدبلي. وفي العادة، تقوم عضة برغوث بغرس الميكروبات العضوية في النظام المنفاوي للجسم، وتؤدي هذه إلى ظهور أورام مؤلمة ضخمة الحجم في الغدد المنفاوية، وفي مخين الفخذ، أو الإبط أو الرقبة، والموت هو النتيجة المحتمة إذا ما وصلت العدوى إلى الدم.

وفي حالة طاعون تعفن الدم، تنتشر العصيات في بقى الدم مباشرة، وقد يعني هذا أن المريض قد يموت دون ظهور أعراض الأورام الاعتية. ويتنتقل المرض عبر عصيات البراغيث كما في حالة الطاعون الدبلي.

ويسبب طاعون ذات الرئة أمراضًا رئوية شديدة الخطورة قد تكون مميتة، ولكنها لا تتطلب قرصنة برغوث لانتشارها. وتوجد العصيات في قطرات الماء المتطايرة من سعالات المريض إلى ملابس المحاورين له؛ ولهذا تعد هذه العصيات معدية جدًا، وبخاصة في البقارات المزدحمة ذات التهوية السيئة. وقد سجلت حالات مستعصية من ذات الرئة بمجرد وصول العصيات للرئتين.

وقد يقود طاعون ذات الرئة للموت في غضون ثلاثة أيام أو أربعة، ييد أن الفترة التي يستغرقها طاعون تعفن الدم هي أقصر بكثير. فهو يحتاج لأربع وعشرين ساعة فقط. وينتسب التزيف الداخلي في جميع هذه الأنواع بحدوث كدمات ضخمة تظهر على الجلد، وقد يفسر سبب هذا تسمية الطاعون في القرن الرابع عشر بالموت الأسود.

وتشير قوائم الموتى إلى أن عدد الوفيات الشهري هائل، وكانت جميع هذه الجثث تحتاج إلى من يدفنهما، ويقودنا هذا إلى مهنة سبعة أخرى.

دفن موتى الطاعون (Plague Burier):

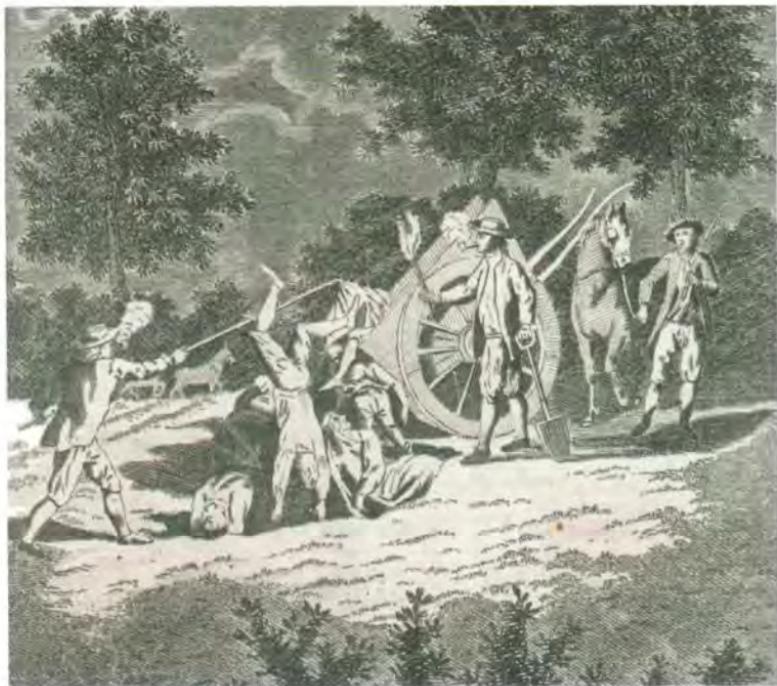
كان على جميع أبرشيات لندن السبع والستين الموجودة داخل أسوار المدينة، والثلاث والثلاثين الموجودة خارج أسوار المدينة القيام بدفن موتاهم. ويشير مشهد فرقة موتنى بايثون المسرحية الشائع والملهم إلى عربة تشق طرقات المدينة يقودها سائق يقرع جرساً ويصرخ بصوت متختزج قائلاً: «أحضرروا موتاكم». غير أن العمل لم يكن على هذه الدرجة العالية من التكنولوجيا.

فمعظم دافني صرعي الطاعون كانوا من الفقراء البانسين، الذين يقومون بالعمل ليلاً دون وجود أقارب الميت خوفاً من الإصابة بالعدوى. ولم يتمكن سوى أقل القليل منهم من احتلال رفاهية العربة، فقد قاما بجر الجثث المشوهة بشاشة على شبكة المقلاع التي بدت كأرجوحة شبكة.

كان الصيف حاراً وطويلاً، وعيقّت أجساد أولئك برائحة الموت والجثث المتغيرة. وسرعان ما امتلأت المقابر بالموتى، بحيث تم السماح بالقيام بعمليات دفن جماعية. وقد تحدث أخطاء بين حين وآخر؛ فهناك حالة واحدة على الأقل لموسيقي سكير فقد وعيه، فظله ميتاً وتم جره بالعربة لدفنه، ونحن نفترض هنا أنه قد أفاق قبل أن يموت اختناقًا من تراكم الجثث فوقه.

وأصبح الخوف كالغمامة السوداء التي تخوم فوق المدينة. وجداً الدافتون، في محاولتهم لدفع الهواء الملوء، للتدخين بكفاية، لكنهم أدركوا في قراره أن فرصمهم في القاء على قيد الحياة، هي أقل من فرص مساعد المفجر الذي قد لا يسعفه عرجه بالهروب من موقع التفجير. وكان هؤلاء في منظور العامة، نظراً لاقترابهم الجسدي للصريح من صرعي الطاعون، رجالاً محكماً عليهم بالإعدام. وفي العادة فإنهم يحملون قضباناً حمراء لتحذير الناس من الاقتراب منهم، وقد يضطرون للعيش في معزل عن الناس، داخل أكواخ في المقابر، لابقاءهم بعيدين عن نقل العدوى للآخرين.

وفي الواقع، كان لهؤلاء ذات الفرص المتاحة أمام باقي الناس في البقاء؛ فالبراغيث وقطرات



يقوم الدالون مع تراكم الجثث في قبور جماعية، بالتدخين بشدة على غلينون لحمايةه من العدوى.

الماء الملوثة من المصاين بالمرض هي أسباب الطاعون. ولم يشكل دفن الموتى أي فارق يذكر. إن ما يجعل هذه المهنة سيئة بحق، بعيداً عن النظر إلى حالة الدافنين الصحية، وفضلاً عن الرائحة النتنة والمعفنة، هو الخوف المسيطر عليهم؛ أن عملهم مميت لا محالة.

وتوجز لنا هذه الفقرات من تعليمات توصيات رئيس البلدية فيما يتعلق بالطاعون عمل الباحث عن الموتى ودفنتهم، والمحاولات الإنسانية البائسة في مواجهة الكارثة الطبيعية.

الأوامر الصادرة عن رئيس بلدية لندن وأعضاء المجلس التشريعي

فيما يتعلّق بعذوي الطاعون 1665

ونظراً لقيام عاهلنا الملك الراحل الملك جيمس، الذي نستذكره بكل خبر،
بسن قانون خاص بجهود الإغاثة، وتراتبية الأشخاص المصاين بالطاعون،
ووفقاً لهذا القانون تم تحويل منفذي العدالة، والمحافظين، والمأمورين
القضائيين، وغيرهم من الموظفين ذوي المرتبة الرفيعة بتعيين مفتشين
وباحثين ومرافقين وحراس ودفعه للأشخاص المصاين بالمرض في جميع
الأماكن، ووفق صلاحياتهم المنوحة لهم. كما كان من صلاحياتهم جعل
هؤلاء يقسمون بيناً للقيام بواجباتهم على أكمل وجه. ونص القانون أيضاً
على أنه من صلاحيات هؤلاء الموظفين المذكورين إصدار تعليمات تحد
ضرورية في وقتها. وبعد تداول في هذا الشأن، وكإجراء مناسب، لمنع
انتشار العدوى وردعها (إن كان هذا يوافق إرادة رب العظيم)، فقررتنا
إنشاء الوظائف الآتية، وعليهم القيام بالمهامات الآتية على أكمل وجه.

الباحثون

يجب الحرص بشكل خاص بتعيين باحثات في كل أبرشية، معروفة عنهن
الأمانة، ومن أفضل ما يمكن استئمانه للقيام بهذا العمل. وعلى هؤلاء
النسوة أداء القسم للقيام بعملهن على أكمل وجه، وتقدم تقرير واف،
حسب ما توصلن إليه من معرفة فيما إذا كان الأشخاص الذين عليهم معاية
جثثهم قد لقوا حتفهم، نتيجة العدوى أو أي مرض آخر. والأمر متزوك
للطبيب الذي قد يعين، ليشمل عمله عدة أبرشيات ليحدد فيما إذا كان
هؤلاء النساء مناسبات للقيام بهذا العمل، وإيقاع العقوبة المناسبة عليهن
إذا ما تم اكتشاف تقصيرهن في عملهن.

ولا يسمح لأي باحث خلال هذا البلاء العظيم بالعمل في شتى أنواع
العمل العام، كالإشراف على متجر، أو العمل كفاسلة، أو في أي نوع

من أنواع العمالة مهما كانت.

دفن الموتى

ويعتزم هذا القانون يتم دفن الموتى بعد تقادهم في أقرب الأوقات قبل شروع الشمس أو بعد الغروب - وبحضور آمر الكنيسة أو مرافقي الأمن، ويجب عدم القيام بالدفن إن لم يحضرها، ويجب منع جiran المتوفى أو أقربائه المذكورين من مرافقته الجثة إلى الكنيسة، أو دخول البيت الذي وجد فيه المتوفى كي لا يتم إغلاق البيت تماماً أو جسدهم. ويجب ألا يبقى في الكنيسة أو يدفن فيها خلال وقت الصلاة العامة، أو الخطبة أو المحاضرة. ويجب ألا يسمح للأطفال بالاقتراب من الجثة أو التأبُّوت أو القبر، خلال عملية الدفن في الكنيسة أو قاعة الكنيسة، أو مكان الدفن، ويجب أن تكون جميع القبور على عمق سنتاً أقدام، وعلاوة على ذلك يجب منع جميع التجمعات العامة خلال عمليات الدفن، في حال استمرار هذا العقاب الإلهي.

يجب وضع علامة على كل بيت تمت زيارته
يجب رسم صليب أحمر حجمه قدم على باب كل بيت تمت زيارته،
بشكل واضح للعيان؛ ويجب كتابة الكلمات الآتية: «ارحمنا يا رب»
فوق الصليب. ويجب أن يبقى الصليب والكلمات على الباب حتى يتم
فتح الباب قانونياً

السر جون لوريس، رئيس البلدية

السر جورج وايرمان، والسو شارلز دو- مفوض الأمان.

غير أن هناك وظيفة متعلقة بالطاعون أسوأ من الوظائف التي ذكرت، فالمهمة التي قد لا يحسد عليها أي شخص، هي قتل الكلاب والقطط في أمة تعشق الحيوانات.

قاتل الكلاب والقطط (Dog and Cat Killer)

كان الاعتقاد السائد حينها أن القطط والكلاب الوحشية هي سبب انتشار الطاعون، وكان يعتقد أن الكلاب المفروضة بالنقية والجعارة هي التي تحمل المرض في فرائسها، ولهذا كانت المجالس البلدية تدفع بنساً مقابل كل حيوان يقتل. وتم قتل أربعين ألف كلب، وثمانين ألف قطة، وكانت هناك محاولات لتسميم الجرذان بالزرنيخ وسم الجرذان - وتشبه المهمة الأخيرة عمل صائد الفئران في العهد الفيكتوري - هذا إن نسبنا القتل الموسي للأرانب والحمام. ييد أن قتل القطط والكلاب، بغض النظر عن عمرها، قد جعل الجرذان الحاملة للطاعون طلقة لا تخشى مقتربيها.

وتعدوظيفة قاتل الكلاب امتداداً لوظيفة أيرلندية قديمة تدعى «طارد الكلاب»، وهو لقب أطلق على الرجل المكلف بدفع الكلاب خارج الكنيسة. وكان من مهماته أيضاً نحر الناس لايقاظهم خلال الموعظ الطويلة. وضمت كاتدرائية إكستر غرفة خاصة لطارد الكلاب، الذي كان يلقى راتباً من الأبرشية، التي تزوده مستلزمات عمله وهي: السوط، والقفازات، والملقط، الذي يستخدم للإمساك بالكلاب من مسافة بعيدة. ومايزال طاردو الكلاب في باسلو (Baslow) التي لا تبعد كثيراً عن قرية الطاعون الشهيرة إيام (Eyam) في ديربيشاير، يتلقون سوطاً كالذي كان يستخدمه طارد الكلاب.

وأصبح طاردو الكلاب مسؤولين خلال فترة الطاعون عن تجميع الكلاب والتخلص منها، فقد نظر الناس إلى الكلاب الصالحة بالتخوف والإحساس بالقدرة اللذين نرى بهما الجرذان الآن. وظن الناس أن هذه الكلاب - لأنها تتوجه فرادى أو في جماعات - هي المسؤولة عن نشر الطاعون. واستدعي وقوع وفيات بين أفراد منزل قتل الحيوان الأليف في ذلك المنزل.

وغم التشديد في تطبيق الإبادة الكاملة يحق هذه المخلوقات، ولم تكن الطرق المستعملة إنسانية على الإطلاق، فقد تم استخدام السكاكين، والعصي، والمصائد، والكلل الخشبية الضخمة في قتل القطط والكلاب المسكينة. ييد أن العلم الزائف الذي يبرر هذه المذبحة، لم يكن ذات جدوى في القضاء على الطاعون، الذي تم القضاء عليه - كما يعلم معظم طلاب المدارس - بواسطة خباز مهمٍّ، لا بواسطة طيب.

فالشارة التي بدأت في مسار الودنخ في الثاني من سبتمبر عام 1666 أصبحت فيما بعد حريق لندن العظيم، والرأي التقليدي في هذا الشأن أن هذه الكارثة الطبيعية العظيمة في العهد الستيوارتي قد استأصلت الكارثة الأولى؛ هذا على الرغم من عدم وجود تقسيم مقنع لهذا الاعتقاد. وفي الواقع، واصل الطاعون انتشاره لفترة تلت الحريق العظيم، وكان دور الحريق في إزالة ما يكفي من المدينة لدفع الكثير من الجرذان خارجها، وبذل أسهمت في إنهاء الوباء.

بيد أن الحريق العظيم قد وضع نهاية لكاتدرائية القديس بول القديمة؛ وبعد المبنى الذي تعرض للاحتراق رابع كاتدرائية تبني في ذلك الموقع بلا انقطاع، بدءاً بذلك التي بنيت في عهد الملك إيليزيرت في كنت في عام 604 بعد الميلاد. وتعرضت البنايات الأخرى جميعها للاحتراق أيضاً، وورد عن كاتب اليوميات جون إيفيلين قوله: «ليست كاتدرائية القديس بول الآن سوى دمار حزين، وذلك الرواق الجميل ليس سوى أكواخ من الحجارة». وكان لدى المعماري العظيم كريستوفر رين، حتى قبل وقوع الحريق العظيم، خططات لهم الكاتدرائية الجديدة والاستبدال بها تصميمًا كلاسيكيًا يبدأ أن حلمه لم يتحقق لرفض السلطات مثل هذه المشاريع، وجاء الحريق العظيم ليمنحه الفرصة الذهبية لتحقيق حلمه. فقام بناء أكبر كاتدرائية في بريطانيا، وواحدة من أشهر المعالم في العالم. وبقيame بهذا العمل، وضع حجر الأساس لواحدة من أكثر المهن سوءاً.

رسام القباب (Dome Painter) :

طلب العمل في المبنى الجديد آلاف العمال الذين عملوا بكل تفاصيل تصاميم رين، وأشرف عليهم تشارلز الثاني بنفسه. بدأ العمل عام 1675، وانتهي منه عام 1710. واحتفل رين بعيد ميلاده السادس والسبعين وانتهاء العمل بالكاتدرائية، بوضع نفسه في سلة، وسحبه إلى المئارة التي ترتفع فوق القبة.

وُعدَت القبة نصراً عظيماً كلَّ به رين عمله طوال حياته. وكان عم رين أسقف إيلاي، ويتزار الكاتدرائية في إيلاي عمارتها المبنية الشمانية الشكل، التي تضفي على الكاتدرائية باكمالها بعداً خاصاً. ولقد استمد رين إلهامه من هذه الكاتدرائية، وأضفى عليه لمسة



كلاسيكية. وترتفع القبة إلى ما يزيد على مئة متراً؛ وبذلًا تكون واحدة من أطول الكاتدرائيات في العالم. وحتى وقت قريب، كانت الكاتدرائية مملأة فضاء لندن. أما من الداخل، فالقبة تزود البناء ببعد ضخم، وتستكون حين دخولك رواق الاعتراف—بعد صعودك متين وتسعاً وخمسين درجة—قد وصلت إلى منتصف الطريق إلى القمة.

ويمكن عد الرسومات التي تكسو القبة من الداخل مرشحة لواحدة من أسوأ المهن في ذلك العصر. إن مجرد أنه يشك في مكانته بين الآخرين.

يظهر السير جيمس ثورنھيل في هذه اللوحة مجزأة من قبة كاتدرائية بروتستانتية، كما لو قيامك بطلاء الجدران، التي تبلغ مساحتها ألفاً وأربعين متراً مربعاً بدهان عادي، هو عمل صعب، فكيف بعمل رسام القباب الذي يعُد مزيجاً من التحمل الجسدي والإقرار الروحي؟ بل يمكن القول إنه قصة رجل واحد هو: جيمس ثورنھيل.

أراد رين أن تكون الزخارف بسيطة؛ فهذا المبني—أولاً وأخيراً—كاتدرائية بروتستانتية. ولم يقتديم البيرتونيون على استخدام الزجاج الملون والرسومات في زخارف الكنيسة إلا حديثاً، وكان الناس على الدوام يعزون أي شيء ذي وضع مرتب للبابوية. وفي حقيقة الأمر، تداول الناس شائعات مفادها أن الكاثوليكين هم من ورَى نيران الحريق العظيم. ويظهر غوذج رين، الذي صمميه بين عامي 1673 و1674 قبل بدء العمل، القبة، وقد غطى أكمالها بالتحفاص. يبد أن سلطات الكاتدرائية قررت أنها ترغب في زخارف أكثر تميزاً. وقامت عام 1708 بابزارة خططات جداريات ضخمة وضعها الفنان الفرنسي العظيم لويس لا غير (Louis Laguerre). ولم تمض سوى شهور محدودة حتى حصل اليهوديون على السلطة من المحافظين،



قبة كاتدرائية القديس بول تردان بجداره ثورنهيل التاموري.

وأصبح مصير الأمور الداخلية للكاتدرائية معلقاً بآيديهم. فطالبوها باتباع طريقة بروتستانتية أكثر تحفظاً، وذلك بعد أن رأوا أن رسومات لويس صارخة وبهرجة؛ وبذا عادت مرتبطة بتجاوزات صور روما الصارخة، ولهذا تم إخراجها من المشروع.

وتم الإعلان عن مسابقة لاختيار أفضل بدليل عن لويس ورسوماته. وضمت القائمة المختصرة السير توماس ثورنهيل، والرسام الإيطالي بيلغربي. وطلب العميد من رين إيه رأيه بالتصاميم المقترحة، فقال إنه لم يعجب بأي منها؛ مع أن أعمال ثورنهيل أقلها سوءاً. يد أن هذا العميد كان جديداً، وكذا كانت الجماعة الدينية صاحبة القرار في هذا الشأن، فقاموا ببرد اقتراح رين.

ولقد منح ثورنهيل هذا الشرف، فكان له امتياز مضاعف كونه إنجليزياً وبروتستانتياً أميناً. وببدأ تقويسه في شهر يونيو من عام 1715. (وعلينا القول هنا: إن هذا التاريخ يدخلنا في الفترة الجورجية، غير أن كاتدرائية القديس بول ذاتها تعد رمزاً للعهد الستيواري، وتم طرح عطاء الصور في عهد الملكة آن).

وتفتهر لوحات ثورنهيل التي تم اختيارها ثمانية مشاهد للقديس بول، فكانت هذه الرسومات أولى اللوحات الرمزية في الفترة التي تلت حركة الإصلاح الديني. وقد يكون ثمة مشاعر معادية للروماني لدى الحكماء، وفي جميع أرجاء الوطن، ييد أن القديس بول لم يكن موضع خلاف على الإطلاق، فقد كان حوارياً، وتصب مبادئه التوحيدية في صميم المذهب البروتستانتي، وكانت مواضيعه الرئيسة توراتية بالكامل. ولكنه لم يلق الجلبة ذاتها التي تلقتها مردم العذراء، أو أي واحد من القديسين الأسطوريين.

وغدت كاتدرائية القديس بول، حتى قبل انتهاء العمل فيها، متسخة بسبب الدخان الذي كان يعطي سماء لندن، وواصل الدخان تراكمه عليها إلى حين تنفيذ قانون الهواء النظيف عام 1956. وتم مؤخراً ترميم المبنى والرسومات التي كلفت في الأصل أربعين مليون جنيه إسترليني. ويمكن للتدنيين الآن أن يروا مبني رين كما صمم، وبذا كسبت سمعة ثورنهيل ثناء متاخراً.

والمشروع عبارة عن جدارية ضخمة تعتمد طريقة الترام بوليه في الرسم، وتظهر الشخصيات فيها مؤطرةً عبر الأروقة المعمارية المتعددة التي تحمل مجموعة من الجرار، وقصور المحار، والأكاليل. وتم اعتماد طريقة غريزياي (grisaille) في رسم اللوحات؛ وهي طريقة توظف اللون البني، والرمادي، والأصفر - المحمر ودرجات هذه الألوان لاستزاف جميع العلاقات اللونية (والبابوية) من لوحة الألوان.

ويمكن القول هنا: إن هناك تشابهاً مع حياة مايكل أنجلو وعمله، وكان من الممكن أن تكون القبة ككتيبة سيستينا الخاصة بثورنهيل (في إشارة إلى كنيسة سيستينا التي أبدع أشهر الرسامين الإيطاليين في رسماها، والتي تعد مقرأ للبابا). ولقد ذاق فنان عصر النهضة الأمررين من تحفته الفنية، فقضى في رسماها سنوات، وهو متعدد على ظهره، وأنفه ملامس للسقف. اعتقاد ثورنهيل العمل في مثل هذه الظروف، ولكن على حالات خشبية أكبر. وعلى الرغم

من أن شخصين أو ثلاثة قد ساعدوه في عمله هذا، إلا أن العمل استغرق ستين لإنزاله. ولم تكن مهنة الرسم على القباب بالعمل المناسب لضعف القلوب؛ وتبلغ المسافة الواقعة بين أرضية الكاتدرائية وأعمق نقطة خمسة وثلاثين متراً. وقد يتطلب وصول ثورنهيل ومساعديه إلى الرقة التي يريدون العمل عليها ما يقارب الساعة. ومن ثم يبدأ العمل الصعب.

كان يجب في بداية الأمر تغليف الجزء الداخلي الضخم باستخدام حمالات معلقة من السقف، تفقد لخواجز قد تخفي الرسامين من السقوط عنها. وفي حين إنهم يستطيعون العمل في وضعية طبيعية في المراحل السفلية، لم يكن ذلك متاحاً لهم في أعلى القبة، حيث اضطروا، نظراً لأن انتهاء القبة، للعمل وهم مستلقون على ظهورهم، وليس خلفهم سوى فراغ مروع يمتد إلى الرخام في أرضية الكاتدرائية. والعمل مزيج من المشقة الجسدية البالغة والدوار المتواصل. ولكن لم تسجل أي حالة وفاة، مع ورود أخبار أن ذلك كان يمكن أن يقع، فقد كان ثورنهيل يمشي للخلف ويقترب، بشكل خطير، من حافة الحالة الخشبية. وكيف يمكن مساعدته أن يجلب انتباذه دون أن يجعله يقفز ويرطم بالأرض؟ وكان الحل الذي ارتأه - رغم أنه لم عنده الشكر الذي استحقه - هو رمي علبة دهان على الجدار ليجلب انتباذه.

وضم هذا العمل الضخم عدة مراحل، كانت أولها تحضير المناطق التي يجب الرسم عليها بطبقين من دهان الأساس، ويلي ذلك، رسم تصاميم بدقة رياضية فريدة؛ فابعطاه الأشكال الضخمة الحجم ما يناسبها في اللوحة كان إنجازاً فريداً، ولا يجوز ترك الأمور تقريرية، فهذا مما لا يسمح في خلق بعد مرئي مناسب. كانت الأشكال ضخمة بحق، فقدم القديس بول وحدها كانت بطول ذراع رجل، وقد تقسم العملية أكملها بشعور محبط صفة العامة: «هل تستطيع أن تراها الآن؟»، وبالطبع، لم يكن عقدور الرسامين الرجوع إلى الخلف ليبدوا رأيهما فيما يقومون به.

وعلاوة على ذلك، كان الرسامون يعملون في الظلام، بكل ما تحمله الكلمة «ظلام» من معنى، ولا سيما في شهور الشتاء؛ فالأجزاء العليا من القبة كانت مظلمة وشديدة البرودة، ولم تكن الشموع ذات فائدة كبيرة، وبخاصة في وضع رسامينا الذين كانوا يستخدمون الألوان البنية والسوداء والرمادية. ولقد شعر رسامونا بالوحدة في قمة القبة؛ إذ صرخ ثورنهيل، عندما

قام كاتب اليوميات والعضو في البرلمان ددلي رайдر (Dudley Ryder) بزيارته في أغسطس من عام 1716، أن أحداً لم يرتق الحمالة الخشبية أبداً ليحدث معه.

ورغم كل هذه الظروف السيئة، اكتمل العمل في الكاتدرائية، وتلقى ثورنهيل ستة آلاف وخمسماة جنيه إسترليني، وأصبح أول رسام بريطاني يمنع لقب فارس، بل أصبح عام 1720 عضواً في البرلمان. فحقق إنجازات على صعيد عده.

ولكن أين تكمن المشكلة؟

في الحقيقة، كان ثمة طعنة في صميم هذا العمل السبي. فقد وجد ثورنهيل نفسه، بعد تسلقه آلاف الأدراج، وإجهاد عينيه لإكمال هذا العمل، أنه تقليدي كممثلي كوميديين في حفلة موسيقية عديمة القيمة. فقد تغيرت – بين ليلة وضحاها – المعاير الجمالية لدى العامة، ووجهت انتقادات إلى رسومات ثورنهيل – قبل انتهائتها – مفادها أنها مملة جداً وكثيرة، وأصبح أسلوب الروكوكو، بدؤاماته وزخارفه المتوججة أسلوب الحياة الطاغي حينها.

ويقول الناشط المثبت على ضريح السير كريستوفر رين في كاتدرائية القديس بول: «إيها القارئ، إذا أردت النظر إلى شيء خالد، فانظر حولك». وقد يكون رين أشهر رسام معماري في تاريخ بريطانيا، وكانت كاتدرائية القديس بول كفيلة بتحقيق ذلك الأمر له. أما ثورنهيل، الذي بدأ عمله بتأمّل عريضة بأن تخلّد اللوحات اسمه أيضاً، فقد اختفى اسمه في غيابه التاريخي؛ ولا يذكر هذا الفنان الستيوارتي العظيم – إن ذكر اسمه على الإطلاق – إلا عند الحديث عن صهره، فنان العهد الجورجي الأكثر شهرة، هوغارث (Hogarth). وقد أصبح عمله، الذي انجزه في ظروف شديدة الاعتمام، وعلى ارتفاعات شاهقة، مسجلًا في ذاكرة

السيان. إن ما يظهره هذا العمل هو أن الأعمال السبية لم تكن قليلة الكلفة أيضًا.

إن العمل الذي يستحق جائزة أسوأ المهن في الفترة الستيوارية هو بحق عمل شخص محترم جداً، وعلى درجة عالية من الثقافة، وفي بعض الأحيان، ذو دخل جيد. وليس هذا فحسب، فإسهاماته جليلة في الفنون الأدائية لبلده. ومن يكون هذا الشخص غير صانع أو نار الكمان؟

أسوأ الأعمال على الإطلاق

صانع أوتار الكمان (Violin-String Maker)

تغيرت الموسيقى التي كان الناس يستمتعون بها خلال الفترة الستيوارتية بشكل كبير، وتعدّدت عند جلوس جيمس الأول على العرش، الآلات الوترية الأنيقة متعددة الطبقات الصوتية مثل العود والفيولا (viol). ومع انتهاء فترة حكم الملكة آن، كانت الصرخات الكبيرة في عالم الموسيقى هي التحف الفنية البالغة التعقيد ككونشيرات باخ وففالدي على آلة الكمان، وموسيقى هاندل المائية، وبذا حلّت في تلك الفترة موسيقى الباروك، ولدت الأوركسترا الحديثة، التي كان الكمان عمادها. ييد أن هذه التحولات الموسيقية لم تصبح في متناول اليد لولا وجود مجموعة صغيرة مكرسة من الناس، ومستعدة لتحمل أقصى الظروف في محاولتها غسل أمعاء الخراف المذبوحة حديثاً للتخلص مما فيها من فضلات.

عمّت القرن السابع عشر ثورة في تكنولوجيا صناعة الأوتار. فقبل تلك الفترة ضم الكمان ثلاثة أوتار فقط. ويلحظ من نقر شريطاً مطاطياً منا أن الوتر القصير والرقيق والمشدود يصدر نوتة موسيقية مرتفعة / حادة، بينما يصدر الوتر الغليظ والطويل صوتاً منخفضاً. وقد أدرك صانعو الكمان أن من المستحيل إنتاج وتر خليط لعزف النغمات المنخفضة، معبقاء هذا الوتر قصيراً، ومشدوداً، ليناسب حجم الكمان.

وفي النهاية، حلّت المشكلة باستخدام



إن إحدى الجوانب المشاركة في أسوأ المهن هي أنه لا يمكن الاستغناء عن أي شيء، مهما كان خطيراً. فقد كان أجدادنا يستهلكون من كل جزء من الحيوان بعد ذبحه. واقتام صانعي السجق وصانعي أوتار الكمان أمعاء أخربان هو أفضل مثال على ذلك.



حصلت عائلة ستارفاريوس شهرة لامعة لأحدٍ من أهلٍ في صناعة الكمان، غير أنَّ أفرادها لم يقروا مطلقاً بسلع درج الأغنام.

طريقة جديدة تقتل بها الأوتار المستخلصة من أمعاء الأغنام. وقادت هذه التقنية إلى اختراع الكمان الحديث ذي الأوتار الأربع، ومكنت هذه الطريقة أفراد عائلة ستارفاريوس، (Stravarius) وغيرهم من الحرفيين في كريونا من إنتاج آلاتهم الورقية الشهيرة، ومكنت المؤلفين الباروكيين من كتابة ألحانهم.

ولهذا يمكن القول: إن صانعي الأوتار كانوا حرفين ثوريين. قد لا تكون عملية قتل الأمعاء عملية شديدة الصعوبة. ولكن عليك في بداية الأمر الحصول على المواد الخام للتعامل معها. واعتاد صانعو الأوتار هذه الأيام شراء الأمعاء نظيفة ومعدة للاستخدام، أما في العهد الستيوارتي، فقد كان الحرفيون أنفسهم يقومون باستخلاص الأحشاء من الأغنام.

وحين تقول من الأغنام، فإننا نعني من الأغنام لا القطط، رغم أنَّ أوتار الكمان كثيراً ما تسمى بأحشاء القطط، لكننا نعلم تماماً أن صانعي الأوتار لم يتدنو إلى مرتبة قاتلي القطط. وتشير الموسوعة البريطانية إلى أنَّ تعبير (catgut) جاء تعريراً من الكلمة الإيطالية للكمان وهي (kit)؛ ولهذا كانت الأوتار (kitgut) التي حررت فيما بعد إلى (catgut). ولا عجب

أن العبارة قد بقيت مستخدمة للإشارة إلى أوتار الكمان، وبخاصة إذا ما سمعنا لحن عازف مبتدئ وهو يخطئ محاولاً إصدار لحن جميل.

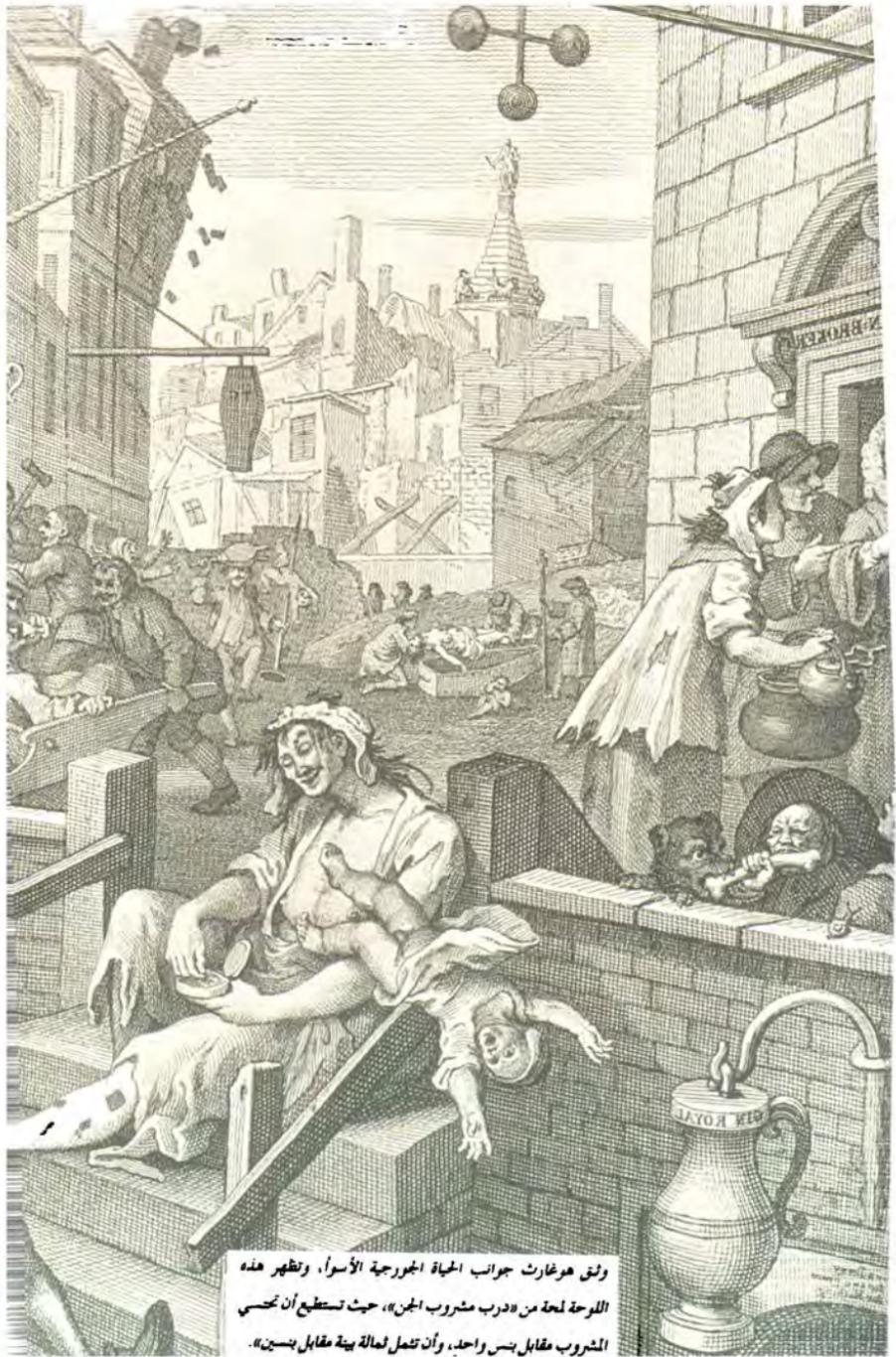
وستخلص الأوتوار من أمعاء الأغنام السفلية، التي قد يبلغ طولها (30) متراً، وقد يقطن صانعو الأوتوار في كثير من الأحيان بالقرب من المسالخ، التي يتم ذبح الخراف فيها، ليتمكنوا من الحصول على موادهم الخام. وقد تُعد عملية الحصول على الأمعاء دون أن تُعرض إلى أذى عملية دقيقة ومقرفة إلى أبعد حد؛ فعليك شق المعدة بلطف كي لا يصل نصل السكين إلى الأمعاء، فسكين مرتعشة قد تؤدي إلى ملء تجويف المعدة باعشاب غير مهضومة تماماً، وتلف الأمعاء المناسب لصنع الأوتوار.

وعدلت عملية تفريغ الأمعاء مما اكتنرته سهلة، إذ عمل صانعو الأوتوار بشكل عام ضمن بجموعات عائلية، ولهذا قد يكون نصيب ابن صانع الأوتوار أو ابنته التمتع بتحضير الأمعاء. ويجب في بداية الأمر، إزالة جميع الأنسجة الدهنية عن الأمعاء - من عضلات وأوعية دموية - بدوياً. وتحت ذلك عملية مقرفة ومضدية، اختُص المساعد بها أيضاً، وكان عليه، من ثم، الضغط على الأمعاء الأنوية لازالة ما بها من فضلات وتنظيفها بشكل كامل.

وتحت العملية يجعل الماء يجري من خلالها، بيد أن الماء وحده لا يكفي للحصول على نظافة تامة. ونستطيع أن ترك الأمعاء مغمورة في نهر، كما هي الحال مع عاطن الكتان، وهو أمر قد يستغرق وقتاً طويلاً.

والبديل الأفضل عن هذا وذلك، هو غمس الأمعاء في محلول يضم رماد الخشب والماء. وقد يستغرق الأمر هنا قرابة الأسبوع، مع تغيير محلول بانتظام. ويجب أن تخضع هذه العملية لرقابة تامة؛ ذلك لأن الأمعاء ستتعفن إذا ما تركت طويلاً إلى درجة لا يمكن معها إصلاحها. وعمجرد الانتهاء من تنظيفها بشكل كامل، تُرسل الأطراف الرفيعة فتقطع إلى ضفائر يتم لفها فوق بعضها ثمناً - تستخدمن غلافاً للسجق، أما الأطراف الرفيعة فتقطع إلى ضفائر يتم لفها فوق بعضها في درجات مختلفة من السماكة، ومن ثم ثبتت الأوتوار على خطافات صغيرة يتم إدارتها لشد الأوتوار. وبعد ذلك ترك الأوتوار ليجف كل واحد منها على حدة.

وفي نهاية المطاف، فإن جل ما تحتاجه هو كمان، وقوس وجمهور ذواق.



وشق هر غارت جوانب الحياة المجرجحة الأسوأ، ونظهر هذه اللوحة لمحنة من «درب مشروب الجن»، حيث تستطيع أن تحسى المشروب مقابل بنس واحد، وأن تتحمل ثمنه بستة مقابل بنسين».

الفصل الخامس

أسوأ المهن في العصر الجورجي

قد يكون لدى جين أوستن وكولين فورث إيجابات وافية في هذا الشأن، فمجرد ذكر العصر الجورجي قد يثير لدى الكثير من الناس مشاهد طبيعية للكياسة المزدادة بالمتزهات الريفية، وأخرى لفنون العمارة النيوكلاسيكية (الكلاسيكية الحديثة)، وربما امتلأت هذه المشاهد الرزينة بجمع من العزاب المرغوب فيهم، الباحثين عن زوجات، وهم يتناولون الشاي مع عذراوات جديرات بالاحترام، يرتدين فساتين تصوّر الموضة الإمبراطورية حينها، ويختفين مشارعهن بكياسة.



غير أن الحقيقة بالطبع كانت مختلفة تماماً، فخلف كل ظاهرة جورجية باهرة باطنٍ خفيٍّ مظلم. فلقد قامت حياة الإقطاعيين الراوحة على ما يمكن اعتباره مثـراً لا قاع له من البوس الإنساني، والنجحت أعداداً لا تُحصى من قاطني الريف المدقعين إلى المدن الصناعية الجديدة، الباحثين عن عمل في المعامل والمصانع، وأصبحت الحياة بالنسبة إليهم أقرب إلى حالة الغوصي، كما وصفها هو غارث في «درب مشروب الجن» منها إلى الحياة في رواية جين أوستن «كبرياء وهوى».

حتى إن الشاي –أكثـر المشروبات براءةً– كان له جانب مشؤوم. وكانت القهوة والشوكولاتة هي المشروبات المفضلة في المقاهي منذ القرن السابع عشر، بيد أن مشروب الشاي الشرقي الغريب، أصبح هو المفضل في تلك الفترة، وعـد الشـاي نوعاً من الرفـاه، ففرضـت عليه ضـرائب استـيراد باهـظة. وحيـثـما تـوـجـدـ رسـومـ استـيرـادـ باهـظـةـ، ثـمـ فـرـصـ للـتهـريـبـ. فـقـدـ تمـ تـهـريـبـ ثـلـاثـةـ أـربـاعـ مـذـهـلـةـ (يعـادـلـ إـحـدـاـهـ ثـمـانـيـةـ وـعـشـرـينـ رـطـلـاـ)ـ منـ مشـرـوبـ الشـايـ خـلـالـ الـقـرنـ الثـامـنـ عـشـرـ إـلـىـ بـرـيطـانـياـ.

وـكـنـتـ فـدـرـةـ الرـسـومـ الـجـمـرـكـيـةـ وـالـضـرـائبـ منـ مـسـاعـيـهاـ الـحـيـثـيـةـ لـلـسـيـطـرـةـ عـلـىـ عـمـلـيـاتـ

التهريب. وقامت السفن بتمشيط المناطق البحرية المحاذية للساحل، الذي يمتد على طوله آخر خط من خطوط الدفاع المالي، ويحوي أسوأ الوظائف في العهد الجورجي. حاول- وانت تسمع قصة الضابط الراكب- الا تكون متحيزاً ضده، ذلك أنه رائد خفر الساحل، والنسوذج الأول جامع الضرائب (The Vat Man).

الضابط الراكب (The Riding Officer)

كان الضابط الراكب مسؤولاً عن تمشيط الساحل بحثاً عن سفين تحوم في المياه المحاذية، أو قوارب صغيرة تحمل مهربات. وأُسْتَ دائرة الضابط الراكيين في الساحل الجنوبي عام 1690 في المنطقة المحاذية لرومني مارش. ومع حلول الفترة الجورجية، انتشر النظام في جميع أرجاء البلد. وأصبح هناك ضابط راكب في كل عشرة أميال على طول الساحل، وتم تقليل المساحة التي يغطيها الضابط الراكب في بعض المناطق التي يتشارف فيها التهريب كتسكيس الشرقة، وحول خليج رو宾 هود في يوركشاير إلى أربعة أميال.

تلقي الضابط الراكيون أربعين جنيهًا إسترلينيًّا في العام، ولا يزيد هذا المبلغ عما يتلقاه العامل سوى القليل، وكان عليهم أن يتتكلموا بنفقات حصانهم من هذا المبلغ، بيد أن هذا

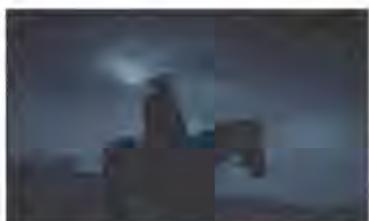
الأمر لم يكن العقبة الوحيدة في مهنة خطيرة وغير مريحة، ويمكن عدّها انتشاراً اجتماعياً.

كانت ساعات العمل وظروفه سيئة جداً، ذلك بأن المهربيين يختارون أسوأ ليالي العام، وبخاصة عندما تومن لهم الغيوم المرافقة

للعواصف غطاء ليقوموا بعملياتهم. ولهذا كان على الضابط الراكب أن يمشط المكان

المخصص له ليلاً، وفي أقصى الظروف الجوية. ولم يكن التحول على امتداد الجروف البحرية،

تحت رداء صوفي مخضب بالمطر مثلاً، قبعته ثلاثية الإبعاد، بأكبر هموم الضابط الراكب،



ولما تبدأ المشكلة عندما يلمح منظراً متذراً بعمل متعلق به.

والصورة النمطية للمهربين هي تلك التي يظهرون بها كصائدِي أسماك متهجين ومعادين للمؤسسة، يجوبون البحار للكسب بضعة شلقات لتحسين دخلهم. وكان هؤلاء بحارة ذوي وجوه متجلدة، وبرفقتهم عشيقاتهم المتردات الخذود، اللواتي يحاولن إخفاء زجاجات مشروب الجن تحت تنانيرهن. وهذه الصورة بعيدة كل البعد عن الحقيقة، فالتهريب خلال القرن الثامن عشر كان جريمة منظمة، وقد يكون على الساحل خمسة شخص مدججين بالسلاح، يحاولون تفريغ كميات ضخمة من الشاي، أو الجن، أو البراندي.

ويقوم الضابط الراكتب بأداء مهمته، وكل ما يحمله هو مسدس وسيف مقوّس؛ وكانتا عديمي القيمة وحدهما، فتحن هنا كمن يرسل شرطاً على دراجة هوائية لايقاد اتحاد كولومبي يتجر بالمخدرات. ورغم أنه يستطيع -نظرياً- الرجوع إلى الحامية المحلية للفرسان لطلب دعم، غير أن كلمة «خلي» قد تعني أنه يبعد أربعين ميلاً. وكانت الطرق ووسائل الاتصال سلبة للغاية بحيث تذرع معها أي إجراء فوري. وفي الحقيقة، كانت الطرق في يورك شاير -على سبيل المثال- سلبة للغاية، حتى إن جموع ما يتلقاه الضابط الراكتب قد لا يمكنه من الوصول إلى مبتغاه. وقد أرسل أحد ضباط الجمارنوك في وابتساير في يناير من العام 1722 رسالة محزنة إلى مركز القيادة يقول فيها: «أرجو منك إن تلقيت مالاً أن تخربني لأرسل لك من يستلمه، فضلاً على بحاجة ماسة إلى المال، فهم لم يتلقوا أي راتب منذ منتصف الصيف». وإذا ما أراد الضابط الفارس أن يستعرض عضالاته ويجاهه جموع المهربين، فهو الخاسر لا محالة. وخير مثال على هذا توماس كارسويل، الذي سقط مقتولاً بالرصاص عام 1740 بعد محاولته اعتقال أعضاءعصابة هو كسيرس ست العيبة، التي كانت نشطة على حدود سبيكس الشرفية وكت. وفي السنة اللاحقة، تم احتجاز ضابطين في ليد (Lydd) على أيدي مهربين كان يفترض أنهاهما يطاردانهم؛ وتم ربط أيديهما وإرسالهما إلى بولون، ومن ثم تم إرجاعهما، وإرتكابهما على فرسيهما، اللذين استخدمهما المهربون، خلال احتجاز الضابطين، في نقل بضائعهم.

تقرير مرفوع إلى لجنة برلمانية حول التهريب عام 1745

صدق قبل تسع سنوات أن قامت مجموعة غوغائية بالتقدم إلى مصر مائة، وخطفت ضابطاً في دائرة الجمارك يدعى ماتي من منزله، ثم قطع أفرادها لسانه وأذنيه، وشوهدت واحدةً منها مثبتة بمسامير على سوق صرف النقود في كورك. ومن ثم قاموا بلف حبل حول عنقه، وجرّوه مختنقين جميع بيوت الكلاب، وقاموا أيضاً بتوجيه عدة لكمات في موقع مختلفة من جسمه قبل أن يرموه في النهر، حيث لقي حتفه. وأعلن عن جوائز كبيرة للكشف عن المتهمين، لكن دون فائدة.

كان الضابط الراكب متبوذاً اجتماعياً على الدوام؛ فحيثما توجه، وجد حاجزاً من الكراهة والصمت الرهيب أمامه.

وقد يكون جميع من يقطن بعض الأماكن كراي وخليل روبن هود يعمل بالتهريب؛ فهو اقتصاد المنطقة. وعلى سبيل المثال، شهد خليج روبن هود واحداً من أعلى الدخل الفردي في البلاد، وللهذا لم يكن ثمة شخص يرغب بوقف هذا النعيم.

وبناءً على ذلك، أصبح من المستحبيل تقديم المتهمين إلى محكمة علية، لأن هيبة المحلفين متلازمة مع المهربيين، أو لأن المحلفين أنفسهم متورطون بأعمال التهريب، وقد يكون قضاة الصلح المحليون مرتشين، ويتلقون مبالغ مالية من المجرمين. يتلقى الضابط الراكبون -نظرياً- عشرين جنيهًا إسترلينيًا لقاء إدانة أي مهرب. ومهما كانت درجة المحتجز، فقد توجب على الضابط الراكب دفع تكلفة الإدانة. ومع انخفاض فرص الإدانة، لم تكن محاولة الإمساك بالمهربين وتقدیمهم للعدالة تستحق عناءها.

وما سبق، يمكن القول: إن الضابط الراكب كان مبتلاً، ومرتبطاً من البرد، وخاسراً في ميزان السلاح، وذا دخل ضئيل، وعدم النفع. ولقد أشار السير ويليم مسغروف مفوض الجمارك في تقريره السنوي العام 1783، أن الضابط الراكبين كانوا «قليلي النفع، ويشكلون عبأً كبيراً على الدخل الحكومي».

وليس مستغرباً العلم أن ممارسة الأعراف البوليسية المباشرة مع المهربيين لم تكن - مع توفر فرص الفساد، وترامي المساحة المطلوبة من الضباط تعطيبها - ذات نفع كبير. وتطلب إيجاد فجوة في هذا الدخل غير القانوني، تخفيض ضرائب الدخل. ومن ثم اخفى التهريب بعيد إلغاء ضرائب الواردات (أو تلك المفروضة على الشاي). وشكلت عام 1822 قوات خفر السواحل التي حلّت محل الضباط الراكيين.

وبني العديد من الضباط الراكيين، نظراً للعداوة الشديدة التي كانوا يلقونها تسوية مفادها «إن لم تستطع أن تغلبهم، فانضم إليهم». فغض النظر عن بعض الأفعال. قد يؤمن لهم بعض المال الذي قد يكون ذافائدة تفوق الملاحقات القضائية عدمة الجدوى، وقد لا يتسم الضابط الراكب، الذي يعد موضوع هذه الشهادة البرلانية، بالحماس الزائد للمحافظة على جزيرة مان خالية من التهريب.

شهادة السيد دانييل جيل
الضابط الراكب في ميناء رامسي، في جزيرة مان تم تسجيلها في دوغلاس
في الثاني عشر من أكتوبر عام 1791.

تقول هذه الشهادة إن الضابط الراكب في ميناء رامسي، يقوم بهذا العمل منذ 1773. وعين وفقاً لدستور الخزينة الذي سُنَ ذلك العام، وتم ترحيله من مفوضة الجمارك. وقام باداء اليمين، وأعطي مقابلة التزاماً وتعهداً بالحمامة، وتلقى عند ترحيله تعليمات مطبوعة تحكم سلوكه. وتلقى لقاء عمله أربعين جنيهاً إسترلينياً، ولم يكن يتلقى رسوماً أو إكراميات، وكان لديه حصان على الدوام.
ولمتد المساحة التي عليه أن يراقبها من رامسي إلى لاكتسي وهي تسعة أميال؛ ومن رامسي إلى كيرك مايكيل التي تبعد ثمانية أميال. وفي العادة يقوم

بجولات نهارية بين هذه المواقع قد تبلغ ست مرات أو سبعاً في الشهر، ليرى فيما إذا كانت هناك بضائع مستوردة أو مصدرة وفقاً للقانون، أو أخرى مهربة.

ويحاول الحصول على معلومات حول أية ممارسات غير قانونية، وقد يقوم بمصادرة البضائع عندما يجد لذلك سبيلاً. وكما يظهر في يومياته، لم يتم بأية عملية مصادرة منذ الأول من يناير عام 1789، ولا يستطيع أن يتذكر آخر مرة قام بها بمصادرة بضائع غير شرعية. كما أنه لا يتذكر قيامه بتمرير أية معلومات لقادة البحرية أو دوريات الضرائب حول وجود مراكب تحوم حول الشاطئ أو راسية على الشاطئ، أو أية معلومات أخرى ذات علاقة بإجراءات غير قانونية، ولم يتم منذ الأول من يناير عام 1789، أن زود ضباط الضرائب في جزيرة ما معلومات من هذا القبيل، ولا يستطيع، حالياً، أن يتذكر أي حادثة كان قد مرر فيها معلومات بهذه.

وبعد البراندي والجن، كما يعتقد، المواد الرئيسية في عمليات التهريب التي تحدث.

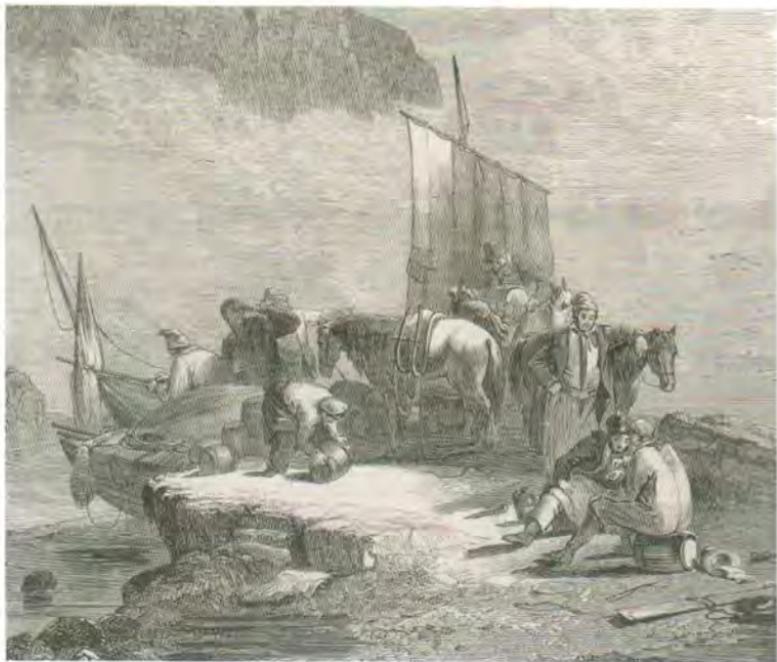
دانييل جيل

مرشد باث (Bath Guide)

من الممكن أن يكون الضابط الراكب قد ابتلَ بالماء حتى الصميم، وهو يسعى إلى الإمساك بالمرحمين، ييد أن عمله لم يكن الأكثر بلالاً في بريطانيا الجورجية، وإنما ذهب ذلك الشرف الرفيع إلى مرشدي مدينة باث.

وكان هؤلاء خليطاً غريباً من منقذى الحياة، ومقدمي الرعاية الطبية في مستشفى خاص بالعناية بالأمراض الجلدية المقرفة، غير أن هؤلاء كانوا أسنان الدولاب الرئيسة الذي لا يدور إلا بهما، وقاموا على إحياء إحدى أهم المظاهر الاجتماعية والترفيةية في بريطانيا الجورجية: متجمع باث للمياه العذبة.

ويتدفق يومياً، من تجاويف الأرض أسفل باث، ما يقارب مليون لتر من الماء، الذي



لا يخلو هؤلاء المهررون الرياحيون الروح الفاسدة التي كان أفراد عصابة هركورست يحملون بها. لكنهم لا يكررون لوجود العابط الراكب إذا غطتهم العذاب الكثيف.

تبلغ حرارته ستًا وأربعين درجة مئوية. وكانت الينابيع مكاناً مقدسًا للبريطانيين القدماء قبل أن يصل الرومان إلى المنطقة بفترة طويلة، وقيامهم بتكريس المنطقة للإله سوليس منيرفا .(Sulis Minerva)

ولقد بقيت هذه الينابيع قيد الاستخدام لخاصتها المسكنة والعلاجية خلال الفترات الوسطى والتiodورية، ولم تحول هذه الينابيع إلى ثروات حقيقة إلا تحت رعاية الملكة آن، التي كانت تتردد عليها بكثرة، وبدأت ولها امتد إلى غيرها من الناس بنهل كهيبات من الماء منها. وعلى الرغم من أن عدد سكان باث، عام 1698، قد بلغ ألفاً ومتى شخص فقط، فإنها أصبحت خلال العهد الجورجي واحدة من متجمعات إنجلترا الرئيسة، وصارت تعج

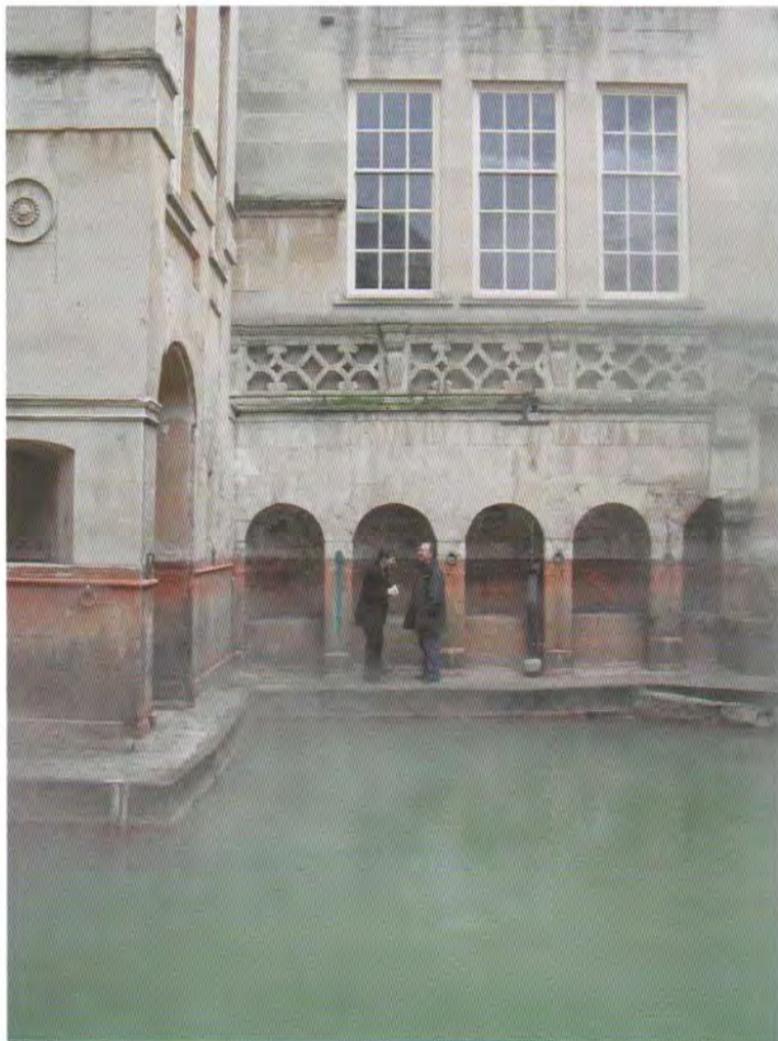
بالأعمال الطائفة والسلبية. وزاد عدد سكان المدينة مع انتهاء القرن، على أربعة وثلاثين ألف شخص. وقام بعض المعماريين كجون وود، وجون بالمر بالإشراف على بناء مدينة بالادين الجميلة، التي ما زالت قائمة دون أن يمسها أي ضرر. ولقد حوتت أماكن كميدان الملكة، والسيرك، ومبني البلدية ومبني لانسادون كريستن، والبني الملكي، مدينة باث إلى المدينة الأنوذج لمدن القرن الثامن عشر.

وغدت الرحلة إلى باث بالنسبة للجورجيين كرحلات التزلج إلى كشتات (Gstaad) هذه الأيام، فهي المكان الملائم للأذكياء كي يقضوا إجازة بين أفرانهم؛ فلي جانب كونها مكاناً مفيداً للصحة، أصبحت باث المكان الأمثل للعلاقات الاجتماعية وتبادل الحديث، بل هي المكان المناسب لبث مكونات النفس. ولقد عرضت منشورة تدعى «مفاطن باث» وتعود إلى عام 1798 مشاهد لا يمكن عندها غريرة في برنامج «اكتشاف إيزرا».

ونلقى على عاتق مرشدى باث السياحين مهمة تسير الأمور هناك، فهو لا يه كأنوا مسؤولين عن مساعدة الناس منذ نزولهم من كراسיהם المحمولة حتى نزولهم في مياه حمام الملك.

وكان هذا العمل مصدرأ للبلل. وكان المرشدون يرتدون أرواباً كثانية تبتل في بداية كل مناوبة، وتبقي هكذا إلى حين عودتهم إلى البيت. وبمضي المرشدون ما يقرب من الثنتي عشرة ساعة والأرواب الكثانية تختلط بأجسامهم كلما انتقلوا بين المياه الخدمية زبائنهم، ولم يتعاطف الشاعر كوبر مع مصاهمهم المخضل بالماء، فقد كتب في رسالة إلى أخيه «إن أسوأ منظر - حسب ما أعتقد - يمكن رؤيته هناك هو منظر المرشدين في باث؛ فقد كانوا مبللين ومعرضين كذلك لحرارة لا تطاق».

وكان للماء دوراً دائم في جعل حياتهم أكثر يوماً، كما لو أن كل جانب آخر كان مقبولاً ومحتملاً. ويأتي دور الماء حاسماً في تغيير لون جلودهم بشكل نهائي، وذلك لأن المياه الساخنة التي كانت تتبع الفقاعات في البنايات غنية بالحديد. ولهذا دور في تحويل ألوان الجدران إلى اللون البرتقالي على مر السنين. كما صبغت المياه المرشدين بشكل جعلهم كمن قام بتسمير بشرته مقابل مال زهيد. وما زال حمام الملك هذه الأيام يحافظ بأثر صبغة الحديد في الماء، وبظهر مستوى الماء في العصر الجورجي بعلامة المد التي قد تصل إلى منتصف الجدران. وقد



تظهر صورة حمام الملك آرثر السخام الناجع عن وجود الحديد في الماء. ويظهر مستوى الماء خلال الفترة المجروجية بمذكرة ارتفاع منسوب الماء إلى منتصف المجردان. تحويل نفسك وقد تغير لونك وغداً باللون الحديد، كم سيطلبك داليد ديكبسون على هذا!

وصف كاتب يدعى نيد وارد «مجموعة أو اثنين من المرشدين الذين قد تظنهما بحثتهم المعابة بمرض الإسقريوط، وجلودهم المصبوغة». قد انقضى عليهم سنة ضئيلة وهم يختهرون في بحيرة جهنمية». كل هذا، وهو قد بلغوا من العمر مرحلة يتم فيها مدح الجلد الأبيض النقي كمثال للجمال.

كما كان عليهم تحمل مراتب الربان التالية. وكان معظم مستخدمي الحمامات يمتهنون بالليةة الجسدية وحسن السلوك، وكان على المرشدين – كما هي الحال في برك السباحة العامة هذه الأيام – المحرص على حسن تطبيق التعليمات، كعدم القفز المباشر في الماء، وعدم اصطحاب الحيوانات.

حول سيدة ذاهبة إلى باث

عندما كشفت سيلفيا عن مفاتنها في الحمام،
كانت المأدبة العظيمة ترافق أمام أنها،
وكان قلبي ينفطر متعدلاً عن روحي
ويقفر من ضلوعي في الإناء
وكت كل يوم أدفع
رشوة لمرشدتها السياحية
وأعطيها كروناً (ما يعادل خمسة شلنات)
لتحضري الماء الذي جلست فيه
وأذع الأطباء المجانين يعتقدون أن مياه التصريف علاج
قد تكون هذه الفكرة مشكوكاً فيها، يهد أنها مع سلبياً مؤكدة
والموسيقيون الذين استأجرتهم لعزف مقاطعات رفيعة
وتتسابق دقات قلبي مع الوقت في انتظارها
يتوجهون عند دخولها ويرجتون عند مغادرتها
فالكل يعرف تمام المعرفة لمن توجه هذه الموسيقى.
أهنتني لو كنت إحدى الهؤام
او كنت أحد حاملتي كرسبيها المتقل

أو أن أخدمها كأحد المرشدين
رغم أن جلودهم سراء شنيعة
أو أن تكون كحصاة ملقة في الفعر
سمها مجيد جمالها، وكم سأكون سعيداً حينها.

توماس ديرفي، الفراس تطهير الحزن، 1719

وتشير لنا قصيدة (ديرفي) المتنية، والغنية بالطبق، أن الحمام المختلط كان ممتعاً كالعبث على الساحل هذه الأيام (تم اختيار هذه القصيدة وغيرها من الاقتباسات حول هذه الوظيفة من كتاب بول كريسوبل «بات في اقباساتها - منظور أدبي منذ العصر السك索尼 وما تلاه»). كان مرشدو باش معينين من قبل السلطات المحلية، لكنهم كانوا يعتمدون كثيراً على البقشيش، وبلغت أجرة «الاستحمام العام» عام 1784 ثلاثة شلنات، ذهب نصفها إلى الري والمنشفة، وشلن واحد للمرشد، وستة بنسات للأغراض الأخرى.

وقد يكون أسوأ جانب في العمل هو التعامل مع مصابي العمر المريعة. فالرجال الذين كانوا بحاجة إلى عناية فائقة هم أولئك الذين قدمو اللتحفيف من حدة أمراضهم أو جراحهم المتقرحة. وساد اعتقاد لدى الناس، بأن هذه المياه قادرة على شفاء مرض سل الغدد الملفاوية، ومشاكل الجلد، وجميع حالات التلف الناتجة عن الأمراض الجنسية المعدية. ويفصل نيد وارد في الاقتباس التالي: «زانِ كبير في السن معلق بحلقات، وقد امتلاء ببرطوبة عفنة، وإلى جانبه سيدة عامرة الصدر، وأخرى مقطادة حتى نصفها بقمash مغموم بالشماع، وكان لديها من التقرحات ما يفوق تلك التي كانت لدى لعازر، تحاول أن توب عن خطاياها اترفها في شبابها».

ولا يسمح للمرشدين بعد قضاء يومهم بأكمله في هذا الخليط المشبع ببخار الجلد الميت، والجلب، والبول، ومساحيق التجميل، والأدوية، بالذهاب إلى البيت بعد مغادرة آخر مستحمام المكان، بل كان عليهم البقاء لتنظيف البركة مما حل بها من ثفاليات.

مخاوف الاستحمام

انتهيت من الاستحمام؛ ولهذا يمكن القول إن نصيحتك قد جاءت متأخرة جداً. ذهبت إلى حمام الملك قبل يومين، وفقاً لنصيحة صديق لي يدعى «ك»، وذلك لتنظيف الجلد وجعله يتنفس بسهولة. وكان أول منظر شاهدته لطفل مليء بقرحات سل اللهمقاوية يحمله أحد المرشدين أمام المستحبين تماماً. صدمت عندرؤتي هذا المشهد، فاندفعت إلى الخلف ممتلاً بالحق والقرز. افترض أن المواد المسماة لهذه القرحات علقت بالماء ولاست جلدي، وقد انفرجت المسماات عما تضم. وحينها سألك من أين ستكون العافية؟ يا الله، إن الفكرة نفسها تجعل دمي يتحمّل في عروقي.

ولكنني الآن أخشى الحمام بمقدار ما أخشى شرب الماء، وبعد حديث مطوي مع الطبيب حول بناء المضخة والحزان، أدركت أنها أبعد ما تكون عن النظافة، وأن المرضي في غرفة المضخة لا بد أن يتلعلوا أوسع المستحبين. لا أستطيع أن أتخلى عن شعوركي بأن هناك بعض القيء، وما شابهه من الأوساخ التي انتقلت من الحمام إلى الحزان. وإن كانت الحالة هي تلك، فيما له من مشروب طريف، ذلك الذي يتجزعه الشاربون وقد ثبت تخليه بالعرق والوسم والقشرة، وغيرها من الإفرازات المقرزة، بمحظوظ صنوفها من الأجسام المعتلة الأربعية والعشرين التي تسلق في الغلابة في الأسفل.

توبوا سوليت، بطة هنري كلينكر، 177.

ولكن رغم أن مرشدتي باتت قد شغلوا أكثر الأعمال مجلبة للبلل في بريطانيا الجورجية، فإن وظائفهم كانت دائمة، فهولاء كانوا عملاً محترفين، ومتخصصين فيما يقومون به، ويستطيعون أن يفتخروا بذلك، فلم يكن هناك من حرج من المحافظة على استمرار صناعة الراحة هذه، ييد أنها لا يمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الوظيفة التي صنعت سمعة بريطانيا الفنية.

عارض الفنان (Artist's Model)

شكلت الفترة الجيورجية العصر الذهبي لفن الرسم البريطاني، فهي الفترة التي تم خلالها - ولأول مرة - إنتاج موهب فنية محلية يمكننا مقارنة أصحابها بالفنانين في القارة. فأسماء كجوشوا رونولد، وجانزبورو، وهوغارث، ورامسي، وبلاك، وتيرنر، وكونستابل؛ كانت جميعها ناج القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر.

ولكن، قبل إطلاق العنان لهؤلاء الفنانين لتصوير العالم، كانوا يخضعون للتدريب، ولقد نظر الجميع إلى الفن الإغريقي الكلاسيكي القديم كأسى أشكال التعبير الفني، ولهذا تلقى الفنانون دروساً في محاولة الإمساك بزمام غموضهم عبر فنون الرسم والتصوير الزيتني. وتطلب هذا العمل ساعات طويلة وصعبة من التركيز عليه، ييد أن هذا العمل تطلب أيضاً شكلاً بشرياً



يظهر في هذه الصورة جورج وايت، أحد الماهرين من مشتى الحمى وذو اللحمة العجزة. انتهى المطاف بعض أفراد الطفة الدنيا بتحليفهم في صور الفن الرفيع.



إنحدري رواج الفن الجيورجي: اللوحة التي رسمها غانسورو للسيد والسيدة آندروز. تصور اللوحة ببراعة ناتمة تجمع بعض الفروع المرتبطة بالعواصف، مما يعكس الزواج بين شخصين غير منسجمين. فكت غانسورو الرفع الاقتصادي المر الذي دفعه إلى رسم اللوحات الشخصية، وهو الذي كان يرغب في رسم المناظر الطبيعية كما فعل كلود وبوسون، أو رسم الواقع الكلاسيكية الثالثة الرائقة المستدلة إلى عارضي الفنانين. ولم يتمكن غانسورو من تجاوز الحالين الذين يفقدون الحادبية وحسب، وإنما تمكّن من التسلل على منظر طبيعي مليء باشعة الشمس في الخلفية.

التركيز عليه. ومن هنا نشأت وظيفة الموديل أو عارض الفنان الباردة والمهكرة للأعصاب. وقد يبدو هذا العمل سهلاً، فجل ما هو مطلوب منه الآتفكر، أو تقوم بعمل مضى، أو تأتي باقل حركة. ولكن علينا أن نفكّر بمتطلبات ذلك العمل، فالقيام به لا يعني على الإطلاق أن تخلع ملابسك، وتحلّس على كرسي وحسب، وإنما كان يتوجب عليك أن تأخذ وضعًا كلاسيكيًّا مناسبًا، وأن تثبت عليه لفترة. ولمساعدة العارضين على الثبات على وضع محدد، يتم تقييدهم بحبال تتدلى من السقف لربط أيديهم - وفي بعض الأحيان أقدامهم - في الوضعية البطولية المطلوبة، التي يرغب الصف في رسماها. وقد يكون بقاوئك مقيداً على هذه الشاكلة لبعض دقائق متحتملاً، ولكن أن تبقى مقيداً ساعة تلو أخرى، وأن يطال الخدر أعضاءك وأصابعك، وأن تصرخ خلالها العضلات طلباً للراحة، فهو أمر مؤلم بحق. وقد يشعر بذلك

الوضع بالبرد الشديد أيضاً، إن ردة فعل الإنسان الطبيعية للبرد هي ضم الذراعين قرباً من الصدر، ولم تكن هذه ماتحة لك بوصفك عارضاً للفنان عندما تأخذ وضعية رامي الفرس، وينطبق الكلام كذلك على حاجات الإنسان الطبيعية....

وقد يكون دافع هؤلاء للقيام بهذا العمل ظروفهم الباشة؛ فمعظم المرشحين لم يلمسوا العمل يتم إيجادهم في أماكن غامضة، ومنهم جورج وايت، العارض المشهور المعجوز، الذي اكتشفه رينولدز في مستشفى الحمى، وكان هذا العجوز يتمتع ببنية جسمانية عضلية فريدة، نتيجة عمله اليومي في مد ألواح الرصف، ولحمة كثيرة غيرت، مما جعله مناسباً لتصوير البطيريات والقديسين، وانضم إلى قائمة العاملين في هذه الوظيفة، أفراد القوات المسلحة والملائكة بيدن عاريتين، وكان لهم تقديرٌ واحترامٌ بين الرسامين، لأن أجسادهم الممتلة بالعضلات كانت تلائم المثال الكلاسيكي الذي يفضلونه، وقد مدح الفنان بنجامين روبرت هايدون عارضة الجندي هادجسون بقوله: «إنه ملائمة تماماً لدور أخيه».

وإذا كان اختيار حالة القوم من مستشفيات الحمى، ومقاتلي الشوارع للقيام بأفضل تمثيل للأبطال الإغريق، مستغرباً، فعليك إذا تلقى الشفرة الواسعة بين المعبودات اليونانيات والنساء اللواتي قادتهن ملامعن الطبيعة للوحات لاتسى.

عُذُّ القيام بدور عارضة لفنان عملاً مخزيًا جداً، فقيام المرأة باتخاذ وضعية قد يطلبها الفنان منها وهي عارية تماماً أمام جمهور ذكور يخالص عُذُّ كالظهور في فيلم إباحي هذه الأيام، وبهذا العمل لم تكن المرأة تقوم بفعل مقرزٍ فحسب، وإنما يتم توثيق قيمتها بهذه العمل، وليس من المستغرب إذاً أن نعلم أن معظم العارضات كن عاهرات، وهؤلاء أيضاً وجدن العمل بغيضاً.

ويذكر جيمس نوركوت في مذكراته عام 1830 أنه دعا إحدى عارضات رينولدز «بالمولوس المنهانة»، ومضى بقوله إن العارضات «ينظرن إلى هذا العمل كعار أضيف إلى ما متاجنهن وظيفهن الأصلية من عار، وأنه عمل غير طبيعي حتى لو كانت الواحدة منهن ترتدي قناعاً».

وما لاشك فيه أن معظم الطلاب الجادين المتكفين على عملهم قد لا يرون في عارضيهم سوى ترتيبٍ مثيرٍ من الأضلاع والعضلات، يهدأنا لا نستطيع أن ننكر توافر السمعة الرديئة عن بعض الصنوف التي تحضرها العارضات، فقد سجلت العديد من الحوادث التي تم خلالها تسلل أشخاص غير مرخصين لمشاهدة العارضات، وكان من هؤلاء طلاب غير بالغين؛ حتى



توري يقلم نفسه لطلاب الفنون ثمودجا للرسم كما
وهل هناك مجال آخر غير الفن يستطيع فيه مقدمنا
أن يصرى كمودج للرسم أمام شباب، دون الخروج
احتياطه؟

إن أمير ويلز كان يدفع رسمًا لدخول بعض الصنوف الحقيقة في الأكاديمية الملكية، عندما يشعر برغبة في مشاهدة امرأة عارية.

وتجلّى عار هؤلاء النساء في معدل ما يتلقّى من أجور. فالعارض في الأكاديمية الملكية يتلقّى خمسة ثلثات أسبوعيًّا، وشلنًا واحدًا مقابل كل عرض يقدمه، بينما تتلقّى النساء نصف جنيه لكل عرض (وهذا التفاوت في الأجر يماثل التفاوت في الأجر الموجود في صناعة الأفلام الإباحية، إذ يتلقّى الرجال أجراً يفوق أجراً النساء).

وما يشقى صدور هؤلاء العارضين أن ساعات العمل في الأكاديميات الكبرى كالاكاديمية الملكية منظمة ومحددة؛ فالصنوف تبدأ عند الساعة السادسة مساءً في الشتاء وعند الساعة الرابعة في الصيف، وتستغرق كل جلسة عرض ساعتين. ولا ينتهي دور العارضين عند بلوغ الطلاب المران المطلوب، بل قد يطلب منهم أداء مهام خاصة يطلبها الفنان، وتتطلب هذه المهامات جهداً أكبر، ففي سعي الفنان للحصول على دراسة منفردة، قد يطلب ذلك الفنان من العارض أن يثبت في وضعية محددة لفترة أطول—قد تكون بضع ساعات.

وقد سجلت حالات عديدةٌ من الإساءات المتمدنة والعرضية، كان منها حالة العارض الأسود ويلسون، الذي كاد يلقى حتفه عندما قرر هادن أن يصنع له قالباً جبصياً دون أن يترك

له منفذًا يتنفس من خلاله. وحصل النحات نولكينز على أكثر مما أتفق عليه، عندما وظف عاهرة من ماخور تدبره سيدة قاسية تدعى السيدة لوب. وكان قد استخدم إحدى العاملات لديها تدعى بولمانو لاتخاذ وضعية خاصة لينحتها. قامت السيدة لوب بمجرد وقوفها على عتبة بيته، بتوجيهه لاجباره الفتاة على اتخاذ وضعية خاصة مدة ثمانى ساعات دون طعام أو شراب مقابل شكين فقط. وتحت وطأة هجوم المرأة اللاذع، دفع نولكينز خمسة شلالات إضافية.

لم يكن الفنانون هم الوحدين المهتمين بالنظر إلى الأجساد فقد شهدت نهاية القرن الثامن عشر إنجازات علمية غير مسبوقة على جميع الصعد. وأصبح الفحص الدقيق والتجارب غط حياة يومياً. فإذا ما أردنا للعلوم للطبية أن تقدم، علينا دراسة جسم الإنسان من الداخل والخارج. وكان هذا يعني وجود شخص يقوم بعد هؤلاء الدارسين بمعين لا ينضب من الجثث.

رجل البعث/نايش القبور (The Resurrection Man)

«أبي»، قال جيري الصغير، بينما كانوا يحضون قياماً حريصين على الا تزداد المسافة

بينهم عن النرايع، وعلى اتزان الكرسي بينهم، «ما المقصود بـرجل البعث؟»

توقف السيد كرنشر على الرصيف قبل أن يجيب بقوله: «كيف لي أن أعرف؟»

«كنت أظن أنك تعرف كل شيء»، يا أبي، قال الولد الجاهل.

«حسناً» قال السيد كرنشر، معاوداً المحاولة، دافعاً قبعته إلى الخلف، ليطلق العنان لأفكاره، «رجل البعث تاجر».

«عم بناجر، يا أبي؟» سأل جيري الصغير المفعم بالحيوية.

«بصاعته نوع من المواد العلمية» قال الأب بعد أن قلب الأمر في رأسه.

«جئت أشخاص، ليس كذلك يا أبي؟» سأل الولد الرشيق آباء.

«أعتقد أنه نوع من هذا القبيل»، قال السيد كرنشر.

«آه يا أبي كم أود أن أصبح مثل بعثة عندما أكبر».

شارلو ديكنز، قصة مدربين



الطباطبائي المليونية من وليم بيرك، ناشر القبور: جلد بهد دفاع عنه ومحربه
إلى مفكرة جمب.

ألا هي رجل القيامة، أو— كما يسمى هذه الأ أيام— مختطف الجثث.

وفي الحقيقة، كانت الجثث الوحيدة التي يمكن إخضاعها للتشريح هي جثث المجرمين المعدمين. فقد قاد الاعتقاد المسيحي الشائع ببعث الأجسام، الناس إلى أن يهابوا التشريح بعد الموت؛ فقد كانوا يعتقدون أنك لن تتمكن من النهوش كاملاً يوم القيمة، ما لم تكن هيئتك سوية في قبرك (وهذا هو السبب الكامن في عذ العقوبات القديمة كالاشنق، والملع^(١)، والتقطيع سيئة للغاية، فهي لا تنهي الحياة فحسب، وإنما تقضي على فرصك في الوصول إلى الجنة كاملاً دون نقص). وفي هذا السياق، نص قانون يعود إلى عام 1752، بوضوح، على أن التشريح الذي تقوم به شركة الجراحين ينبغي أن يكون جزءاً من عقوبة القتل في لندن. ومع نهاية القرن الثامن عشر، تزايد الطلب على المزيد من الجثث، فقد بلغ عدد طلاب الطب في

أحرزت الجراحة بعض التقدم منذ أيام الجراح الحلاق، لكنها بقيت متذكرة عما كان متذكرة. وليس من قبيل الصدفة، أن يطلق على الجراحين المستشارين في المستشفيات هذه الأيام كلمة (Mr.) وتعني (السيد) بدلاً من كلمة (Dr.) وتعني الدكتور. وبعد هذا الفرق في التسمية من بقايا الزمن الذي كان فيه الأطباء وحدهم من يتلقى تدريساً لاتفاق، بينما كان أولئك الذين يحتلون مرتب أدنى منهم مطبيين. وتلقى التقدم المعرفي الجراحي بعض المعوقات الناجمة عن عدم توافر الجثث الحديثة ليتم تشييعها، وهذا قاد إلى انتشار وظيفة لاقت رواجاً في السوق السوداء في خفايا الحياة الجورجية

(١) ملع الشاة: سلخها من قبل عنقها.

لندن عام 1793 متنى طالب، وارتفاع عدد هم عام 1823 إلى ألف طالب، كان كل طالب منهم في حاجة إلى جثة ليعمل عليها.

وكان رجال البعث في الحقيقة مجرمين، وعرفوا «بالملكيسين»، وذلك لأنهم كانوا يغرون على مقابر الكنائس، ويقومون بوضع الجثث في أكياس قبل بيعها للأطباء، ولا يوجه أي سؤال لأي طرف في هذا الشأن. ولكن أشارت مفكرة تسبّب إلى جوشوا نابلز (Joshua Naples)؛ أحد أفراد عصابة البعث المسماة كرواج (Crouch) إلى حجم هذه التجارة:

الأحد - الخامس من يناير 1812

مكثت في البيت طوال اليوم، وتقابلنا عند الساعة الخامسة، حيث ذهبت العصابة بأكملها إلى نيوزين، وحصلت على ثلات جثث، قمت أنا وجاك بتوصيلها إلى ويلسون، وأقصد جيمس ويلسون من كلية التشريح العظيمة الواقعة على شارع وينديميل، ومن ثم عدت للبيت، وتقابلنا عند الساعة الثانية عشرة، فحصلتنا على خمس جثث لبالغين وجيدين صغيرتين في هاريس، وقد يكون المقصود به هنا هاريير، وهو حارس مقبرة. وذهبنا بعد ذلك إلى بيج غارتس - وقد تكون هذه إحدى بوابات مقابر لندن - حيث حصلنا على ثلات جثث لبالغين، تركت دان في البيت، وانطلقت ومعي الجثث كلها إلى بارثوم - مستشفى القديس بارثولوميو (St. Bartholomew's).

ويتطلب هذا العمل الحصول على الجثث حديثة الوفاة؛ وفي العادة يستمد صاندو الجثث معلوماتهم من حفاري القبور. ييد أن العمل لم يكن سهلاً على الإطلاق؛ فقد يقوم أصدقائه تتوفى بحراسة القبر أربعة أيام أو خمسة حتى تتعفن الجثث، وتم تشكيل «نادي القبور» منع بشها في المستقبل، وأحيطت الأكفان بأقراص معدنية مقلدة. وفي ليدز، حيث كانت سرقة القبور مشكلة باللغة التعقيد، أخذ الناس يدفون موتاهم على عمق النبي عشر قدماً، وأضعين قضباناً حديدية في الأرض على مسافات متباينة فوق العرش.

وينقلنا هذا للحديث عن بيرك وهار (Burke and Hare). لم يكن هذان من رجال البعث،

حضر «جاكوبوس بارنارد» في ذلك الوقت، حيث أخذت بيع الحشيش
بعد أنهما لم يربدا أن يتوجهما مصاعب نبش القبور لاستخراج الجثث، وإنما فاتا الوسطاء
السابقين بقتلهم ضحاياهما بنفسهما؛ فقتللا ستة عشر شخصاً في أدnierه أوآخر العشرينات
من القرن التاسع عشر لبيعها لعلم التشريح المسمى الدكتور نوكس. وقد تم إعدام بيرك جرائم
عام 1829، واستخدمت جثته للتبرير، بل إن جزءاً من جلده دبغ وصنعت منه محفظة، مازالت
محفوظة في المتحف الملكي في إدنبره. أما هار فقد تمكّن من الهروب من الإعدام، لكن هناك
إشاعات تفيد أنه قد أصبح أعمى عندما قامت عصابة برميه في حفرة جير. وأصبح بعد
ذلك متسلولاً في لندن. ويقال إن حانة الشحاذ الأعمى (Blind Beggar) في وايت تشابل قد
سميت على اسمه.

وكان هي الحال في التهريب، تم تغيير القانون بشكل قاضٍ بموجبه على هذه التجارة غير
القانونية. فقد سمح قانون التشريع الصادر عام 1832 باستخدام جثث الفقراء من بيوت الإعالة
لتدريس التشريح. وليس مستغرباً، مع إدراكنا الحالة التي آلت إليها بيوت الإعالة في العصر
الفكتوري، أن نعلم أن تلك البيوت كانت قادرة على رفد الجراحين بما يحتاجونه من جثث.

المعزل/ الزاهد (Hermit):

قد لا تكون هناك أمثلة أوضاع على أناس لديهم من المال يفوق ما لديهم من الإحساس
والذوق، أكثر من أولئك الناس الراغبين في توظيف مرشحين للقيام بالمهمة السيئة التالي
ذكرها.

كان هذا عصر التحوال العظيم، فقد أكمل الشباب تعليمهم عبر القيام بالترحال في أوروبا
للاطلاع على مختلف جوانب الثقافة. وعاد هؤلاء إلى أوطانهم محملين بالمثل الكلاسيكية،
وكانوا ي يريدون أن تبدو منازلهم وحدائقهم كلوجة لبوسين (Poussin)، فقاموا ببناء منازل
نيوكلاسيكية على شاكلة المعابد الرومانية، ووظفوا بعض المختصين في بستنة المناظر
الطبيعية ككابيلتي بروان (Capability Brown)، معينين تشكيل الريف، ليصبح نسخة فنية
كلاسيكية.

فيما يلي يراون على رأس هرم المختصين في المناظر الطبيعية، ويقع الفقراء المتعثرون

أسفله، وهم الذين اتفق معهم ليصبحوا زهاداً محترفين. لأنك إذا ما أردت صنع نسختك الخاصة من الأركاديا، فكل ما تحتاجه لاكمال هذه الصورة زاهد حكيم ذو رأي صائب قابع في قلب حديقتك الغناء، يتأمل فيها قصر الحياة، وعدم نفع التروات الطائلة.



وتمكن المشكلة في أن النساك كانوا عاملة نادرة خلال القرن الثامن عشر؛ ولن تستطيع تعين ناسك حقيقي براتب ضئيل. ولهذا قام ملاك الأراضي التواقون للوصول إلى أسمى إشكال الإضافات النبو-كلاسيكية بتوظيف غربي الأطوار، والمعاقين عقلانياً، والشعراء، أو البائسين مالياً للقيام بهذا العمل. واستمرت



طالب بعض أرباب العمل من زمامهم ولفته تأملية الفترة طوبية عندما كانوا يزورونهم.

هذه الموضة منه عام بدأت سنة 1740، وكان ثمة أحد النساك في متزهء هو كستون قرب شروبيري حتى عام 1830، عندما طالبت الجموع السير ريتشارد هيل بتحرير ناسكه من عقد، واستخدام دمية عوضاً منه.

وقد يجد البعض لبعضنا مستهجنًا، أن يقوم الأغنياء بتشغيل كبار السن ليقوموا بالتجول في جميع أطراف عقاره ليذكر - عند روئتهم - وجه الحياة الآخر. ولكن حتى في ذلك الوقت، كان هناك من استهجن هذه الفكرة، وقد صرخ رئيس الوزراء هوارس والبول، في هذه الصدد قائلاً: «من المضحك جداً أن يخصص الشخص جزءاً من حديقته ليكون حزيناً فيها».

إن الرغبة الغريبة في وجود عفريت حديقة هي يتفس، قد تواجه مشكلة طبيعية. فالوظيفة قد تقود من يشغلها إلى الجنون. فعلى سبيل المثال، تعرض ستيفن دك؛ الزاهد الملكي في حدائق ريتشارند (وهي الآن جزء من كيو) إلى ضغوطات كبيرة أوصلته إلى حد الاتجار. ووقع ملاك الأرضي، في سعيهم لتجنب رفض موظفهم الاستمرار في العمل، عقوداً معهم، ألمزموهم خلالها بقضاء فترة محددة قبل أن يتلقوا أجورهم ويستبدلوا بآخرين. وقام



ليس زاهداً كما يبغي، لكنه الشاعر الذي علم نفسه، ستيفن دك (Stephen Duck) ولد كان جزءاً من المفرقة التي تناولت بتصوير الحياة الريفية بشكل لفاظي المدينة. وقام دك بعد أن هجأه جونلاند سويفت، بكل عبارات المديح في حق حياة ضارب الخطة (وهذا يفسر وجود دراسة الفصح بهذه اليسرى في الصورة). وعامل الترجمة بحق لا يجد منتهكاً على الإطلاق

السير تشارلز هاميلتون؛ أحد ملاك الأراضي في بانزهيل في ساري، بتوضيح مهام زاهده:

عليه الاستمرار في الصومعة لسبع سنوات، حيث يتم تزويدك بالكتاب المقدس، ونظارات بصرية، وحصيرة لقدميه، ووسادة، وساعة زجاجية ليعرف من خلالها الوقت، والماء والطعام. وعليه أن يرتدي رداء من شعر الجمل، وألا يقص شعر رأسه، أو لحيته أو أظافره تحت أي ظرف كان. كما عليه ألا يخرج من أراضي السيد هاميلتون، أو أن يتبادل مع الخدم.

ويبدو أن هذه الشروط لا تكفي، فقد كان على الزاهد أن يواصل حياته حتى في غياب مالك الأرض، دون أن يتلقى أجراً بالغ سبعون جنيه إسترليني، إلا بعد انقضاء الفترة الزمنية المتفق عليها، وعقب التزامه بجميع القواعد خلالها. وإذا اعتقدت أن الضابط الراكب كان يجني أربعين جنيهًا في العام لقاء قيامه بواجبه في جميع الأوقات وضمن كل الظروف، فإن الناسك كان قادرًا على توفير بعض المال، فهو يعني ثلاثة أضعاف راتب الضابط الراكب، بيد أن عليه أن يكمل المدة المتفق عليها للحصول على مستحقاته.

إن بعض المساوى القيمة لهذه المهنة لم تكن دوماً سليمة من وجهة نظر الناس في ذلك الوقت. فناسك جورج دورانت، الذي كان في سابق عهده رجلًا نبيلًا أصابه الفقر، وبدعى كارلوس، عاش بسعادة في كهف حتى موته. وتم توثيق هذه الحالة في مجلة «الرجل النبيل». كما رغب سيد يدعى لورنس من بلاهوث في نيل امتيازات التنسك، مما دفعه للإعلان عن الوظيفة بنفسه.

ويمكن بعض الناسك من الحصول على شروط أفضل من تلك التي حصل عليها ناسك بانزهيل. فعلى سبيل المثال، تمعن ناسك فينتش في بارلي بغرفة معيشة كاملة ذات مقاعد ريفية. وتلقى شخص يدعى السيد ريمبس من بريستون وعداً بالحصول على كتب وأرغن وطعام مثقب. بيد أن الجانب السيء في الأمر أنه عليه أن يعيش في ظروف بائسة للغاية. وإذا، هل كان هناك متقدمون لوظيفة السير تشارلز في بانزهيل؟ نعم. وهل استمر الناسك في عمله إلى نهاية فترة السبع سنوات؟ ليس تماماً. فقد طرد بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على بداية

عقده، بعد أن وجد في حانة محلية برفقة بعض الفتيات. قد لا يجد أي منها عذرًا في لومه على غيابه غير الشرعي، ولكن هل هناك عمل أسوأ من هذا الرجل ببعض حيوية ونشاطًا. واصل القراءة فقد تجد الجواب في القسم التالي.

الخصي (Castrato):



كانت النسخة المجرجية المماطلة لروبي ويلمز، أو لكن أكثر دقة، تشارلوت تشرتش، هو نجم الصرعة الجديدة في عالم الأوبرا، أو ما يسمى بالكاستراتو (الخصي).

وستطيع أن تسمى هذه الوظيفة بغير البريطانية، ذلك لأن عملية الإخصاء كانت تم، وبشكل حصري في إيطاليا، لأن الكاستراتين كانوا موجودين، وبشكل حصري في إيطاليا، لكنهم كانوا يجوبون جميع أرجاء أوروبا للغناء. وقد بدأت هذه الممارسة كوسيلة لمد الأوبرا بأصوات أنثوية، غير أن صوت الكاستراتو الملائكي قد لاقى قبولًا واسعًا، مما جعله يقوم بأدوار الرجال الرئيسية. فعلى سبيل المثال، يُودي اثنان من الكاستراتين دور

الثاني المتحاب في النهاية بين ثورو وبوري في أوبرا موتفيردي؛ المسماة «توبوج بوبي»، وعلى النهج نفسه، قام خصي بأداء دور بوليوس فيصر في رائعة هاندل «بوليوس فيصر». إن أقرب صوت لطيبة صوت الكاستراتو هو الصوت المصطنع العالي أو طبقة الكاونتر تونر (الصوت الرجولي الحاد)، لكنه مختلف تماماً عن حدة صوت الكاستراتو، الذي يقارب صوت امرأة حاد، ولكن بطبيعة غريبة، وصفافية، وغير مميزة للجنس، غير صوت حاد لشاب. ولم يكن للأطفال الذين يخضعون لهذه العملية أي خيار في هذه القضية؛ فمعظمهم ينحدرون من عائلات فقيرة كانت تأمل أن تخلص من فقرها عبر هذه العملية. وقام



لوحة لويليم هوغارث تظهر الجماهير في أثناء تجمهرهم لحضور حفلة أوبرا. ويضم العلم رسمًا كرتونياً لمشهد من عرض المسرح يظهر عليها ساليسترو، خصي هاندل الفضل، الذي يمكن عنه مزجهاً من بالماروني وشارلوت تشيرش عصره. هو الرجل الطويل ذو الجسم العريض والرأس الصغير والأرجل النحيفة.

الفاتيكان بحظر ممارسة الإخصاء، لأنها ممارسة همجية. ولكن رغم حظر القانونين الديني والمدني، فقد غض الطرف عن استمرار هذه الممارسة لقرون لاحقة: وفي كثير من الأحيان كانت العائلات، تذكر نيتها في إخصاء طفلها، مدعية أنه خصي بسبب مرض، أو نتيجة حادث ركوب خيل، أو لأن خنزيراً أرياً قد نطحه.

تنمو خلال فترة المراهقة، الأوتار الصوتية للذكر فتصبح أخشن، فيتعمق الصوت. وتعن عملية الإخصاء التدفق الضوري للهرمونات، مما يؤدي إلى وقف نمو الأوتار الصوتية بصورة تمنع الصوت من التغير. ولهذا قد يتمتع الكاسترانتو بصوت سوبرانو حاد لطفل، وقوة رتنيي رجل بالغ.



آخر الحصين: أLESSANDRO MORESCHI

كانت عملية الاخفاء تجرى على الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة، وقد لا ترغب في مواصلة قراءة الفقرة اللاحقة إن كت ذكرأ.

يتم وضع الولد المقرر إخراجه في حوض ماء ساخن جداً حتى يفقد وعيه، ويتحقق بعضهم بالأفيون. وفي ظل هذه الحرارة العالية، يتم التلاعب بالخصيدين يدوياً وسحقهما حتى تفقدان قواهما وتصبحان. ومن ثم يتم قطع القناة المنوية القادمة من الخصيدين. ولم تكن جميع العمليات ناجحة، وقد يفارق بعض الأولاد الحياة. وبلغ عدد الأطفال الذين خضعوا للإخصاء في أوج هذه التزعة زهاء أربعة آلاف طفل إيطالي؛ وقد خضع بعضهم إلى هذه العملية، لسوء حظهم، اعتقاداً من عائلاتهم أن هذه العملية ستجعلهم مغدين جيدين في المستقبل، في حين أن عملية الإخصاء قد تجعل من الأطفال ذوي الموهاب الغنائية وحسب، مغنين أفضل.

وقد يكون هناك المزيد من الأخبار غير السارة حتى في ظلنجاح العملية، فعائلة الخصي في العادة تخضع لهذه العملية الوحشية من أجل الشهرة والثروة، بيد أن حفائق خشبة المسرح لا تختلف في القرن الثامن عشر عما هي الآن. فالقليل القليل من المخصوصين قد يتمكنون من الوصول إلى النزرة في مستقبلهم المهني، وقد لا تتجاوز نسبة الذين يتوقفون النجاح أكثر من واحد بالمائة من الأربعة آلاف. أما الباقون فأمامهم حياة من العمالة المتقطعة دون أمل بعيش حياة عائلية طبيعية.

والأسوء من ذلك أن يكون للعملية أعراض جانبية خطيرة. فقد انتهي الأمر مع هؤلاء المخصوصين بقضيب صبياني وبروستاتا غير نامية كما يجب. وقد يبدو هؤلاً على خشبة المسرح طولين وذوي مهابة، إلا أن أنذر عهم وأرجلهم كانت طويلة بشكل غير مألوف مقارنة مع أجسامهم، وكانتا معرضين لتراتم الشحوم المفرط في الأوراك، والصدر والجفون. وبعداً عن تأثير العملية على أجسامهم، يقال إن العملية أثرت في حالتهم العاطفية. وكثيراً ما تم وصفهم بالبدينين، والجانحين عاطفياً والمتذكررين، وهذه اتهامات تطلق هذه الأيام على مغنيات الأوبرا. وقد دعمت شهرة مواجهات الصراخ الصارخة بين المؤلف هاندل وخصيه سينيسو جميع أرجاء إنجلترا. وكانت ذروة انتشار الكاستراتو بين عامي 1650 و 1750. ورغم اعتبار هذه الممارسة معارضة للقانون الفاتيكياني، إلا أنها استمرت حتى نهاية القرن

الناسع عشر. ويتوفر لدينا الآن تسجيل آخر كاسترانو، ويدعى أليساندرو موريشي، وقد توفي عام 1922. ورغم أن التسجيل قد جرى بعد اعتلاته قمة الشهرة، إلا أنه يعطينا فكرة واضحة عن الصوت الذي وجدت الوظيفة لأجله، وقد أصبحت - ونحمد الله على ذلك - جزءاً من الماضي.

أسوأ المهن في البحريّة

سودي يا بريطانيا
فانت تحكمين العالم،
ولبن يصبح البريطانيون
عييناً أبداً.

تعود أغنية بريطانيا هذه إلى العصر الجورجي، وتعبر عن ثقة الإمبراطورية المزدهرة الراخدة وتعلّماتها، لكنها في الحقيقة ليست سوى عار جورجي آخر. وتُعرِّف الأغنية عن عزم شعبٍ على حكم الآخرين، دون أن يتقبل خضوعه لأي حكم آخر. ولكن يمكن القول إن القوة الاقتصادية لبريطانيا في القرن الثامن عشر قد قامت على بؤس العبيد الذين كانوا مجرّدين على العمل في مزارع العالم الجديد. وشكل طريق العبيد من غرب إفريقيا ربّاً لا يمكننا أن نوفّه حقّه في هذا الكتاب، فأسوأ مهنة من المهن التي تحدّثنا عنها في هذا الكتاب، لا تقارن بالحياة البائسة لأولئك الذين تم الإمساك بهم وحشرهم في سفن ونقلهم عبر برسنل وليفربول ومن ثم بيعهم - إذا ما بقوا على قيد الحياة - للقيام بأعمال إجبارية في جزر الهند الغربية.

وتم حظر العبودية في الوطن، عندما عادت بريطانيا إلى رشدتها، وأرسل سلاح البحريّة لوقف المستعبدين على السفن الفرنسية والإسبانية، وحرر الكثير من العبيد وارجعوا إلى إفريقيا، أو أطلق سراحهم في المبناة. ولكن بعض المحررين رغب في الانضمام إلى طاقم السفن التي منحتهم الحرية، ومع هذا، بقيت حياة بحارة نلسون أفضل - بشكل واضح - من أولئك العبيد الذين كلفوا بالقيام ببعض أصعب الأعمال وأكثرها رعباً.

كان سلاح البحرية التعبير الصريح لسيطرة بريطانيا على البحار، ييد أن الثقة الموجودة في أغبى تبدو جوفاء عند مقارنتها بالحقيقة التاريخية. كانت سيادة بريطانيا على البحار، لسنوات طويلة، على حافة الهاوية. ولا يمكن أن نعزّو ذلك لنابليون وحده، بل إن السياسة الخارجية لبريطانيا الموسومة بالعداء قد جعلت البلد في مواجهات مستمرة مع أحلاف مختلفة كانت فرنسا، وإسبانيا، وأمريكا، وهولندا، وروسيا أطراها. ورغم الانتصارات التي حققها البريطانيون في ترافلغار، واصل الفرنسيون مساعيهم في بناء سفن حربية جيدة التصميم، في حين أن سلاح البحرية البريطاني قد امتد إلى أماكن قصبة وأصبح سيء التجهيز. وكان النجاح حقيقياً بأولئك الرجال الذين أبحروا، وقاتلوا الفرقاطات والسفن الحديثة أكثر منا، فقد قام هؤلاء بهذه الأعمال في ظروف سيئة جداً، مدفوعين برغبتهم في البقاء على قيد الحياة، والحصول على غذائم مالية من السفن التي قد يسكنون بها، غير أن الصورة النمطية لطاقم سلاح بحرية تحت إمرة نيلسون كانت مختلفة عن صورة البحارة المتهجين التي قد نرسمها لهم.

ونطلب خوض الحرب الأمريكية، وحرب السنوات السبع ما بين المئة وعشرة آلاف، والمئة وخمسة وأربعين ألف بحار وضابط. ولم يكن هناك بساطة بحارة ملгиون لتؤمن هذا العدد؛ ولهذا كانت سفن سلاح البحرية تحت إمرة نيلسون أمثلة عائمة للتعدد الثقافي. شكل البريطانيون منهم ما يزيد عن نصف الطاقم بقليل، بينما كان الباقيون من إيرلندا، وهولندا، والشرق الأقصى، وعيباداً سابقين من جزر الهند الغربية، وإسكندنافيا، أو بالأحرى من كل مكان له ساحل. ومع هذا لم تكن هذه المصادر كافية، فقد كانت الحياة على سطح السفينة قاسية جداً، مما جعل المتطوعين قليلاً ومتفرقين. وأصبحت السفن تعتمد على إمبرس سيرفس (Impress Service) أو عصابات الإجبار التي كانت تجبر المجندين على الانضمام. وكان نظام الخصم الذي أقر عام 1795 يعني قيام المجرمين ذوي الجرائم الصغيرة بالانضمام إلى البحرية كبديل عن السجن، وهذا أدى إلى وجود الكثير من المهووسين، وضحايا التيفوس بين طواقم سلاح البحرية.

مذكرة تفتيش لعصابة الإيجار، صادر بحق بريطان سيفية عام 1809

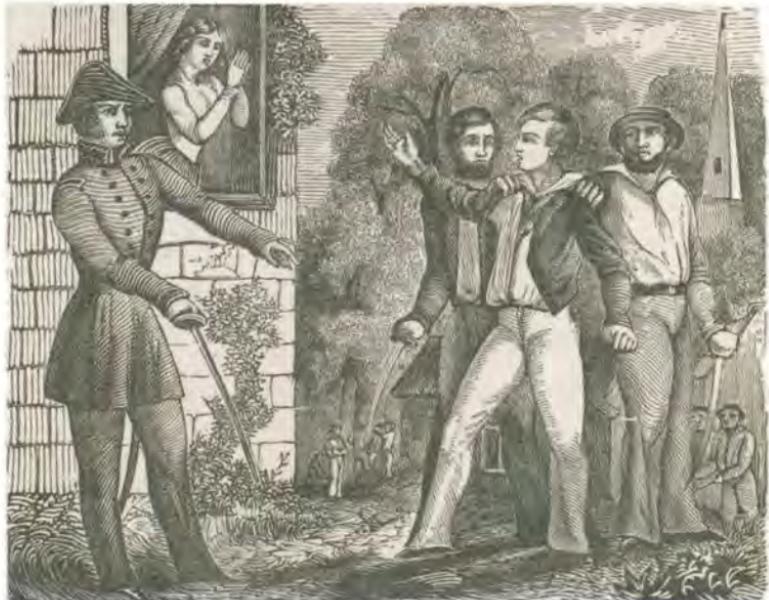
صادرة من جانب المفوضين المسؤولين عن تنفيذ قرارات مكتب اللورد، الأدميرال السامي للملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا والكومونولث وجميع مستعمرات جلالة الملك.

تنفيذًا لأمر جلالة الملك في مجلسه، والصادر في السادس عشر من نوفمبر، عام 1804، فإننا نفوضك هنا ونحولك ونمنحك القوة لإيجار من ترونه مناسبًا، أو أن تتدخل لإيجار أكبر عدد من الأشخاص للعمل كبحارة أو مرتادي بحار، أو كأشخاص وظائفهم أو تسميات وظائفهم لها علاقة بالعمل على المراكب والقوارب في الأنهار، كما تستدعي الحاجة لذلك كي تحد سفينة جلالة الملك بالجندو تحت إمرتك أو أي سفينة أخرى، واعطاء كل رجل تم إيجاره شلنًا واحد كسلفة. وعليك عند تنفيذ ذلك أن تحرص أن ت أو أي من ضباطك المخولين لا تطلبوا أو تتلقوا مالًا، أو عطية، أو مكافأة، أو أي مكافأة مهما قصد بها استثناء أو استبدال أو تسريح أي شخص أو أشخاص، تم إيجارهم أو قصد إيجارهم، وسيتم استجوابك في هذا الشأن. وعليك ألا تثق بأي شخص لتنفيذ أمر التفتيش باستثناء ضابط مفوض، وعليك إدراج اسمه ومنصبه في الجانب الآخر من مذكرة التفويض، وجهز بذلك وختملك على الفور.

وهذه المذكرة صالحة لغاية اليوم الحادي والثلاثين من ديسمبر عام 1809، وعلى جميع العمدة ومفوضي الشرطة، والقائمين على الأمن، ومساعدي المأمور، وأئموري الأحياء، وجميع موظفي جلالة الملك، ورعاياه ذوي الصلة، أن يقدموا المساعدة والعون لك كأولئك الذين تم توظيفهم تماماً لأنهم معنيون ب تقديم الخدمة بجلالة الملك، وسوف تم مساءلتهم عن أي تقصير في هذا.

حررت بمعروضنا وطبعت بهم منصب الأدميرال.

وحال صعود هؤلاء الذين لم يعرفوا في السابق سبيلاً إلى البحر، يطلق عليهم لقب جمعي



صورة توضيحية لاحدي عصابات الضبط، وقد تصرف أفرادها بشكل لائق، لي حين أن المختصة تقول لهم قد استخدمو العنف في معظم أجزاء مدن بريطانيا الساحلية.

هو «المخصوصون» (waisters)، وذلك لأنهم على عكس الرجال المستفيدين كرجال بحر متسلكين، يبحرون في خاصرة السفينة، وهي الجزء الذي يتوسط السفينة، ويوكل إليهم القيام بأعمال حقيرة، كسحب الحبال حتى يتعلموا أخفافياً تجهيز السفينة، ولا يسمح لهم القيام بأي عملٍ أعقد حتى يكتسبوا المران الكافي في سابقه (أهلاً وسهلاً بكل في «مدينة» الاشتباك، فإسهام الوظائف البحرية في اللغة الإنجليزية، وبخاصة منذ أوّلات الحروب النابليونية، يعد أكثر ما سُلك لغويًا من دروب). ولا يعني افتقارهم للمهارة، عدم تخصيص بعضهم للقيام بأفظع المهن على سطح السفينة.

مساعد جراح السفينة (Loblolly Boy)

لم يكن الغلام المساعد للجراح، كما هي حال غلام السفود، بالضرورة شاباً. ولكن، ماذا عن الكلمة (loblolly)؟ وكيف استخدمت لتعني الجراح نفسه؟ استخدمت هذه الكلمة معنى جراح؛ مشتقة من أحد الأدوية البحرية التي كان يحضرها، فالكلمة استخدمت في الأصل للإشارة إلى المعينات المجففة الداخلة في تكوين «الحساء المحمول»، الذي كان يحضر من خلاصة اللحم المجفف المذاب في الماء الساخن ليقدم للمرضى؛ وهي مكافئ القرن الثامن عشر لمكعبات المرقة. ييد أن تحضير خلاصة لحم كتلث التي نشهدها هذه الأيام تحت اسم بوفريل (Bovril)، للبحارة المرضى، كان أسهل جزء من عمل غلام الجراح، الذي كان يتضمن مساعدة جراح السفينة.

تبينت مهارات العاملين وخبراتهم في المجال الطبي على ظهر السفينة بشكل كبير.



إعادة إجراء جراحة في القرن الثامن عشر، وهي دقيقة في كل جوانبها باستثناء الألوان.

فبعضهم، ولا سيما أولئك الموجودون على السفن الكبرى كسفينة نيلسون «فيكتوري»، كانوا أطباء حقيقين، في حين أن القباطنة، في المراتب الدنيا من النظام البحري، قد يكونون مسرورين لحصولهم على مطب هاو مع خبرة في خلع الأسنان. وفي الوقت الذي كان فيه زملاء هؤلاء الجراحين القابعين على الأرض يقومون بتجارب على ما يزودهم به رجال البحث من جثث، كان لدى معظم جراحى السفينة أبسط اللوازم الطبية والمعرفة والعلاج للتعامل مع الظروف المختلفة.

وتركت الم منطقة الطبية في أسفل طبقة في السفينة، وهي الطبقة الموضوعة فوق الماء الآسن في جوف المركب، ومنحت هذه الوضعيه مكان العمل رائحة خانقة وغير صحية، رغم أنه حفظ الأطباء والمرضى بعيداً عن مخاطر القتال. وكان الشعور بالحركة، بسبب اقتراب الم منطقة من مركز الجاذبية، أقل، مما جعله وضعاً مثالياً لإجراء العمليات.

وكانت هذه الم منطقة عند اشتداد المعارك ممتلئاً بالدماء. ويقوم الجراح بخياطة أكثر الجراح وحشية، الناجمة عن الشظايا الخشبية، ورصاصات البنادق، وطلقات المدافع، على طاولة عمليات مؤقتة مكونة من صناديق بخارية، رص بعضها إلى بعض. وحيثما تمررت الأطراف، كان عليه أن يقوم بعمليات بتراطنة، فهذا الإجراء هو العلاج الوحيد المتوفى حينها. إن هذا هو عالم الحلاق الجراح الجنوبي بأفراط.

وتكمم مشكلة مساعد جراح السفينة في المحافظة على إبقاء المرضى ساكنين، وكانت إحدى الطرق التي اتبعها هي إيقاظهم محمورين ليتأسسوا الألم، وقد يضطر لاستخدام مخدر اللوردونوم، وهو مستحضر كحولي من الأفيون، لاقى شيوعاً منقطع النظر في العصر الفيكتوري. ويقوم مساعد الجراح، لإيقاف صرخ المريض، بربط طرق جلدوي على فمه، أو بإعطائه طلقة بن دقية لبعضها بأسنانه. ومن هنا جاءت العبارة «غض الرصاص»، (والරادف لها بالعربية هو «غض على الله»). وأخيراً، يستطيع الجراح، بمجرد تمكن المساعد من إيصال المريض إلى حالة الهدوء التام، المساعدة بمحالسيه على طاولة الطعام، من الشروع في عمله.

والهدف هنا هو السرعة لا الإتقان. وب مجرد الاتهاء من عملية البتر، تسد الأوردة والشرايين بربطها وتركها مدللة من الجرح، وتقضى الحفطة بجزتها لا حقاً عندما يتشفى الجرح، يجد أن الأنابيب اللحمية المعلقة قد ترك المريض عرضة للإصابة بعدوى ذات عوائق وخيمة.

وكانت مهمة مساعد الجراح الأخيرة على طاولة العمليات هي التخلص من الإطراف المبتورة. وبعد اشتباك بحري كامل، يستطيع مساعد الجراح وبسهولة تامة تعطية حوض كامل بأجزاء، زملائه البحارة المهمشة.

ولم يكن المرض والموت - كما يشير الجدول التالي - محصورين بساحة القتال. ففي كل يوم، قد يتذرع منفع فوق قسم بحار، وقد يسقط بعض الناس من جبال الأشترعة والصواري، ومع وجود أعمال شائقة على سطح السفينة، أصبحت حالات الفتاق مشكلة قائمة في ذاتها. وقد بلغ عدد عمليات الشد التي أجريت على البحارة في البحرية الملكية سنويًا زهاء الأربعية آلاف عملية.

عدد الوفيات من البحارة الملكية عام 1810

النسبة	العدد	سبب الموت
٪.50	2592	المرض
٪.13	1630	حوادث انفرادية
٪.10.2	530	السقوط، التحطّم، النار، الانفجار
٪.5.4	281	بسبب العدو، عند قيامه بعمّة
٪.2.9	150	بسبب العدو، بسبب جراحة
٪.100	5183	جميع الأسباب

وجاءت أعظم مشكلة صحية من الأمراض، وكان مرض الإسرى بروط مشكلة قائمة في حد ذاتها، وكان مساعد الجراح يقوم بتوزيع الليمون الأخضر للحد من انتشاره. وفي الحقيقة نال البحارة البريطانيون لقب «الليمونيّين»، الذي أطلقه عليهم نظراً لهم الأمريكيون في إشارة إلى ميل البريطانيين الشديد إلى الفاكهة الغنية بفيتامين سي. وجعل استهلاك الليمون الأخضر على سطح السفينة إجبارياً عام 1798، ولم احتواه المرض. يد أن أمراضًا أخرى كحمى السجن، والتيفود، والحمى الصفراء، والملاريا، والكولييرا واصلت حصد أرواح البحارة.

وبلغ عدد الرجال المصابين بمرض الحمى الصفراء والمalaria عند انطلاق سفينة «برونزويك» إلى الجزر الهند الغربية عام 1081 مئتين وثمانين رجلاً. وما لاشك فيه، أن من مهام مساعد الجراح، الاعتناء بالمرضى المصابين بأمراض مميتة، وبخاصة أولئك الذين يمرون في وضع حرج.

لابد أن العمل مع المتألين، والنازفين، والمرتعبين، في ظروف ممتهنة لم يكن سازاً على الإطلاق. فهذه المهمة خطيرة، وكانت الظروف سيئة، رغم أنها عُذّت ملهاة عند مقارنتها بالحياة على سطح السفينة.

المخلون (Topman):

كان هؤلاء هم النخبة في طاقم السفينة، فقد كانوا الأقسى والأكثر لياقة بين البحارة، وكانت توكيل إليهم مهمة رئيسة هي تعديل الأشرعة.



نهن الخيال وخيال الصواري بالقطران لبعضها، ولهذا كان للمحلين أيام زلقة على الدرام نهراً أسلقهم الخيال. ويطلق على البحارة لهذا السبب اسم هر جاك نار أو جاك القطران.

كانت السفينة الحربية البريطانية في القرن الثامن عشر تمتاز بثلاث صواري هي: صارية المقدمة، والصارية الرئيسة الضخمة، والصارية الثالثة في المؤخرة، وتم بهذه الصواري عارضة يربط عليها الشراع، وتدعى الصواري الثلاث بشبكة ضخمة من حبال الأشرعة والصواري الفرعية. ويمتد من هذه الصواري والعوارض إلى العمود البارز على مقدمة السفينة، في الأسفل، أربعة وعشرون شراعاً ضخماً ومختلفاً، قد تحمل مئات الوضعيات للاستفادة وبأفضل شكل، من الظروف الجوية المتوفرة.

وكان تغير هذه الأشرعة بسرعة قضية حياة أو موت، فتشي الأشرعة في عاصفة قطبية قد يضمن عدم انقلاب السفينة جراء الرياح العاتية، وإحراز عقدة بحرية إضافية عبر تحبير الأشرعة بشكل مناسب قد يعني الإفلات من عدو يطاردك، أو قد يمكن السفينة من إحراز غنية لا تقدر بثمن. وكان المعتلون متسلسين في تسلق الحبال الأفقية التي تشكل عبات السلالم للوصول إلى قمم الصواري، ومجدد وصولهم هناك، كان عليهم التردد فوق العوارض ليقوموا بعملهم مع الأشرعة.

وعلى المعتل القيام بهمّاته على أكمل وجه، وفي وقت قصير جداً، وظروف جوية سيئة قد تتلاطم خلالها السفينة بين أمواج البحر العاتية، وقد تترنح قمة السارية، خلال موجة عاتية، كمالبندول. ومع اشتداد هبوب الرياح وتكون الجليد على العوارض وحال الأشرعة، فإن الحوادث شرعاً لا مفر منها.

وقد لا يدو عمل هؤلاء سينا لو أن كل ما يقومون به هو ما تحدثنا عنه وحسب، فما سبق ليس سوى جزء بسيط من عملهم المستمر على مدار الأسبوع، المليء بالمهمات القاسية والمثيرة.

كانت هذه التعليمات تلقى بانتظام من قبل قبطان السفينة على مسمع طاقمه، عوضاً من مراعاة يوم الأحد. كانت العقوبات قاسية جداً، وكانت العبارة «سوف يتم إعدامه» لازمة دائمة. أما أكثر العقوبات تكراراً فقد كانت الجلد، إذ يتم ربط المسيء إلى حاجز مشبك، وجلده عدداً محدوداً من الجلدات باستخدام سوط القطة، وهو سوط من تسعة حبال ينتهي كل

منها يوزن معدني، ولم يكن العقاب يكفي بجلد المذنب ست جلدات بكل ما أوتيت من قوة كما قد يعني هذا المصطلح، فقد وردت حالات تم جلد أشخاص فيها ثلاثة جلدة.

مواد الحرب لعام 1749

19. سبقى من تسول له نفسه القيام بعمل تخريبي بعض النظر عن دافعه إلى ذلك، سواء كان من أفراد الأسطول أو مرتبطاً بالأسطول، عقوبة الإعدام، عند إثبات التهمة عليه عن طريق محكمة عسكرية. وسيقى من تسول له نفسه التلفظ بكلمات تخريبية، أو تدعو إلى التمرد، عقوبة الإعدام، سواء كان من أفراد أسطول أو مرتبطاً بالأسطول، أو أي عقوبة أخرى قد تقرها المحكمة العسكرية. وسيقى أي ضابط، أو بحار أو جندي من الأسطول أو مرتبطاً بالأسطول يجيز لنفسه التعامل بامتهان مع ضابطه الأعلى رتبة، وهو على رأس عمله، عقوبة ملائمة لطبيعة جرمه، ووفق حكم المحكمة العسكرية.

20. سبقى كل فرد من الأسطول يقوم بإخفاء أي ممارسة، أو خطط تخريبي، أو تمادي - وللحكمقة تقرير هذا الأمر - عقوبة الإعدام، أو أي عقوبة أخرى قد تراها المحكمة العسكرية ملائمة. وسيقى كل شخص من الأسطول، أو مرتبط بالأسطول يقوم بإخفاء كلمات تخريبية، أو تمادي ضد جلاله الملك أو الحكومة، أو أي كلمات أو ممارسات أو خطط تهدف إلى عرقلة أداء الخدمة على أكمل وجه، دون اطلاع ضابطه المسؤول على هذه الأمور؛ أو عند حضوره لأي عمل تخريبي أو تخريبي، ولم يتم بذلك أقصى ما يستطيع لإفشال هذا العمل، ما تراه المحكمة العسكرية مناسباً من عقوبة على فعلته.

21. وعلى كل فرد من الأسطول، إذا ما وجد سبباً للشكوى على طريقة تزويد الأفراد بقوتهم اليومي، بإعلام قبطانه، أو قائده العام بهذه تمام، وحسب ما يقتضي الحال، ليتم اتخاذ علاج مناسب وحسب ما يقتضي الوضع؛ وعلى الرئيس، أو القبطان، أو القائد العام الآتف ذكرهم، العمل سريراً لعلاج هذا الإشكال؛ ولا يسمح لأي شخص في الأسطول مهما كانت الأسباب، محاولة الإخلال بالنظام، وسيلقي من يقوم بهذه الفعلة العقوبة المناسبة التي تقررها المحكمة العسكرية وفق درجة الإساءة.

22. وسيلقي أي ضابط، أو بحار أو جندي أو شخص في الأسطول، يقوم بضرر الضابط الأعلى رتبة منه، أو سحب السلاح عليه، أو يحاول سحب سلاحه أو رفع أي سلاح في وجهه، وهو على رأس عمله، ومهما يكن السبب، وفي حال إدانته بهذه التهمة عبر المحكمة العسكرية، عقوبة الإعدام؛ وسيلقي كل من أدين من المحكمة العسكرية بالقيام بالشجار مع الضابط الأعلى رتبة منه، وهو على رأس عمله، أو عصيان أي أمر قانوني وتجهه له الضابط الأعلى رتبة، عقوبة الإعدام، أو أي عقوبة أخرى مشابهة وفقاً لطبيعة الجرم ودرجه، وحسب ما ترى المحكمة العسكرية.

23. وسيلقي كل من يتشارجر، أو يقاتل مع أي شخص آخر، أو كان قد استخدم عبارات أو إشارات محرضة أو مهينة، وكانت الغاية منها إثارة الفوضى أو إحداث شجار، سيلقي - عند إدانته بهذا الجرم - العقوبة المناسبة له، وكما تراه المحكمة العسكرية.

24. ينفي عدم التفريط بأي ذرة من ملح البارود، أو أي طلقة أو عتاد، مما هو مخزن في الأسطول، وعدم وجود اختلالات منها، بل يجب حفظ هذه المؤمن والمخزنات بعناية فائقة، وسيلقي المسئلون والمحرضون عقوبة ملائمة

لجرهم، كما تراه المحكمة العسكرية عادلاً بحقهم. (وهؤلاء الأشخاص يخضعون لقانون الانضباط البحري).

25. وسيلقي كل شخص من الأسطول يقوم، عن قصد، بحرق، أو إشعال النار باي مخزن أو مخزن ملح بارود، أو سفينة، أو قارب، أو كيتش، أو مركب، أو جبال، أو أثاث لا تعود ملكيتها حينها لعدو، أو قرصان، أو متسلد، سيلقى، إن أدين بهذا الجرم، من قبل المحكمة العسكرية، عقوبة الإعدام.

26. يجب توخي الحذر في إدارة سفن جلاله الملك وتوجيهها، ويجب الآ ت تعرض أي سفينة عن قصد أو جهل أو أي سبب آخر، للمحاصرة، أو ان تندفع فوق صخور أو رمال، أو تصدع، أو ت تعرض للخطر، وسيعرض كل من ثبتت مسؤوليته عن هذا الجرم لعقوبة الإعدام، أو أي عقوبة قد تراها المحكمة العسكرية مناسبة.

27. ولا يجوز لأي فرد من أفراد الأسطول أو مرتبط به، أن ينام خلال فترة مناوبته، أو أن يخل بالقيام بالواجب الموكول إليه، أو أن يترك محطة؛ وسيلقي من يقوم بهذه الأفعال عقوبة الموت، أو آية عقوبة أخرى قد تراها المحكمة العسكرية ملائمة، وكما تستدعي ظروف القضية.

28. وسيتم إيقاع عقوبة الإعدام بحق كل من يرتكب جريمة قتل، وفق حكم المحكمة العسكرية.

29. وسيلقي كل شخص في الأسطول يقوم بارتكاب ردائل اللواط مع بشر أو حيوان، عقوبة الإعدام وفق حكم المحكمة العسكرية.

30. وسيلقي كل من يقوم بالسرقة عقوبة الإعدام، أو حسب ماتراه المحكمة العسكرية مناسباً، بعد النظر في الظروف.

ورغم كل ما تحدثنا عنه، كان البحارة يحصلون على وجبة دسمة يومياً، فقد كانت صفائح المطعم المربعة مليئة بمصدر لا ينفد من الطعام الكثيف المقزز. ولم تكن قائمة الطعام الأسبوعية تتغير كثيراً، فقد كان النظام الغذائي قائماً بشكل أساسى على اللحم المحفوظ عن طريق غليحه ووضعه في براميل، وجعله قابلاً للأكل، كان يحب غمره بالماء للتخلص من الملوحة. ويستمد البحارة حاجتهم من النشويات من كعكة قاسية أو بسكويت البحر. ولا بد أن هذا الخبز القديم المكون من الماء والطحين قد غراء السوس، الذي قد يضيف إليه المزيد من البروتين، ولكن بشكل مقزز. وقد غابت الخضروات عن هذا النظام الغذائي باستثناء البازلاء، المجففة والمنقوعة بالماء.

قد لا يبدو هذا النظام الغذائي شيئاً بالنسبة إلى ذوق عمال عاشوا في القرن الثامن عشر، بقدر ما نراه شيئاً الآن. ومع ذلك، فإن وجود بند من بنود الحرب ذي علاقة بالشكوى حول الطعام، فهو دليل ين أن على الأمور في المطبخ لم تكن دائماً على خير ما يرام. وما يعزى النفس على الدوام أن هناك الكثير من المشروبات؛ ويستطيع كل بحار تناول غالون من البيرة يومياً مع وجنه المكونة من رطل من الخبز، ورطل من اللحم. نعم، يستطيع كل شخص تناول ثمانى بنتات (البنت يعادل نصف لتر). غير أن هذه البيرة كانت خفيفة - وليس كحولي تماماً. ييد أن أكثر مشروب قد يسبب ضرراً، هو المشروب المسكر المزوج بالماء ويدعى (جروج).

وكانت حصة كل رجل على سطح السفينة نصف بنت (ربع لتر من مشروب الرم)، الذي يخلط بالماء لصنع مشروب جروج. لهذا كان الرجال يقومون لعملهم، وقد عبوا ثمانية بنتات من البيرة المخففة، والتي عشر بنتاً من خليط الروم والكوك، ويمكن القول إن المعتلين كانوا يرحفون على جبال الأشرعة والسواري وهم في حالة سكر دائمة. إن السبب الرئيس وراء لف الأشرعة وتركها تضرب عنان الرياح هو القتال. ولا تundo



رجحة الملاحة المرعية. قد تكون برايميل حلم المخزير والبقر الماحلة التي تمد هذه الرجال بمكرونهما الأساسي الشديد الممرحة للدقهلة العبيط الأطلسي مرتين أو ثلاثة، وقد يكون قد مضى عليها أشهر أو سواع.

هذه المراكب ذات الصواري الثلاث عن كونها بطاريقات مدافع عائمة، وكانت إحدى أهم مهام المعطلي تشغيل هذه المدفع العظيمة.

وقد أنقذت طواقم السفينة تصويب مدافعيها وتوقيت هجومها الكثيف مع وقوع ارتفاع السفينة وانخفاضها بسبب الموج. ولم يتوقع منهم أن يكونوا قادرين على إطلاق مدافعيهم بشكل عشوائي فحسب، بل عليهم التصويب نحو السارية الرئيسة، وإشعال النيران بسفينة العدو قبل أن يتم تحويلها برتابتها عن طريق طلقات مدفعية ذات عيارات صغيرة لتشتيت المدافعين الرابضين.

وقد تكون مدفع السفينة - في حال لم يتم التعامل معها كما يجب - قاتلة كحال عدوهم تماماً. وقد يكون ارتداد المدفع عند إطلاقه أحد المخاطر الرئيسة التي يواجهها البحارة. فالمدفع موضوعة على عجلات وقد تدفعها قوة إحدى الرميات المليئة ذات الاثنين والثلاثين



تناول القبطان غداء بشكل مرتفع، وبخاصة إذا كان يعمل حساب شركة الهند الشرقية. وستطيع أن ترى في كرتون جيلراري هذه القبطان وهو يهرب ضاربه في كابته بالقرب من سلسلة عريضة من التراول الممتدة على عرض متعرجة السفينة.

رطلاً إلى الخلف مسافة تبلغ خمسين قدماً، وي高出 هذا عرض السفينة نفسها، لهذا كانت المدفع مربوطة بمحال لتقليص مسافة ارتدادها إلى عشرة أقدام. وكان على آمر المدفع أن ينحني ليصل إلى البرميل ويشعل شارة المدفع، وعليه أن يتمسك بثبات إلى الأسطوانة وهي تطلق قذائفها من الأعبرة.

وخلال عملية الإطلاق، قد تتعرض أي قدم أو حتى إصبع، لتعريض طريق القذيفة للسحق. وفي المعركة، كثيراً ما يتم الاستغناء عن بعض المدفع، وبذا يصبح «المدفع الطليق» مهمة مميتة لكل من قد يوجد على منصة المدفع. فكيف لهم التعامل مع أطنان من المعدن المتذرعة للأعلى والأسفل مع الأمواج، مخترقاً صوف طواطم المدفع الأخرى.

ويقوم على تشغيل كل مدفع طاقم مكون من ستة أفراد، ويعرف كل فرد فيه مكانه، ويعلم أن عليه إطاعة أوامر إطلاق النار. وقد يشكل حشو ملح البارود في مدفع ساخن دون ترطيه،

نهاية مختومة لجميع أفراد الطاقم. ولهذا تم إعطاء أفراد طاقم المدفع أرقاماً لتفادي حدوث أخطاء. ويقوم الرقم واحد، وهو قبطان المدفع بإعداد المدفع ومراقبة الهدف، وإعطاء الأوامر تصويب المدفع، ومن ثم يقوم هو نفسه بإطلاقه، ويقوم رقماثنين -مساعدة رافعة- بإدارة ورفع برميل المدفع. ويقوم رقم ثلاثة بحشو المدفع بالعتاد المطلوب - كالطلقات المستديرة الضخمة، أو الطلقات العنقودية، أو الطلقات المتسلسلة، أو الطلقات الأسطوانية. ويقوم رقم اربعة بإخماد الشارات في البرميل، كمسحها قبل حشوها. ويقوم رقم خمسة بتحريك برميل المدفع وتمرير العتاد.

ويظهر الجدول الآتي الإصابات التي تكبدتها البحرية البريطانية ثمناً لسيادتها البحرية.

الإصابات البريطانية وإصابات العدو في الاعتصارات الستة الأخيرة.

العدو (قريبي)				البريطانيون			المعركة
القتلى	المجرح	المجموع	أسرى	القتلى	المجرح	المجموع	
3500	3500	2000	1500	89	811	287	الأول من يونيو 1794
3157	1000	570	430	300	227	73	الخليج القدس فسنت 1797
3775	1160	620	540	825	622	203	كامبردون 1798
3225	2000	600	1400	895	677	218	النيل 1798
3775	1160	620	540	941	688	253	كربيهاجن 1801
7000	6953	3545	4408	1690	1241	449	تراغلغار 1805
22,657	16,313	7245	9068	5749	4266	1438	المجموع

وثمة رقم ستة كذلك.

في العادة تم تعطيل منصة المدفع بالرمل ليقوم بامتصاص الدم، وإعطاء الطاقم قدرة على الثبات، وورد في بعض الروايات عن تدفق الدم عبر الفتحات في جوانب السفينة في بعض الاشتباكات. ويظهر الجدول ارتفاعاً ملحوظاً في أعداد الإصابات حتى في جانب المنتصر،

ولابد أن أصوات إطلاق المدفع المزعجة، وصرخ النصائح والمحاضرين، وأصوات تحطم مقذمة سفينة العدو مع هيكلها، كانت جميعها مخيفةً جداً. ومن الصعب علينا أن تخيل عسلاًأسواً من كونك رجلاً تعلم في ظل هذه الظروف، سوى أن تكون غلاماً.

قرد البويرة/ ملح البارود (Powder Monkey):

كان الرقم ستة هو قرد البويرة، وكان مسؤولاً عن مد أمر المدفع بملح البارود الذي يحتاجه في إعداد المدفع. حرص طاقم المدفع على الاحتفاظ بأقل عدد ممكن من طلقات لدفع بالقرب من المدفع، لأن ملح البارود سريع الاشتعال، وكان على قرد البويرة أن يعود في سباق متتابع من ساحة القتال عند منصة المدفع، إلى المستودع في أعماق السفينة. وللقيام بهذا العمل السريع، تم توظيف غلمان قد يبلغ عمر بعضهم ست سنوات. وفي



نذر على هذا الولد، من مجموعة بحرية مشكلة حديثاً على نسق المجموعات التاريخية، المظاهر الملائمة لقرد البويرة.

الحقيقة، قد يقوم بهذا العمل كل من لم تكن له علاقة بالمدفع. وقد توجد على سطح السفينة نساء يفوق عددهن توقيعاتنا، وهؤلاء كن يقمن بهذا العمل أيضاً. ونستمد معرفتنا حول هذا الأمر من قيام الحكومة بمنع ميداليات بحرية لأولئك الذين اشتراكوا في القتال في معركة النيل، حيث قام كثير من النساء بالتقدم للحصول على هذه الميداليات. (ونظراً لاحتلال الرجال المراتب العليا في الخدمة ، تم رد هذه الطلبات).

وكان المستودع غرفة مبطنة بالتحاس موجودة في قلب السفينة؛ وبمساعدة التحاس في الحفاظ على جفاف البودرة، وهو -على عكس الحديد- لا يصدر شارات قد تشعل ملح البارود، ويقوم المدفعي الرئيس في غرفة التزويد بملء الخرطوشات بملح البارود، ويقوم بتسليمها لقردة البودرة عبر ستارة مبللة تعرف «بشاشات لا تخش شيئاً»، التي تحفظهم من الحرارة والوهج الداخلي. ولكن لم تكن هذه الاحتياطات ذات جدوى على الدوام، ففي معركة النيل، وصلت كرة مدفع مائة إلى مستودع ذخائر السفينة الفرنسية «الشرق»، ولم يتم العثور على أي جهة جراء الانفجار.

وكان «قردة البودرة» على دراية تامة بما قد يستطيع ملح البارود فعله، وبدأ أشد المواقف رعباً في عملهم هو رحلة عودتهم من غرفة التزويد، عبر الممرات الضيقة وعلى السالم، إلى مجررة المدفع حاملاً خرطوشة من ملح البارود قد قتلهم على الفور. وشكل هذا العمل طريقاً أمام الشباب للوصول إلى المجد، أو منفذًا للتخلص من فقرهم المدفعي. بيد أن حفائق الحرب لابد أنها قد وضعت نهاية مفزعه وسريعة لطفولتهم.

ومع هذا، فهناك عزاء وحيد لهؤلاء؛ فإذا ما يقوا على قيد الحياة، ووضعوا أيديهم على سفينة للعدو، فإن جميع الطاقم -ما فيهم قردة البودرة- سيقسم الغنيمة المالية، وكان لهم أيضاً حق الشعور بالفخر كونهم جزءاً من جلب لبريطانيا الشهرة، والحديث هنا عن البحرية الملكية. ومع هذا لم يتع لبعض هؤلاء الأطفال تجربة هذا العزاء. ويقودنا هذا إلى ما يمكن عده بلا منازع أسوأ مهنة في العهد الجورجي.

أسوأ مهنة على الإطلاق

نقاب آلة الغزل (Mule Scavenger):

شكلت مصانع القطن والصوف في شمال إنجلترا القوة الدافعة وراء الثورة الصناعية، فقد شهد القرن الثامن عشر قفزة نوعية في التكنولوجيا، التي قادت إلى عمليات إنتاج ضخمة، وأسهم اختراع هارغريفز للتول عام 1765، واختراع أركريات لآلة الغزل عام 1769، واختراع كومبتون عام 1779 للنساجة في إحداث ثورة في عالم الغزل والنسيج، وأصبح الكثير من مالكي المصانع مغاليين، وقصيرى النظر في استخدامهم لهذه التكنولوجيا، واغتنموا كل فرصة قد تدفعهم نحو سهولة الإنتاج وزيادته، ولهذا، هب هؤلاء لاستخدام المحرك البخاري – عندما اخترعه جيمس وات – كي يزيدوا قوة الماء التي تدفع التول.

ولكن عندما يتعلق الأمر بالعمالة، كان هؤلاء بعيدين كل البعد عن التفكير الإيجابي، فقد كانوا أقرب إلى السيد الإقطاعي منه إلى صاحب عمل متورٍ، وضمت المراتب الدنيا من عمال المصانع بعض أكثر الأعمال سوءاً في التاريخ، ويقع المبتدئون في أدنى المراتب، وأكثراهم حدانةً ووضاعةً هم نقابو النساجة.

وكان ينظر إلى شاغلي هذه الوظيفة ك مجرد سلع. ونستطيع تلمس هذه الفكرة بوضوح من خلال تتبع تاريخ أحد المصانع، لا وهو كواري بانك في ستايل، الواقع على أطراف مانشستر. وبعد كواري بانك الآن متاحفاً رائعاً للفترة الصناعية، فهو لا يضم آلات ذلك العصر فحسب، وإنما يتجاوز ذلك ليضم سجلات حياً للناس الذين عملوا في تلك المصانع.

وقام مالك المصنع عام 1791 وبذريعي صموئيل كريغ، وهو الذي كان يعدّ أقصى صاحب عمل في ذلك العصر، بابتكر طريقة غير مألوفة لمشكلة نقص العمالة. فقرر شراء بعض الأطفال المتهنيين من إصلاحية الأحداث المحلية، كما قام بناء دار للمبتدئين كلقتنه 300 جنيه إسترليني، أسكن فيها تسعين طفلاً، وأسهم هذا الاستثمار في إيجاد روح تجارية جيدة، ودفع هذا الأبرشيات لأن تعرض على مالكي المصانع حلويات قد تبلغ حصة الطفل منها من رطليين إلى أربعة أرطال، إذا وافق مالكو المصانع على إخراجهم من الإصلاحيات. وبهذا حصل مالك المصنع على ماله قبل أن يباشر هؤلاء المبتدئون عملهم. وشكل هؤلاء المبتدئون



تظهر الصورة التي تعود للعام 1823 أداة التي على الجامعين والذين العمل عليها مدة التي عشرة ساعات في اليوم. ويظهر في سار الصورة منتب يقبع تحت الآلة لجمع أجزاء القطن المتساقطة. قد تدور هذه الآلة بالأبيض والأسود غير مصرة، بيد أن حركة غلطة قد تجعلها تشرع وتغلق.

نصف القوة العاملة في «كواري بانك» البالغ عددهم ستين ولدوا وثلاثين بنتاً، كان بعضهم في الثامنة من عمره. وكان هؤلاء يستيقظون مع بزوغ الفجر في مساكن تومن لهم فرائشاً واحداً لكل زوج منهم ليذودوا مناوية قد تطول أثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة، وتلقوا مقابل عملهم هذا طعاماً وإقامة، ومصروفًا يبلغ بنسين في الأسبوع.

وكان الأعمال الابتدائية التي قد يشغلها الممتهن في بداية مشواره العملي هي «التجميع»، وتتطلب هذه الوظيفة الانحناء فوق التول للف أطراف القطن المتكسر بعضها مع بعض، أما العمل الآخر فهو «التنقيب»، ويطلب النظر في النساجة التي اخترעהها كومبتون، وكانت تسمى حينها «ميول» (Mule) وهي ذات الكلمة التي تعني بغالاً.

وضمت هذه المهمة خطورة التعرض لحادث قد ترتب عليه مشاكل صحية طويلة

الأمد، وكانت هذه المهنة مملة وقاسية في آن واحد. وتطلب القيام بها العمل في ظروف مهنية جديدة، لا هي المصنوع.

وبالطبع، لم يكن مصنوع «كواري بانل» - وهو في ذروة تشغيله - مزurgaً كمنصة المدفع على السفينة، لكنك تعلم تماماً أن المدفع مستوقف في وقت ما، في حين أن أصوات الحبطة والفعقة الصادرة عن الآلات كانت سردية، وشكلت ضجة مربركة جعلت الاتصال البشري إليها مستحيلاً تقريباً.

اضف إلى ذلك الحرارة الحارقة والهواء الثقيل. فلمع القطن من الجفاف، كان يجب المحافظة على جو العمل دائناً، ورطباً. وقد يتسبب غبار القطن المتطاير في إصابات معدية للعين، ومرض الرئة المسمى بسينوسيس (Bissinosis). والعبرة التي نستخدمها هذه الأيام للإشارة إلى كوننا منهكين، ومستهلكين، ومنبوذين هي «كالعمل في مصنع»، وهذه العبارة مستمدة من أثر العمل في هذه الصناعة الوليدة على وضع الناس الجسدي.

كان عمل النقاب بسيطاً، ففي أثناء تحرك النساء إلى الأمام والخلف لنسج الخيوط إلى بعضها، قد تساقط بعض الأجزاء، وقد يتجمع زغب القطن في الأسفل وعلى الأجزاء المتحركة. ويجب جمع هذه الأشياء لئتم إعادة استعمالها مرة أخرى وتجنب وقوع الحوادث.

ويتلقي الحانكون أجراً هم وفق عدد القطع التي يقومون بإنتاجها، ولهذا لم يكن التول يتوقف لأي سبب كان. ويقوم النقابون، صغار السن، بال العدو جيحة وذهاباً على أيديهم وأرجلهم تحت التول وفي أيديهم فرشاوات وأكياس، حماولين تجنب الأذرعة المعدنية، وزاحفين للابتعاد عن طريق الآلات. وكان غبار القطن الحارق الذي يملأ غرف المصانع سريعاً الاشتعال. ولهذا كان النقاب يحمل بقدميه عاريتين عوضاً من ارتداء قباهة الاعتيادي ذي التعل المسماري، الذي قد يصدر شرارة تؤدي إلى حريق.

وكانت سلامـة هؤلاء الأطفال ترتكز على مزامنة حركاتهم مع وقـع النساجـة. فإذا ما علقت يد بخيوط التول، أو انتهـي بها الأمرـ في مـكان خـاطـئ عند عـودـة الذـراعـ المـعدـنية الثـقـيلة إـلـى مـكـانـهاـ، فإنـ كـارـثـةـ مـحـقـقـةـ قدـ تـحدـثـ. وـ فـي ذـاكـرـةـ المـصـنـعـ، لاـ يـتـمـ تسـجـيلـ سـوىـ الـحوـادـثـ الصـحـمـةـ، فـفـقـدانـ إـبـصـعـ أـوـ يـدـ يـمـ يـعـدـ جـديـراـ بـالـذـكـرـ.

ولا يخفى على أحد أن الزحف على اليدين والركبتين طوال الوقت مرهق جداً، وأن



سكن العمال في كواري بانك. للتأن تخيل حجم العمال من حجم الأسرة الصغيرة.

الأطفال الصغار غير حذرين معظم الوقت. وقد يصبح التركيز مستحيلاً بعد قضاء اثنتي عشرة ساعة في تلك الحرارة. لهذا لم يكن أمر وقوع الكثير من الحوادث مستغرباً. وتم تسجيل الحادثة التالية في كواري بانك:

وقع في السادس من مارس عام 1865 حادث مأساوي لغلام يدعى جوزيف فودين كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً. بينما كان يكسس تحت إحدى الآلات. علق رأسه بين العارضة долولية والحامل - الذي كان يعود إلى مكانه - مما أدى إلى سحق رأسه بالكامل - وكانت وفاته فورية.

يبد أن المشرفين لم تأخذهم شفقة إزاء تقصير هؤلاء الصغار، فأي تقصير في العمل كان عقابه الضرب بعصا أو حزام. وفي إحدى المصانع، كان ثمة حوض مائي يغمس فيه أي طفل يوجد يتربّح نعساناً.

وكان هناك بالطبع هاربون من هذا السجن الافتراضي، فتوماس بريسلி، الذي فقد السبابة في إحدى الآلات قد قرر مع مبتدئ آخر يدعى جوزيف سيفن، شق طريقه نحو الحرية. ولقد كشف بريسللي في شهادته أمام قاض، في ميدلسبيكس بعد هرويه أن المبتدئين لم يتم منحهم استراحة طعام مناسبة. «وكانت ساعات عملنا تبدأ الساعة السادسة صباحاً صيفاً وشتاءً، وتستمر حتى السابعة مساءً، وكانت وجة القطعور تأثيرنا على الدوام إلى المصنع، ويتم منحنا، خلال يومين في الأسبوع فقط، ساعة لتناول العشاء».

انتج «كواري بانك» 342,578 متراً من القماش. وتضاعف الإنتاج بعد عقد من الزمن، وأعتقد مالكو المصنع كصموئيل كريغ أنهم سيخررون الكثير، ولن يجتروا شيئاً إن عاملوا عمالهم بطريقة أفضل.

ورغم ما سبق، أخذ البندول خلال القرن التاسع يتراجع، وتغيرت الظروف بشكل كبير، واستهل هذه التغيير عام 1818 عندما بدأ غازلو القطن في مدينة مانشستر إضراباً عاماً. وقد هذا النزاع إلى وقوع مجذرة بيترلو المفزعية. ولكن لم يكن مقدور أحد الوقوف في وجه حرارة حقوق العمال. وبحلول عام 1833، حظر قانون المصنع توظيف عمال لم يلغو التاسعة من العمر أو استعمالهم، وبدا حينها أن الأمور على وشك أن تتحسن.

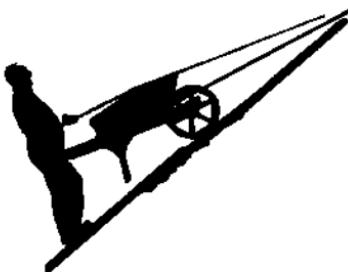
قد لا يكون هذا الأمر صحيحاً، فالعمال يناضلون لتحقيق ظروف أفضل، غير أن العصر الفيكتوري كان على وشك أن يزغ فجره بما يضم من أعمال سيئة تخصه.

رجال محظوظ وأطفال كادحون - صورة توضح عماله
العصر الفيكتوري.



الفصل السادس

أسوأ المهن في العصر الفيكتوري



أصبح وقع التقدم العلمي والاجتماعي خلال سنوات حكم الملكة فيكتوريا استثنائياً، ييد أن الجانب الآخر للمعجزة الفيكتورية اقتصادياً وتكنولوجياً، مثل في حياة سنتها العامة الوضاءة واليأس، وقد كانا ساندين لدى السود الأعظم من السكان ومتزايدين على الدوام. وترك لنا كتاباً من أمثال تشارلز ديكنز، والستة غاسكيل والسير آرثر كونن دويل صورة حية للمحاجب المظلم من الحياة الفيكتورية. ومهما كانت تلك القصص مأساوية، في الواقع الامر، فإن الحقيقة كانت أسوأ بكثير.

وقد هجر الملايين من سكان الريف - مدفوعين بفقرهم المدقع - حياة الريف، متوجهين صوب المدينة النامية، وبهذا أصبحوا جزءاً لا يتجزأاً من عالم الآلات المترامي الأطراف، الذي يتعجب بالدخان. وأصبح أسلوب الحياة الجديد، الذي اتباه الكثير من هؤلاء المدنين الفقراء، بعيداً كل البعد عن مثل الحياة الفيكتورية المحترمة. وانتشرت أو كار الأفيون، وأصبح تعاطي المخدرات أمراً شائعاً. ورغم الطلاوة البلاغية التي اتسمت بها المسيحية الفيكتورية، فإن أقل من خمسين بالمئة من السكان كانوا يذهبون إلى الكنيسة.

قام الفيكتوريون بفحص كل شيء، نطاله أيديهم وتصنيفه، ونستطيع تلمس آثار هذه الطريقة التحليلية في الاختراعات العلمية العظيمة التي حدثت في القرن الناسع عشر، وفي التقدم العلمي النوعي الذي حدث عبر تشارلز داروين، ونظريه الططور التي اقترحها. وقد طال أسلوب الاستقصاء هذا الجانب الاجتماعي. فلأول مرة في التاريخ، بدأ الناس في جمع ملاحظات جادة حول ما يقوم به الفقراء، وكيف يعيشون. وتشارلز ديكنز نفسه تجربة شخصية عرفته كأنه أسوأ الأعمال، فعندما بلغ الثانية عشرة من العمر، امتهن لصنف الطوابع



ثلاثة من مشاهير العصر الفيكتوري وهم من العين إلى الشمال: تشارلز ديكنز، وهنري مايهي، وشالز داروين.

الممل في مصنع وران بلاكغ بالقرب من ستاند في لندن، وأهله ذلك لتصوير الجوانب المشينة في المجتمع الفيكتوري في جميع رواياته. ولقد ترك المجال مفتوحاً أمام الآخرين، وعلى الأخص الصحفي هنري ماي هيوب لتوثيق أدق التفاصيل في حياة العمال. كرس هنري ماي هيوب نفسه للقيام بمشروع يهدف إلى تقصي جميع جوانب حياة الفقراء، وجمع قصصاً عنهم من عمال لندن الذين قابليهم بنفسه، وقام بوصف ظروف العمل التي كانوا عليها. وهو هنا يصف جزيرة يعقوب في بيرمونتساي:

سطعت الشمس على مجرى ماء ضيق، في أثناء مرورنا بفتحات التصريف التي كانت تعج برائحة لا تحتمل. ولقد ظهر لون هذا المجرى في ضوء النهار كلون شاي أخضر ثقيل، وبدا قاسياً كقطعة رخام سوداء في الظل. وفي الحقيقة، كان كالطين اللين، أكثر منه ماء متطفيناً. ومع هذا تلقينا تأكيدات مفادها أن هذا هو الماء الوحيد الذي كان السكان البوساد



مضطربين لشربه. وفي أثناء تحديقنا بفزع شديد في هذا الماء، رأينا المياه
القدرة ومياه التصريف تصبّ عالجحمله من قاذورات في هذا المجرى، ورأينا
صفاً كاملاً من الحمامات العامة لكل الجنسين، وقد تم بناؤها عليه. وسمعنا
دلاء القاذورات وهي تندلق في هذا المجرى... وسألنا إن كانوا يشربون
هذا الماء بحق.

وكان الجواب أنهم مضطربون لشرب هذا الماء، وأنهم دونه سيستجدون
قطرة الماء أو سيضطربون إلى سرقتها.

وتوجز الطرق الحديدية أفضل ما في العصر الفيكتوري وأسواه. فقد غيرت حياة من يستطيع استخدامها بشكل مؤثر جداً. وتمكن قاطنو المدن –أفراد الطبقة الوسطى– عبرها من الانتقال إلى الشاطئ، وتم خلالها نقل منتجات الريف الطازجة إلى قلب المدن دون أن تفقد نضارتها؛ كما أتاحت شبكة الخطوط الحديدية المجال أمام الصناعات لنقل منتجاتها بفاعلية أكثر، وأصبحت أقصى بقاع الجزر البريطانية متاحة للجمع، ولم يكن لهذا التغير الجذري أن يحدث لو لا آلاف الرجال الذين كدحوا ساعات طويلة، وعرضوا أنفسهم خطراً دائمًا، وعانون إصايات بالغة.

حفار السكك الحديدية/ الماهن (Navvy):

اشتقت كلمة (Navvy) وتعني «ماهن» من الكلمة (Navigator) وتعني «الملاح» أو «المستكشف» إشارة إلى الرجال الذين شقوا قنوات الملاحة العظيمة، غير أن حفر شبكة من القنوات كان مجرد تدريب بسيط على عملهم الهائل في مد شبكة ضخمة من السكك الحديدية، سرعان ما غطت جميع أرجاء بريطانيا.

فقد بلغ طول السكك الحديدية عام 1830 سبعة وتسعين ميلًا، وارتفع العدد عام 1840 إلى ألف وأربعين وسبعين ميلًا، وبلغ، عند وفاة الملكة فيكتوريا، اثنين وعشرين ألف ميل، وهذا رقم يفوق ما لدينا هذه الأيام. وقد تم حفر كل إنش من هذه الشبكة الضخمة ومدّه يدوياً، أو لنقل عبر ملايين الأيدي.

وكان على المُهَان إعادة تشكيل الأرض أمامهم، فقد كان عليهم رفعها عندما تنخفض، وحرقها أو المرور عبرها عندما ترتفع. وكانت أدواتهم الوحيدة هي العربة، والمحفار، والمول. وعَدَّ عملهم هذا بعيد المنازل.

وقد بلغ عدد المُهَان في بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر مئتين وخمسين ألفاً، جاؤوا من جميع أرجاء بريطانيا كالإنكشار، وبيوركشاير، وإسكتلندا، وغداً معظمهم، بعد مجاعة البطاطس العظيمة، إيرلنديين. وأقام هؤلاء في أكواخ بنيت بالقرب من الخطوط التي كانوا يمدونها. فقد كان الكوخ الراسع منزلًا لعشرين رجالاً، وتكلفة السرير بنساً ونصف البنس في الليلة. وقامت مدن كاملة من تلك الأكواخ في هذه المستعمرات الصغيرة، أطلق

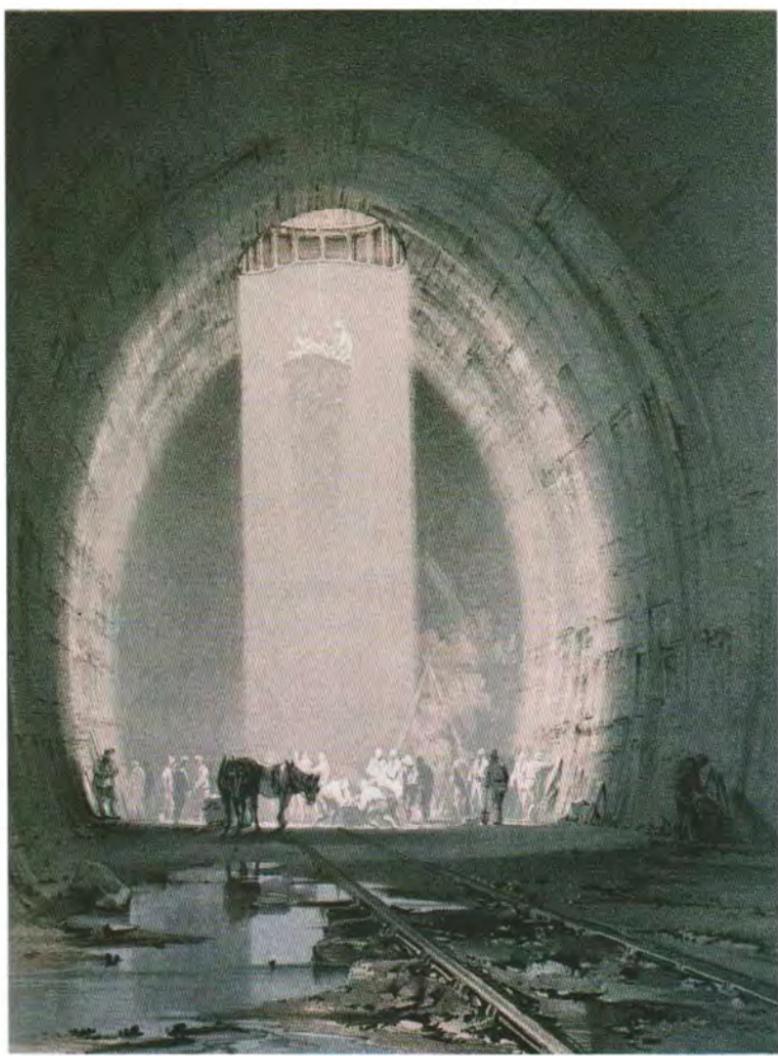


كانت سكك الحديد التي منها المأهرون معجزة هندسية شبه كاملة. ونظهر في هذه الصورة شبكة السكة الحديدية الممتدة وقد اُلْتَفِتَت تحت جسر ضخم.

عليها أسماء مثل «باثي غروم» (bathy grom) وجيروك (Jericho). وبلغ عدد القاطنين في هذه التجمعات المدنية المؤقتة في وودهيد، الواقعة بين مانشستر وليفربول عام 1845م، ألفاً وخمسة وأربعين رجلاً.

وبدا هؤلاء كجيش غازٍ حظي بكرامة السكان المحليين، الذين كانوا يخافونهم أيضاً. وقد أعلن الملازم يتر ليكون من سكة حديد لندن وبرمنغهام عام 1838م، أن المهاجرين كانوا «مصدر رعب للريف المحبيط، فقد شكلوا طبقة قائمة بذاتها مثل الغجر تماماً... ولا يماثل سلوكهم الوحشي سوى همجية لعنتهم».

واستمتع هؤلاء المهاجرين بعما كان لهم المنبوذة، فقد كانوا يرتدون ملابس متميزة، كالبناطيل المصنوعة من جلد الخلد، وقمصان الخيش ذات الطبقتين، المناسبة لأداء عملهم الشاق،



كانت أنفاق السكة الحديدية تُحفر في المتنصاف، وكان المهاهون يحفرون في الأعلى لشق صدوع التهوية، ومن ثم يقرونون باستخدام الخجارات والقروة المحشدة بحفر الأنفاق باتجاهين لتسريع العمل.

ومعاطف مخملية خيّطت على شكل مربعات، وجزمات ذوات كعب مسماري، وصدريات تلونت باللون الطيف السبعة مما يرتديه الفراصنة في العادة، ومنديل زاهية الألوان، وقبعات بيضاء من اللباد عندما يكونون في استراحة.

وكان هؤلاء يعرفون باللقب كـ «جاك القاتل» أو «جو الغجري» بدلاً من أسمائهم الحقيقة، وكان لهم قواناتهم وقواعدهم الهمجية الخاصة بهم. وقد قاموا باختراع حفل زواج خاص بهم، يقوم فيه الزوجان بالقفز فوق مكتبة في غرفة مليئة بالمهان، ومن ثم يتقاضا الزواج في الغرفة نفسها، أمام الحضور الذي يأخذ بالتناجي والهمس.

كانت حياة هؤلاء المهان قاسية جدأً، وكان يتوقّع من الماهن، اعتماداً على حصته اليومية من الطعام – التي تبلغ رطليين من لحم البقر، وغالوناً من البيرة – أن ينقل عشرين طناً من التراب في كل مناوبة له. وعُذّ بناء الحواجز التي تم فرقها السكك الحديدية عملاً صعباً في حد ذاته. فقد كان على عربات التراب والصخر أن تصل إلى أعلى الارتفاعات المراد الوصول إليها، وذلك عبر ممرات خالية باستخدام حبل مربوط معرض للانقطاع على الدوام. ويقوم على جر العربات حصان مربوط ببكرة في إحدى طرفيها العربية، وفي الطرف الآخر حرام أحد العاملين. وعند إعطاء الإشارة، يتقدّم الحصان إلى الأمام رافعاً العربية فوق الحاجز، وكانت هذه الطريقة تعرف بـ (Making a running) وتعني «إحراز سبق»، وكان على الماهن، الذي يسحبه الحصان، أن يرتفق المتحدر الذي قد تبلغ درجة انحداره خمساً وأربعين درجة لتوجيه العربية الثقيلة. فإذا ما كان الحصان ثابتاً، فإن جميع الأمور ستسير على خير ما يرام، ولكن إن انزلق أو تعرّى فوق سبخة ما، فإن العربية ستتقلب. وكان على الماهن – إذا ما حدث ذلك – أن يدفعها بعيداً عنه، كي لا تسقط فوقه في أثناء سقوطه، والعربية في الأسفل.

ومن مهام الماهن أيضاً حفر الأنفاق؛ وهو العمل الذي عد أكثر خطورة من سابقه. فالضوء الوحيد الذي كان مستخدماً في الظلام الدامس ضوء الشمعة، ولهذا كانت احتمالية أن تشعل هذه الشعلة الضعيفة قبل المفجرات، قائمة على الدوام. وكانت الحوادث شائعة إلى حد عجيف، فقد لاقى اثنان وتلائون رجالاً حتفهم خلال بناء نفق (وودهيد)، الذي استمر من عام 1839 إلى عام 1845، وبلغ عدد المصاين بجراح بالغة مائة وأربعين رجلاً، في حين أن عدد المصاين بجراح خفيفة قد بلغ أربعين رجلاً. ويشكل هذا العدد ثلاثة بالمائة من مجموع

من الأطفال، قد يبلغ عدد أفرادها الأربعين أو الخمسين، تغادر قراها عند الساعة السادسة في الصباح، تمشي ما مدخله ميلان أو ثلاثة أميال للوصول إلى العمل، كجزء من عملهم الطويل الذي يمتد أربع عشرة ساعة. ويزودون، فور وصولهم إلى المزرعة التي يعملون فيها، بدلاً أو سلال ليقوموا بتعبيتها بالحجارة، التي عليهم تفريغها في عربة. وفي أثناء رحفهم على الأرض، ساعة تلو أخرى، كان ثمة رجل يحمل سوطاً يمشي خلفهم، ويقوم بضرفهم إذا ما أبدوا أي تكاسل في العمل. ويتلقى هؤلاء بنساً واحداً مقابل كل سلة كبيرة من الحجارة. ويتوقع منهم القيام بعملهم في جميع الظروف الجوية بما فيها الريح، والبرد، والتلخ المخلوط بالملط، كما كانوا يتناولون طعامهم البارد تحت سياج المزرعة. ولم يكن لهؤلاء عطل رسمية، باستثناء أيام المطر الشديد والآحاد.

وكان العمال القرويون في إيست آنجليا - فضلاً عن قسوة حياتهم اليومية - معرضين «لحمي المستنقعات». وكان من أعراض هذا المرض الغامض، ارتعاش شديد، وترقق، وألم في الأطراف. وكان يعتقد أن السبب الكامن وراء هذا المرض هو الجو الحارق الناجم عن تعفن الحضار، غير أن هذا المرض لا يعدو أن يكون شكلاً من أشكال الملاريا الذي قد تسببه عضة من بعوضة تنشأ في جو المستنقعات الرطب. ويتناول العمال، لتخفيض حدة الألم، شكلاً من أشكال الأفيون الذي كانوا يدعونه «كمفورت»، وهو يؤخذ كدخان أو حبوب. وقد أوردت مجلة لينكولن ميركورى في تقريرها عام 1846:

لقد ازدادت حالات تعاطي الأفيون، واللوردون، والأثير، والمورفين، وعدد المتعاطين بين سكان مستنقعات كامبردج شاير ولينكولن شاير في إزيدياد دائم إلى حد مخيف. والتعاطي شائع بين كبار السن، والعجزة، والشباب. وقد أصبح من الشائع رؤية الرجل أو المرأة في العشرينات أو الثلاثينيات أو الأربعينيات من العمر بعلامٍ شديدة الشحوب، وقامات متمايلة، وخطوات مثاقلة، يسعون للحصول على سهم، الذي قد لا يزيد سعره عن ستة بنسات.

والقى على عاتق الأطفال في الريف القيام بجموعة كبيرة من المهن الأخرى، التي تتطلب ساعات عمل طويلة في أوضاع سيئة، والملل سماتها العامة، فبعضهم عمل كمفرع طيور، ولقد قام هؤلاء، بالجري طوال اليوم حاملين ما يخششون به. وبعضهم عمل كمستدعي سمل الرجحة، وكان هؤلاء يقفون دون حراك فوق جرف متظربين إشارات قدوم جموعات سمل الرجحة ليستدعوا الصيادين.

ولكن، لم يكن أطفال المدن مصنعين من القيام بأعمال مفرعة. فالصانع أنتج أطناناً من السخام، وأصبحت مباني غلاسكو، وبرمنغهام ومانشستر الفارهة، المبنية من الطوب الأحمر، والمناطق المكثفة ذات الشرفات في لندن، مقطة جميعها بالأوساخ، وكان السبب وراء ذلك هو الفحم، الذي استخدمته أعداد الناس المتزايدة لتدفئة بيوتهم، واستخدمته الصناعة بلا هدأة. ونشر الفحم السخام، الذي يعني منظف المداخن.

منظف المداخن (Chimney Sweep):

إن صورة الغلام منظف المداخن وهو يتسلق ظلمة أنابيب المداخنة، لهي واحدة من سمات الحياة الفيكتورية. وتعد هذه الوظيفة بحق واحدة من أسوأ المهن في ذلك العصر، فقد تم إبقاء الأطفال جوعى وهزيلين كى لا يعلقوا في المداخن. وأصبحت مساحة فتحات المداخن في العصر الفيكتوري ضيقa إلى حد غير مقبول، وعلق داخلها الكثير من الأولاد؛ ولقي بعضهم حتفه، وكان هؤلاء، في ظل ارتفاع مداخن المنازل في المدينة، معرضين لخطر السقوط، وبهذا أصبحت الأطراف المكسورة شائعة.

وكان الغلمان المتسلقون أطفالاً قام منظف المداخن باختيارهم من الشارع مجرد النظر إليهم، سعياً منه لتوفير أجور مرتفعة. وقد تكون شخصية توم في أعمال تشارلز كينغزلي، التي تشبه شخصية أوليفر توبيست - طفل الشارع عند تشارلز ديكنز - محاولة واعية لجعل جمهوره يرى فرداً من فقمة، لافتة لا اسم لها من العاملين.

الفجر بالصراح عندما يقى أن عليه تسلق قوهة المداخنة المظلمة، حاكاً ركتبه وكونيه بجدران المداخنة حتى انسفح الجلد عنها؛ وعندما دخل



ماضي المدحنة والطفل التسلق. يستطيع صغار السن أن يحتذروا أنفسهم في أضيق المذاخن، كما اتخد هرزلاء براءة الطفولة المعهودة نتيجة لقيامهم بهذا العمل.

السخام إلى عينيه، وهو ما يحدث في العادة في كل يوم يعمل فيه؛ وعندما قام رئيسه بضرره، وهو ما يحدث في العادة كل يوم؛ وعندما لم يكن لديه ما يكفيه من طعام، وهو ما يحدث كل يوم.

شارلز كينغلي، أطفال الماء

ولكن، هل كان الفيكتوريون يكرنون لأمر هؤلاء؟ في الحقيقة، نعم، فلقد سن قانون عام 1840، أي بعد بداية الفترة الفيكتورية بثلاث سنوات، يحظر قيام أي شخص لم يبلغ الحادية والعشرين من عمره بدخول مدخنة.

غير أن غرامات خرق هذا القانون كانت تافهة، وكثيراً ما خُرق، وذلك لأن المكائن المستحدثة التي تم اختراعها حديثاً في تلك الفترة، كانت باهظة الثمن بشكل فاق أجر الفلاحين المتسلقين. ولم يبدأ العامة بالتوقف عن اتباع سياسة غض النظر عن أوضاع هؤلاء الأطفال، إلا بعد أن أخذ شارلز كينغلي بالكشف عن أوضاع هؤلاء الأطفال في منشوراته الاجتماعية الساخرة المسماة أطفال الماء (The Water Babies) بين الأعوام 1862 و1863. وقام اللورد شافتسربي باقتراح قانون جديد رفعت به الغرامة إلى عشرة جنيهات إسترلينية.

وبحلول الفترة التي كان هنري ماي هيو يكتب فيها، أي بعد بداية الفترة الفيكتورية بخمسة وعشرين عاماً، جعلت حركة الإصلاح منظفي المداخن يتحسرون على الأيام الخوالي الملوثة.

أكمل أحد منظفي المداخن الكبار، الذي كان عادة يستحم في مارييليون مرأة أو مرتين في الأسبوع، أن عادة الاغتسال قد أصبحت شائعةً بين زملائه أصحاب وكالات تنظيف المداخن أكثر مما هي الحال عندما كان قتي متسلقاً، هذا رغم أن العديد من أصحاب الوكالات هذه الأيام يتناولون طعامهم وشرابهم وينامون وهم يلتحفون السخام. وكان يقوم بخلع ملابسه، ويضطر إلى دخول حوض بارد في بعض الأحيان، وحوض ماء ساخن في أحيان أخرى، بينما تقوم خليلته - ونحن هنا نستخدم كلمته -

بتنظيفه. وقد أصدر مخبرو أحکامه اعتماداً على ما رأوه وما شاهده خلال خبرته التي تراوح بين الثلاثين والأربعين عاماً أن الفتى المتسلقين، باستثناء عدد قليل منهم، كانوا نادراً ما يغسلون، وكانوا ينظرون إلى الاغتسال كعملية غير مرغوب فيها، بل إنها شكل من أشكال العقاب. وقد يقوم سيد الفتى المتسلقين بجلبهم إلى سيربيتايون للاستحمام، لكن، لسوء الحظ، لفي أحد الفتى حتفه غرقاً، مما جعل أمر جلب الفتى المتسلقين للاستحمام أمراً صعباً للغاية.

هاري ماي هيو، العالة والفقير في لندن، المجلد الثاني

صائد الجرذان (Rat Catcher)



شكلت الجرذان مشكلة كبيرة في الشوارع والمغارى القدرة خلال الفترة الفيكتورية في بريطانيا، وبخاصة في المدن الكبيرة. ويتم في العادة استدعاء صائد الجرذان للتعامل مع هذه المشكلة عندما تتأزم الأمور وتخرج عن نطاق السيطرة. وفي حال استدعائه، قد يظهر صائد الجرذان أمام بيتك مزوداً بكل ما تحتاجه هذه المهنة من متطلبات؛ زجاجة ضخمة من سم مكونه الأساسي الزرنيخ، وكلب صيد ذي شعر قصير جداً.

ويتلقي صائدو الجرذان زهاء أربعة شلقات لتخليص المنطقة من الجرذان، وسد جميع الفجوات. ولم يكن صيد الجرذان يعني بالضرورة قتلها، بل إن معظمها يصاد

حيًا. ويقوم صائد الجرذان فيما بعد ببيع الجرذان بثلاثة بنسات لكل جرذ، مما قد يرفع دخله بشكل كبير.

ولكن كيف كان يقوم بعمله؟ ترك ماي هيولنا صورة حية لأحد صائدي الجرذان هو جاك بلاك. كان جاك صاحب حانة فاشلاً ارتقى ذروة عمله كصائد جرذان ملكي خلال فترة حكم الملكة فيكتوريا. ولم يكن هناك من مرتب في آدائه لعمله. ارتدى جاك بنطالاً من قماش محزر، وسترة تملية، وحزاماً جلدياً غريباً مرسوماً عليه جرذان، وحمل جرذاً كحيوان أليف، يدخل عبر كتفه ليصل إلى جيبه. وكانت له رائحة قوية ناجمة عن استخدامه زيت الزعتر والبنسون اللذين كان يفرك جسمه بهما، لاعتقاده أنهما يجذبان الجرذان.

ويصل صائد الجرذان عند استدعائه ومعه كلاب الصيد، وأبناء معرض، وهي حيوانات مفترسة قد يشتري الواحد منها بأربعة بنسات من سوق ليدنهال. كما يجلب معه قفصه الحديدى الضخم الذى قد يتسع لألف جرذ متلو، ويقوم بسد جميع منافذ الجرذان باستثناء واحد، يرسل عبره حيوانات أبناء معرض يجعلها تدفع الجرذان لتنحصر في منطقة معينة، ومن ثم يقوم بمد ذراعه عبر الفتحة الوحيدة المتأحة للجرذان، فيمسك بها واحداً تلو الآخر. وكانت عملية وضع اليد هذه ناجحة جداً، فقد تمكّن من الإمساك بسبعينة جرذ حي ضمن عقار واحد في مدينة كامدن.

ولهذا كان تعرض صائد الجرذان للعضات أحد مخاطر عمله. وكانت جرذان التصريف الصحي وجرذان الشوارع تحمل أمراضاً معدية. فقد تعرض جاك لمرض جعله يتغيب عن عمله ثلاثة أشهر كاملة، وهذا بالطبع يعني انعدام الدخل خلالها. وقد تورم جلده خلال مرضه، ولم يعالجه سوى شرب الجعة القوية. ولم تكن عضات الجرذان تتطلب عناية فائقة، فلقد ورد عن جاك بلاك نفسه قوله: «لا أستطيع أن أذكر لك كل مكان تلقّيت فيه عضة، فأصبح إبهامي، الذي - كما ترى هنا - مجرحاً على الدوام. ومع هذا فقد مضت سنوات قبل أن أعراض بجرح».

وتكون المفارقة في أن السبب الوحيد الذي من أجله خاطر صائد الجرذان بحياته، وتحمل الآلام والعدوى هو الإمساك بالجرذان ليتم قتلها علينا أيام العامة. ويقوم أصحاب الحانات سعياً

منهم وراء ربع وغيره، بعقد أسميات قتل جرذان غير قانونية في حلبة خشبية داخل حاتاتهم، ويتم خلال هذه الأسميات، إطلاق سراح كلاب الصيد بين تجمع جرذان متذبذب، وتنم قبل عملية القتل، وضع رهانات على عدد الجرذان التي قد يتمكن كل كلب من قتلها، أو فيما إذا كان عقدور الكلب الصمود أمام الجرذان الضاربة.

وكانت هذه التجارة مربحة عند مقارتها بالأعمال الأخرى، فقد قامت إحدى الحاتات بشراء ستة وعشرين ألف جرذ خلال سنة واحدة، قامت عشرون عائلة مختلفة بالإمداد بها، والمبلغ الإجمالي الذي أنفقته إحدى حاتات ليست إيند على الجرذان هو ثلاثة وخمسة وعشرون جنيهًا إسترلينيًّا، أي ما يعادل سعر بيت متواضع.

شكلت الجرذان في لندن مشكلة مستعصية، تأثر فيها الغني قبل الفقير، وكانت الشركات التجارية من زيان جاك بلاك، فضلاً عن رجال الدين، والملكة نفسها. والجرذان حيوانات تأكل النبات والحيوان؛ وعندما تجوع، قد تقضم لقيمات من الحيوان، وقطعان الماشية، كبيرة وصغيرة، وحتى الأطفال الصغار.

تقوم الجرذان، كالأرانب تماماً، بأكل بعضها، وهذا ما شاهدته أيام عيني، وقد رأيتها تحجب أكل جلود الحيوانات الميتة - وهي هنا تشبه القطط - وتتناول اللحم الجميل النظيف، الذي أقسامه حديدية صنعتها بنفسها قد تسع لألف جرذ مرة واحدة، ولطالما امتلأت هذه الأقباصل بالجرذان. قد لا يصدق أي منكم عدد الجرذان الذي تضممه هذه الأقباصل، وكيف تقاتل وبهرج بعضها بعضاً. إنه لشيء عجائب! لم أجده خلال احتفاظي بعدد كبير من الجرذان، أيا منها مختنقأ، ولكن إن لم تطعمها يومياً، فقد تقاتل ويأكل بعضها بعضاً، وتقوم بهذا كأكله لحوم البشر.

وفي إحدى الليالي، كان لدى متناجرذ في قفص، ووضعه في غرفة جلوسي ويمكن كلب أحد الرجال من الوصول إلى الفص وفتح الباب، فأطلق جميع الجرذان في المكان. فدخلت الغرفة على الفور، وكانت قد عرفت

أنها قد أصبحت طلقة من راحتها.

واضطررت لأن أبحث عنها - وأنا جاث على ركبتي - تحت الأسرة، والمقاعد، وفي جميع أرجاء المكان. وتمكنـت قبل أن تدق الساعة الثانية عشرة من الإمساك بها جمـيعاً ووضعـها في القفص، وقـمت بـبعـها فيما بعد لاستخدامـها في المباريات لاحقاً. وكـنت خـاتـماً جـداً مـن أن تقوم بـقصـم جـزـء من جـسـد الأـطـفال. بـعـد أن كـنـت قد اـحتـفـظـتـ بهاـ فيـ منـزـلـ لـاقـيـ فـيـ بـعـضـ الـأـطـفـالـ قـصـمـاتـ جـرـذـيةـ.

هـزـيـ ماـيـ هـيـرـ، العـمـالـةـ وـالـفـقـرـ فـيـ لـندـنـ المـجـلـدـ الثـالـثـ.

وـقـامـ صـائـدـوـ الجـرـذـانـ بـتـحسـينـ دـخـلـهـمـ عـرـضـ بـضـاعـهـمـ، وـكـانـ جـاكـ يـدـعـ الجـرـذـانـ تـسلـقـ فـوقـ ذـرـاعـيـ، وـعـلـىـ جـسـمـهـ، بـيـنـماـ يـقـومـ بـالـتـمـلـيـسـ عـلـيـهـاـ وـالـلـعـبـ مـعـهـ. وـكـانـ لـصـائـدـيـ الشـرـانـ عـمـلـ إـصـافـيـ آـخـرـ، فـقـدـ كـانـواـ يـعـونـ السـمـ، وـيـتـبـونـ فـاعـلـيـتـهـ أـمـامـ زـيـانـهـمـ الـمـسـتـقـبـلـينـ عـرـبـ إـطـعـامـ السـمـ لـلـجـرـذـانـ فـيـ أـفـاقـاصـهـاـ وـمـشـاهـدـهـاـ وـهـيـ تـقـضـيـ.

غـيرـ أـنـ السـمـ لـيـكـنـ مـسـتـخـدـمـاـ مـعـ الجـرـذـانـ فـقـطـ، بلـ إنـ روـادـ الصـنـاعـةـ كـانـواـ فـيـ سـعادـةـ عـامـرـةـ لـتـعـرـيـضـ عـامـلـيـهـمـ لـمـوـادـ ضـارـةـ فـيـ سـعـيـهـمـ لـجـنـيـ أـربـاحـ طـالـلـةـ. وـلـيـسـ هـنـاكـ مـنـ مـجـمـوعـةـ عـمـالـ عـانـتـ الـأـمـرـيـنـ مـنـ عـوـاقـبـ جـشـعـ رـوـسـائـهـاـ فـيـ الـعـلـمـ أـكـثـرـ مـنـ صـانـعـيـ الـكـبـرـيـتـ.

صـانـعـ الـكـبـرـيـتـ (Match Maker):

كـانـ عـيـدانـ الثـقـابـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ تـصـنـعـ عـرـغـصـ العـيـدانـ الخـشـبـيـةـ الصـغـيـرةـ فـيـ الـفـسـفـورـ الـأـيـضـ. وـتـسـبـيـتـ الـأـدـخـنـةـ النـاتـجـةـ عـنـ هـذـاـ مـرـكـبـ الـكـيـمـيـاـئـيـ السـامـ بـإـيجـادـ وـضـعـ مـخـيفـ عـرـفـ «ـبـالـفـلـكـ الـمـسـحـورـ»ـ الـذـيـ تـسـبـبـ فـيـ تـهـيـيدـ حـيـاةـ صـانـعـيـ أـعـوـادـ الـثـقـابـ. وـأـعـراضـ هـذـاـ مـرـضـ هـيـ الـلـمـ فـيـ الـأـسـنـانـ، وـاـنـتـاخـ فـيـ الـلـثـةـ وـالـفـلـكـ، وـمـنـ ثـمـ ثـانـيـ الـخـرـاجـاتـ وـالـإـطـلـاقـاتـ الـمـفـرـرـةـ النـاتـجـةـ عـنـ التـهـابـ صـدـيـديـ حـادـ دـاـخـلـ الـأـسـجـةـ، وـتـبـدـأـ عـظـامـ فـلـ الـمـصـاـبـينـ بـالـمـرـضـ بـإـصـدارـ ضـوءـ شـبـحـيـ، كـمـاـ هـيـ حـالـ الـعـابـ الـأـشـيـاـ الـتـيـ تـضـيءـ لـيـلـاـ. وـالـعـلاـجـ الـوـحـيدـ كـانـ عـلـيـ جـراـحـيـ مـؤـلـمـةـ وـمـشـوـهـةـ، يـتـمـ فـيـهـاـ اـسـتـصـالـ الـفـلـكـ تـعـاماـ. وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ حـظرـ الـفـسـفـورـ



أبناء مفترض وكلاب الصيد، وهي عنصر أساسى في وظيفة صائد الجرذان، فقد كانت تقود الجرذان المترقبة إلى يد صائد الجرذان اللذين تتبعه منها رائحة البسون.

في السويد وأمريكا، إلا أن الحكومة البريطانية قد رفضت أن تخذل حذوهم. معللة هذه الخطوة بأن خطر الكريبت سيقיד التجارة الحرة.

إن مصلحة لويس وآن، القائمة على وارف رود في بيشال غرين، وهي مكان شديد الصغر، يعمل فيه ستة رجال وثمانية عشر ولداً. ويكون المكان من شققين صغيرتين. إحداهما منحدرة السطح، بينما الأخرى زرية لعربة. ويلغ طول مساحة هذه الزرية وعرضهاـ وفقاً لتقديراتي الشخصيةـ عشرين قدمـاً بـأـحـدـ عـشـرـ قـدـمـاً فـقـطـ دون وجود تهوية من أي نوع. والباب موجود في أحد أطراها، والنافذة الوحيدة القرية منه. ويستخدم هذا المكان لغايتين كفرفة غمس ومجفيف، ومكان لمرج الكريبت والفسفور وتسخينهما. ويساعد الغامس في مزج محلول طفل صغير رأيته إلى جانب يحرك المزيج؛ وفي الواقع كان يتحمـي فوق حجر الغمس. وستانرك مجرد دخولك هذا المكان أن الراطة الصادرة خانقة تماماً، وتستطيع أن تجزم أن أحـدـاـ لـنـ يـتـحـمـلـهاـ قـرـةـ منـ زـمـنـ مـهـمـاـ كـانـ وـجـيـزةـ. والـسـقـيـفـةـ الـأـخـرـىـ لاـ تـخـتـلـفـ عـنـ سـاقـيـتهاـ؛ فـهـيـ دونـ تـهـوـيـةـ، وـتـبـلـغـ أـعـدـاـهـ ثـلـاثـيـنـ قـدـمـاـ بـعـشـرـةـ أـقـدـامـ. وـتـمـ فـيـ هـذـهـ السـقـيـفـةـ، الـخـطـوـاتـ الـتـبـقـيـةـ لـإـنـاجـ أـعـوـادـ الثـقـابـ. وـتـسـتـطـعـ مشـاهـدـةـ دـخـانـ أـيـضـ دـائـمـ مـنـ أـعـوـادـ الثـقـابـ.

تقرير السيد وايت حول مصنع أعاد ثقاب لويسفـرـ، اللجنة المشكلة حول عملية الأطفال، التقرير الأول المجلد (18)، 1863.

وتشتهر بائعات أعاد الثقاب الفيكتوريـاتـ لدىـ الـكـثـيرـ منـ النـاسـ صـورـةـ عـاطـفـيةـ للـقـيـطـاتـ يـجـبـنـ الـأـرـضـ المـغـطـاةـ بـالـثـلـجـ دونـ حـذـاءـ يـقـيـهـنـ بـرـدـ الثـلـجـ، سـعـيـاـ مـنـهـنـ لـبـيعـ أـعـوـادـ ثـقـابـ مـفـرـدةـ. غيرـ أنـ بـاعـاتـ الـكـبـرـيـتـ فـيـ مـصـنـعـ بـرـايـتـ وـمـايـ فـيـ لـندـنـ كـُـنـ رـاـدـاتـ حرـكةـ حقوقـ العـمـالـ. فـقـدـ كـُـنـ يـعـملـ أـرـبعـ عـشـرـ سـاعـةـ مـتـواـصـلـةـ مـقـاـبـلـ أـجـرـ لـاـ يـتـعـدـيـ خـمـسـةـ شـلـانـاتـ فـيـ الـأـسـبـوعـ، هـذـاـ قـبـلـ الـغـرـامـاتـ. فـيـعـضـ المـخـالـفـاتـ كـالـكـلـامـ، أـوـ إـسـقـاطـ أـعـوـادـ الثـقـابـ، أـوـ



بالعات الكريت اللواتي صنعن تاريخ العلاقات الصناعية دون إدراك منها.

الذهاب إلى الخام دون إذن، قد تخفف رواتب هؤلاء الفتيات فتفقدو بمعدل ثلاثة بنسات إلى شلن واحد.

وكانت ساعات العمل تبدأ في الساعة السادسة والنصف صباحاً في الصيف، والثانية في الشتاء، وتنتهي في الساعة السادسة مساء، وإذا ما تأخرن، يغزمن نصف راتب يوم. غير أن هؤلاء الفتيات كن مشاكسات. وفيما يلي وصف أحد المعلقين لهن: «كان لهن أزياءهن الخاصة، وكن يستمتعن باستخدام العديد من الألوان. ولم يعد بإمكانهن العيش دون قبعاتهن الواسعات ورباطاتهن الضخمة» كما لا يستطيع آري العيش دون بنطاله المتهي.



أنني برانت الداعية والصحفية التي تبنت قضية بنات الكبريت.

بحرس. وكن يتباهين بجزماتهن ذوات الكعب العالي وكن ينظرن إلى شراريب القماش كمسألة حياة أو موت».

نظم عاملو مصنع برایت وماي بقيادة الصحيفة المدافعة عن حقوق العمال آنی بيرزنت، إضراباً ناجحاً للمطالبة بأجور أعلى وظروف عمل أفضل. وساعدتهم في هذا، ظهور منافس مؤمن بمعطاليهم. فقد قام جيش الخلاص عام 1891 بفتح مصنع كبريت خاص به في أولد فورد، إلى الشرق من لندن، حيث صنعت أعماد الثقاب باستخدام الفسفور الأحمر غير المذدي. وكان جيش الخلاص يدفع ضعف ما كان برایت وماي يدفعانه لعمالهما مع إضافة بنسين أيضاً. ومع هذا تمكنا من بيع ستة ملايين علبة من الثقاب سنوياً تحت الاسم التجاري «ضوء في أظلم فترة بالخلدة».

ويُظهر تقرير كتب بعد الاضطراب بثلاث سنوات مدى التحسن الذي شهدته مصنع برایت وماي.

ظروف العمل أكثر إنسانية الآن، وتم تخفيف الأعباء الملقاة على العاملين بشكل كبير مع إدخال الآلات المحسنة.

ويمكن القول: إن العاملين في المصنع بشكل عام يتسمون إلى طبقة لاتقة صحياً تماماً. فإحدى النساء التي مت مقابلتها كانت قد عملت في المصنع مدة عشرين عاماً، وكانت مازالت مشوقة للقيام كما تمنى. ومع هذا، فمن غير الصحيح أن نعد التسمم بالفسفور قد أصبح ضرباً من الماضي؛ فما زالت هناك حالات كبيرة من المرض المسمى «الفلك المنخور». إن أولى أعراض المرض هو ألم في الأسنان وترافقه الحدود المتورمة. وعمره ظهور أعراض المرض، قد يفقد المريض عدة أسنان للحفاظ - إن أمكن ذلك - على كامل الفلك.

مونبع ويلمز، هرفاً وغراً.

قد تكون العاملات في برایت وماي قد ضحين بكل شيء عندما بدأ إضرابهن، غير أن



صورة مرعية للاصلاحية، وتكشف الوجوه القبورحة والعيون المفترة زيف الابتسامات المسومة لأجل الكاميرا.



جبل من الحجارة التراكمية التي تستظر أن تكسر على أيدي عاملين الإصلاحية ليكثروا ثروتهم.

فعلتهن هذه تدل على مدى البؤس الذي كُنْ يعشنه. أما الفقراء الذين كانوا بلا عمل، فإن الرمز الفيكتوري القائم كان يستدعيهم، ونقصد به هنا الإصلاحية.

المهن في الإصلاحية (Workhouse Job):

تم، على مدى قرون سابقة، إيصال معونات إغاثة الفقراء إلى الناس في بيوتهم، غير أن المشرعين في بدايات القرن التاسع عشر قد تلمسوا، في جو مشحون مشابه للجدل الدائر الآن حول المساعدات، أن النظام القديم قد شجع الناس علىأخذ الصدقات دون أن يشتروا عن سعاده الجد في العمل، ولهذا جرى عام 1834 –أي قبل بداية الفترة الفيكتورية– تعديل قانون الفقراء الذي أنشأ المؤسسات المشابهة للسجن، كتلك التي عرفناها في أوليفرتويست.

وضفت الأبرشيات في إنجلترا وويلز البالغ عددها خمس عشرة ألف أبرشية في اتحادات فائزون الفقراء، وكان لكل اتحاد إصلاحيته الخاصة به، وهذه البيانات مصممة بشكل خاص لتوفير إقامة مقصولة لأصناف مختلفة من الفقراء، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، قادرین أم عاجزين، بالإضافة إلى الأطفال. وكان القصد من الإصلاحيات أن تعمل وفق مبدأ «الأقل أهلية»، وصُممت الظروف بحيث تكون أقل ملائمة لظروف العمال الأقل دخلاً، وكانت المهن المتاحة للعامة في الإصلاحية عقابية، حتى إن بعضها كان أسوأ من عقوبات السجن الحقيقة.

كاسر الحجارة (Stone Breaker):

كان معظم نزلاء الإصلاحيات طاعنين في السن أو فتياً في ريعان شبابهم، لم يكونوا قادرين على القيام بعمل شاق. ولكن إذا ما قدم إلى الإصلاحية متشرد قادر أو عامل غير منظم، فعليه أن يتوقع جرعة إضافية من الابتزاز الجسدي الشاق.

وزودت عملية تكسير الحجارة عمليات تهديد الطرق بمowardsها الخام. وينكب كاسر الحجارة باستخدام مطرقة كبيرة على حجارة ضخمة الحجم محاولاً تكسيرها إلى أجزاء صغيرة. ويجب لا تتجاوز أحجام الأجزاء المتقطعة عدة سنتمرات مربعة، فإذا ما كانت كبيرة بحيث يستحيل أن مر عبر مشبك حديدي مصمم لهذه الغاية، يتم إرسالها إلى الكاسر ليقوم بكسرها إلى الحجم المناسب. ولكن العمل لا ينتهي أبداً، ويعود انتهاء كاسر الحجارة من تكسير الحجر المسجى أمامه، ثمة حجر آخر ينتظر، وكانت مكافأته لقاء ساعات عمله الشاقة أدنى متطلبات قوله.

جامع نكث (2) الحبال (Oakum Picker):

وهذه وظيفة قدرة، ذات رائحة مقرزة وقاسية على الأصابع، يتم في العادة خص كبار السن من النزلاء الذكور بها. وتطلق الكلمة (oakum) على أجزاء الحبال القديمة المتدايرة في أحواض بناء السفن، ويتم في العادة دهنها بالقطaran لحمايتها من المطر. وتحصل أجزاء الحبال

(2) النكث: المكوث وهو المفروض من الحبال.



جامع نكث الحبال في الإصلاحية. إن كومة بهذا الحجم كفيلة بسلخ جلد أكثر الأصابع فسرا.

المتعددة الأطوال بعضها عن بعض عبر طرقها. عطرقة خشبية. وبعد ذلك يتم حل الضفائر الرفيعة إلى خيوط. ويتمكن جامع نكث الحبال حالما يتم فك جميع الطبقات، من الوصول إلى ضفائر الألياف كل على حدة. وهذه الحبال لزجة نظراً لاستخدام القطران الذي يصعب التخلص منه باستخدام المطهرات الحديثة. ولذلك تتخيل الأوقات الصعبة والمملة التي كان على النزلاء قضاؤها، وقد قاموا بتلطيخ كل شيء طاله أيديهم بالقطران.

وفي نهاية الأمر، تفصل الخصل الرفيعة جداً عن غيرها، وتلف على شكل كرات صغيرة، ويتم إرسالها إلى مصانع السفن لتوضع بين صفائح السفن، وتغلف بالقار لجعلها مضادة للماء. وتسمى هذه العملية «بالستد».



كل شيء في الإصلاحية يخضع لنظام صارم غير ساز على الاتّلاق، بما في ذلك الوجبات التي صُمِّمت كي تكون وظيفية لا اجتماعية.

ويتوقع من كل رجل أن يلقط رطلًا ونصف الرطل من نكث الرجال يومياً، ونصف رطلٍ من جانب النساء. ولم تكن هذه المهنة مدفوعة الأجر - كما هي الحال مع باقي أعمال الإصلاحية - هذا إذا استثنينا الإقامة والطعام.

اضطر الناس، مع التهديد الدائم الذي شكلته الإصلاحية، وبخاصة لكتاب السن والعجزة، إلى القيام بأي شيء لكسب كسرة من خبز. ويصف هنري ماي هيو جموعة كاملة من الناس وقد دفعهم بوسمهم لامتهان أشكال مختلفة من أنواع التسلية المتجولة: «كعازف الأجراس الأعمى»، و«عازف الأرغن اليدوي الفرنسي مع أطفاله الراقصين»، و«بني ناحت الصور الجانية»، وشخصيات كوميدية كـ«بيلي بارلو»، و«بني المهرج المودي»، و«الرجل الصافر»، و«عارض تجاذب البنادق الإيطالي ذي الرجل الواحدة». ويظهر عند اقتراب الخامس من نوفمبر مؤدون حركات غاي فوكس، الذين كانوا يرتدون ملابس مشابهة لتلك

التي كان يرتديها، لكن دون إشعال نار احتفالية بهم.

كما قام هنري ماي هيو بتبويب عدد من المهن المرتبطة بتحصيم الفضلات. ومن المغرى لنا بحقـ إذا نظرنا للأمر من وجهة النظر البيئية السائدة في عصرناـ أن نعتقد أننا من قام باختراع إعادة التدوير. فقد قام الفيكتوريون بضم فضلاتهم في الهواء والأنهار كما لو كانوا يعيشون يومهم فقط، غير أن نزرا يسيراً من هذه النفايات يذهب سدى، فلهم شخص يستطيع أن يجني بضعة بنسات عن طريق جمع أنفس ما في النفايات وبيعه لاحقاً.

الباحث عن أعقاب السيجار (Cigar-End Finder):

وكانت وظيفة تقتنصي أن يقوم ممتهنها بالبحث عن أعقاب السيجار التي لم يفسدتها اللعاب، وذلك لإعادة تدوير التبغ الموجود داخلها.

أخبرنا ماي هيو عن أطفال إيرلنديين كانوا يجوبون طريق «راتكليف العام» والطريق



لساء في ساحات الممار يقعن بهربالة العبار والسيخام للحصول على مكوناتها الفريبة.

التجاري ، وطريق مأيل إيند في لندن بخطأ عن أعقاب السيجار ، وفتات الخبز . ويقوم هؤلاء الأطفال ، مجرد جمعهم لمجموعة كافية من أعقاب السيجار ، بيعها مقابل نصف «بني» لشراء دقيق الشوفان ، الذي كان يتم غليه مع فتات الخبز ، لتحضير أكثر الوجبات اقتصاداً .
بدا من السهل على هؤلاء الأولاد إيجاد أعقاب السيجار في شارع ستراند وريجنت ، وكان الباحثون المهرة يجمعون ما يقارب أو يزيد على الكيلوغرام في بعض الأحيان ، وهذا - لاشك - عدد كبير من أعقاب السيجار . ومن ثم يقومون بيعها إلى متجر في زفاف روزماري ، كان يدفع لهم ستة بنسات مقابل 500 غرام . وكان هذا الرجل يقوم بيعها إلى مصنعي التبغ ، الذين كانوا يخلطون التبغ المعاد تدويره مع المحصول الجديد ، سواء على شكل سيجار أو سوط .

بانع الشاي المتجول (Tea Hawker):

كان ثمة سوق لبيع أوراق الشاي المستخدمة ، إذ كان بائعو الشاي المتجولون يمرون ببيوت العبارات باباً باباً ليجمعوا بواقي أوراق الشاي من أيام الشاي الآنيقة في أحيا ، لندن الراقية ، ويقوم هؤلاء بشراء أوراق الشاي من الخدم الموجودين في البيوت الكبيرة مقابل مبلغ زهيد .
ومن ثم يقوم هؤلاء بوضع أوراق الشاي على أطباق ساخنة لتجفيفها ، ويعيونها لأصحاب بعض المحال التجارية المجردين من المبادئ ، الذين يقومون بخلط الشاي المعاد تدويره مع الشاي الجديد لزيادة الحموله . وإذا كان مقرر أنهذه الأوراق أن تكون قسمًا من حمولة الشاي الأخضر ، فيتم صبغها أولًا بمحلول من النحاس . ونظراً للارتفاع الباهظ في سعر الشاي ، أصبح الغش فيه تجارة مزدهرة . وقد وردت إشاعات أنه تم بيع زهاء أربعة آلاف طن من أوراق الشاي القدرة في لندن خلال عام واحد .

رجل النفايات (Dustman):

قد تعنى كلمة (Dustman) هذه الأيام الشخص المعنى بجمع النفايات بمختلف أنواعها ، ولكنها كانت ذات معنى وظيفي متخصص خلال الفترة الفيكتورية .
كان الفحم خلال تلك الفترة مادة الطاقة الرئيسية . وكانت لندن وحدها تستهلك ثلاثة



رجل نفايات يصرخ ليعلن الدورة أو يحمل بنصف لتر من البيرة الباردة ليزيل الوسخ من حلقة.

ملايين ونصف مليون طن سنوياً. وتتجه عن هذه الكمية الهائلة الكثير من الرماد والسمام، وتتمثل مهمة مسؤولي الأبرشيات في ضمان إزالة نواتج الاحتراق هذه بسرعة، وذلك عن طريق معهدى الغبار الذين استخدمو المثيول، والعربات والسلال، والمحارف. وكان لهم حق الوصول إلى أكواخ التفريات، حيث يستطيعون التخلص من هذه المواد، وجنبي مال وفير من هذا الغبار إذ يتم فصل التربة الناعمة عن الشوائب الخشنة، ويعيها لاستخدام كمساءٍ نباتي، أما الشوائب الخشنة فتستخدم في صنع الطوب. وينقل كل معهد عشرة آلاف حمل من الغبار سنوياً. ولি�تمكن هؤلاء من نقل هذا الوزن الضخم، كانوا يوظفون المغتربين، وهؤلاء رجال ولدوا للقيام بهذا العمل. فقد بدؤوا عملهم هذا وهم أطفال يقumen بغربلة أكواخ الغبار، وانتهى بهم المطاف متغيرين مهرة. وجاحب «المعبتون» و«العمال» الشوارع بعربات ذات صناديق مبنية بعناية ومتغطاة في العادة بالقذارة. وكانت يصرخون قائلين «غبار» للإعلان عن قدومهم، ويقوم المعنى بتعبئة سلته التي يحملها العمال إلى العربة بالغبار، حيث يقوم بسلق ودقق ما في السلة في العربية، ويعاود الكثرة مرة ثلو الأخرى. وعندما تملئ العربية، تقاد إلى ساحة الغبار حيث يتم إفراغها هناك.

ويقوم المغتربون بجمع الغبار في يوم، وكنس الشوارع في اليوم الذي يليه. وكانت لهم ترتيباتهم الخاصة مع ملاك الأرضي لإفراغ بالوعاتهم، وكان هؤلاء يتلقون أجراً منخفضاً، غير أنه منتظم؛ فقد كانوا يحصلون على ثمانية بنسات مقابل كل حمل من الغبار، ولهذا كان من مصلحتهم أن ينقلوا أكبر عدد من الأحمال إلى الساحة. وعمجرد إيصال الأحمال إلى الساحة، يقوم أطفال ونساء بغربية المحصول؛ وهؤلاء - كما هو متوقع - كانوا يقumen بأسوأ الأعمال.

كان منظر المغبرلات في إحدى ساحات الغبار التي زرتها غريباً جداً، فقد كان يغضن حتى أوراكهن في الغبار، مصطفات في نصف دائرة أمام الكومة التي يتعاملن معها حينها. وأمام كل واحدة منهن تلٌ صغيرٌ من تراب ثبت غربلته. وكان منظر المجموعة بأكملها وهي تعمل غريباً، وبدت عباءاتهن القطنية الخشنة مثية خلف ظهورهن، وكانت أكمام أذرعهن مكفوفة حتى

أكواعهن، وكانت قبعاتهن السوداء مسحورة ومدققة كقبعات صائدلي الأسماك. وكن يرتدين فوق عباءتهن مترزاً جلدياً قاسياً، يمتد من رقبتهن حتى أطراف تنانيرهن. ويمتد فوق هذا المترز جلد آخر، أقصر من سابقه، غير أنه مبطن بكثافة، ومثبت حول الخصر بخيط سميك أو رباط. وتقوم هؤلاء النساء بدفع الغربال عنهن بعيداً، ومن ثم يقمن بجلبه نحوهن بعنف واضح، ويضرب الغربال مترزهن الجلدي الخارججي بقوة كبيرة قد يتسع عنها في كل مرة صوت أجوف، كفرع طبل. وكانت جميع النساء العاملات هنا في متتصف العمر، باستثناء واحدة كانت طاعنة في السن؛ فقد كانت - كما أخبرتني - في الثامنة والستين، وقادت بهذا العمل منذ كانت فتاة، وكانت ابنة مغبر وزوجة أو امرأة مغبر، ووالدة نسل من المغاربة اليافعين، سواء أكانوا أبناء أم أحفاد، وكان هؤلاء جميعاً يعملون في ساحات الغبار في الطرف الشرقي للمدينة.

هاري ماي هيرو، العمالة والفقر في لندن ، المجلد الثاني

ويكمن الجانب السلبي في هذه الحياة، أنك تقضيها في كومة أو ساخ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها غير صحية أو خطرة كالعديد من المهن الفيكتورية الأخرى، بل كان المغاربة - وبشكل مثير للدهشة - مجموعة لائقة من الرجال حسب ما يقول ماي هيرو. ورغم أنه ليس هناك أرقام تستطيع من خلالها أن تخزم بصحة هذا القول، إلا أن هناك روايات تناقلها الناس عن مغاربة بلغوا التسعين، وعن مغارب يدعى «وود» بلغ المئة من العمر.

رجل الخفرقة (Rag Man)

أدوار ستبيتو وأبنه مايكلن اعتباره مصلحة تجارية متطرفة في بيع الأشياء المستعملة، ولا سيما عند مقارنته عملهما بعمل رجل الخفرقة الذي كان يتجول لأماكن، حاملاً لوازم عمله في حقيقة مغلقة بالشحم، ومسكاً بعصاً كان يستخدمها في تقليل أكمام القمامات المتراكمة خارج المنازل بحثاً عن شيء يستطيع بيعه. وكانت هذه الوظيفة تافهة؛ فقد كان هؤلاء ينهضون

من النوم عند الساعة الثانية فجراً لتشويه منطقتهم المختارة قبل وصول رجال خرق آخرين هناك. وبعد مرور بستة أشهر وما يقارب - حيث يقوم صانعو الملابس اليهود برمي أكوام من الخرق غير النافعة - أفضل الواقع في لندن. ويقوم رجال الخرق بالتجول عبر لندن لثمان ساعات في اليوم، وقد يقطعون خلالها مسافة ماراثونية تبلغ عشرين أو ثلاثين ميلاً، حاملين ما زالت خمسة وعشرون إلى خمسين رطلاً من الخرق على ظهورهم.

وكان هناك طلب شديد على الخرق - فقد بلغ عدد الخرق التي تم استيرادها عام 1851 عشرة آلاف طن، وبيع الرطل الواحد منها لشترین في الشارع بنصف بياني. وكان الورق - قبل استخدامه لحاء الشجر - مصنوعاً من القماش. وقد أعدت الطبعات الأولى من روايات ديكنز على ورق مصنوع - جزئياً - من الخرق التي كان جامعاً للخرق يجمعها. (وكان هذا الورق متيناً، ويدوم فترة طويلة جداً). تعانى المكتبة البريطانية هذه الأيام من مشاكل جمة في الحفاظ على الكتب الحديثة، ولا سيما الطبعات ذات الغلاف الورقي المطبوعة على ورق مصنوع من لحاء الشجر الخامضي، فقد يتغيرن بعد فترة قصيرة. ومارالت الكتب الفيكتورية جيدة كمالاً أنها جديدة.

نايس العظام (Bone Grubber):

يقوم نايس العظام بما تعنيه هاتان الكلمتان - فقد كان ينبع الأرض بحثاً عن عظام قديمة. ولم تكن تلك مهنة يختار الناس القيام بها على إرادتهم. فالعظم الواسحة المتعرجة ذات رائحة مقرضة، والعمل ذو دخل متدين جداً. وقد عانى الناس هذه المهنة بعد ظروف قاسية تدفعهم إلى القيام بما لا يتحمل. وقد يكون نايس العظام عاملين في المجال الزراعي ثم الاستغلال، عنهم بعد جنى المحصول، والعديد منهم كانوا حفارين عاطلين عن العمل. وقد قابل هنري ماي هيو أحد نايس القبور، الذي اكتسب معطفه الممزق لون القمامات التي كان يعمل بها، وكان مدحوناً بالشحم الملتصق بالعظم التي جمعها. وبذا الرجل، بعد أن اختلط شحم معطفه بالغبار، كما لو أنه مغطى بالدابوق. (وهي مادة لزجة تستخدم لاصطياد الطيور).

ويقوم نايس العظام ببيع ما يجمعه لوزعين قد يستخدمونها في عدة أمور. فيتم انتقاء العظام الضخمة وإرسالها إلى فرنساً ليتحتها منها مقابض لفراشي الأسنان وفراشي الحلاق،

وحلقات التسنين، ومقابض السكاكين، والأمشاط الرخيدة. أما باقي العظام فيتم غليها لإزالة الجيلاتين والمواد الدهنية، التي قد تستخدم في صنع الصابون. ويتم سحق ما تبقى لاستخدامه كسماد مخصوص. ولكن ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من العمل في ساحة غبار، أو أن تبدأ عملك عند الساعة الثانية صباحاً، لقطع ما يزيد على عشرين ميلاً بحثاً عن نظام متعرجة أو خرق؟ لتعرف الجواب حاول أن تكون منقب المجرى /شبكة التصريف الصحي.



منقب شبكة الصرف الصحي (Tosher):

كان منقبو شبكات الصرف الصحي ملوك الباحثين في التقنيات؛ فقد كانوا يمارسون عملاً غير قانوني، ومقرزاً في أكثر الواقع التي يمكن وصفها بأنها فيكتورية بحثة، إنها شبكات الصرف الصحي.

وقد أنتجت لندن وحدها خلال خمسينيات القرن التاسع عشر 31,650,000,000 غالوناً من مياه المجاري سنوياً، اندلقت جميعها في نهر التايمز. ونتيجة لهذا قتلت الكولييرا عام 1853، عشرة آلاف لندني، وكان يجب القيام بإجراء حيال ذلك. غير أن البرلمان لم يظهر أي تعجل حتى عام 1858، عندما أدى صيف حار طويل إلى «حادثة رائحة لندن الشهيرة» التي أجرت أعضاء البرلمان على هجر مكاتبهم. وكانت الحادثة تلك الشرارة التي كانوا بحاجتها للبدء. فلقد سن تشريع حول هذا الشأن خلال ثماني سنوات، وقام المهندس العظيم جوزيف بارلغطي بإعادة توجيه فضلات لندن بعيداً عن نهر التايمز،

عبر شبكة من الأنفاق وقوافل الصرف المبنية بالطوب؛ متدلي ما يزيد على ألف ومائة ميل. ولكن لم يكن الغائط أو البول هما المادتان الوحيدتان اللتان كانت المصارف وأحواض الحمامات تنزلانهما. فلقد وجدت جميع المواد الغريبة طريقها عبر مجاري الصرف الصحي. وقضى منقب شبكة الصرف الصحي أو صائد المجاري، حياته في شبكات من الأنفاق - رغم سن قانون يحظر قيامهم بهذا - بحثاً عن قطع نقود معدنية، ومجوهرات، وأدوات المائدة،



لم يكن بازليتي يتصرّر أن بناه الأعمدة الهندسية، نظام الصرف الصحي في لندن، قد أتمّ بيتاً عملاً مناسباً للملك المتقين؛ منقي شبكات الصرف الصحي.

وقطع من الفحم والجديد، وكتل من المعادن القديمة. كان جميع منفي شبكات الصرف الصحي ذكوراً، يتمتعون بقدرة جسدية تكفيهم من التعامل مع الأداة الرئيسة في عملهم، إنها عمود طويل — قد يزيد طوله على مترين — منه مجرفة لترفس في الماء العكر. وارتدى هؤلاء مترأً وبنطالاً من قماش كاتني، ومعطفاً طويلاً ناعماً للمسن ذا جيوب كبيرة لحمل الأشياء القيمة، وتدلى على ظهر كل منقب كيس، وربط صباح إلى صدره.

ولم تكن هذه العملية غير قانونية فحسب، وإنما كانت شديدة الخطورة. فبعد المطر، قد تقipس البالوعات، وقد تتشكل ظروف يتعرضون فيها إلى الغرق. أما في الظروف الجوية الحارة، فقد تسبب الأدخنة والمواد الكيماوية الصادرة عن مياه المجاري في قتلهم. ناهيك عن احتمال سقوط الطوب المبني. غير أن أعظم مصدر قلق لهم كان جرذان البالوعات، التي كانت معروفة بعدوايتها الشديدة، ولهذا كان منقبو المجاري يعملون في جمادات لا تقل عن ثلاثة، وكانتوا يحاولون خلال عملهم إلا يتفرقوا في حال تعرضهم إلى هجوم من قبل القوارض الغاضبة.

وقد يعني منقبو المجاري مالاً وفيراً. فقد يجدون كميات كبيرة من قطع النقود المعدنية التي يقتسمونها فيما بينهم، وقد يعني منقب المجراري ثلائين شلنَا من رحلة واحدة، غير أن معدل ما يعنيه الفرد هو ستة شلنات في اليوم. وهذا مال لا يستطيع موظف عادي جنيهه. ورغم الراحة العالقة بهم دائعاً، فإنهم لم يلقوا المعاملة الشائنة التي لقيها منظفو المداخن أو نابشو العظام. وقد يكون السبب في ذلك أن المطر المحيق بعملهم، وعدم شرعيته، جعلاهم أبطالاً محليين.

ووجد أن الرواسب تضم المركبات الصادرة عن مصنع الجعة ذاتها، فضلاً عن مصانع الغاز، ومصانع المواد الكيماوية والمعدنية، وهناك الكلاب والقطط والجرذان الميتة، وسقط الحيوانات المذبوحة من المذابح، وقد يجد بها أحشاء الحيوانات، وجميع أنواع أوساخ أرصفة الشوارع، وفضلات الخضار، وروث الإسطبل، وفضلات زراتب الخنازير، والغاطن البشري،

ولكن حالما تخط هذه المياه رحالها في نهر النايمز، فإنها تزود «قبرات الوحل» بمكان عملها. ورغم اسمها الشاعري، إلا أن قبرات الوحل كانت بعيدة كل البعد عن القيام بأعمال تبعث المرة.

وتطلق عبارة «قبره الوحل» على كل طائر يمشي في الماء الضحل على حواف النهر. وتم استخدام الاسم للإشارة إلى الناس الذين كانوا يبحثون عن الفتات الذي لم يستطع منقوب المجرى الإمساك به. غير أن هذا الوصف لم يكن دقيقاً؛ فقد كان العمل بعيداً كل البعد عن القبرات. ونهر النايمز خلال القرن التاسع عشر لم يكن وحلاً بل كان مكب فضلات بشرية. وبعد هولاء النسخة الفيكتورية لأطفال العالم الثالث، الذين نراهم على شاشات التلفاز يعيشون في أكواخ القمامات بحثاً عما قد يفيدهم. وكان لدى قبرات الوحل خيارات ضيقة؛ فإحدى كنوزهم قد تكون مسماً آتحاسياً من سفينة يجري تجديدها في وابغ؛ غير أن كنوزاً كهذه كانت نادرة أيضاً، لأن قبرات الوحل كانوا يتعرضون للمطاردة، كي يتبعدوا عن السفن. وأصبحت حياتهم أكثر تعقيداً ظلراً لارتباط عملهم بالدال؛ فإن لم يمكننا من ملء أوانيهم بكنوز قد يجعلها المد معه، فإنهم سيقولون تلك الليلة جوعى.

وكان هولاً - ويبلغ عمر بعضهم ست سنوات - يرحفون بين البوارج الراسية في أرصفة مختلفة على نهر النايمز، حفاة الأقدام، تفهم خرقاً بالية قد لا تستر أجسادهم. وكانوا يمشون في الوحل ببطءٍ حاذين ظهورهم على الدوام، ولم يكونوا يحادثون بعضهم بعضاً بل كانوا يعملون في صمت رهيب. وقاموا - في ظروف الجلو الباردة - بتذكرة أقدامهم المتجمدة في الماء الساخن، الذي كان يجري على حواف النهر خارجاً من مجاري المصانع التي كانت تعمل على السخان. وكان هولاً، عند ارتفاع منسوب المياه إلى حد لا يستطيعون معه ممارسة العمل، يحاولون جنِي مالٍ إضافي يذهبون إلى المدينة، وقيامهم بفتح أبواب العربات للركاب.

وكان ماي هيرو قد قابل أحد قدماء متقربيهن لعدم ارتداهه حذاء، وكان والده حملاً يرتدي سوى بنطال، وقد بدأ قدماه متقربيهن من العمر أربعة عشر عاماً، ولم يكن يقوم بتغريب الفحم من على البوارج، ولقي حتفه على إحداهما، وأنهار عمل والدته بسبب آفة البطاطا. وكان هذا الطفل يرفع بنطاله في لفاف بعضها فوق بعض، ويخرجون في الوحل وقد انغرست قدماه حتى ركبتيه، وكان على الدوام حافي القدمين. وقد تعلق في قدميه بعض

والرماد، والغلايات، والأواني الصدمة، والأدوات الزجاجية المكسورة كالجلرار، والأباريق، وأواني الزهور، والطوب، وأجزاء خشبية، وطين عفن، وقاذورات من مختلف الأنواع، وحتى الخرق.

هنري مای هیرو، العمالة والفقر في لندن، المجلد الثاني

قبرة الوحل (Mud Lark)

قد تكون ظروف عمل منقبي المجاري سارةً كثيراً إذا ما قارناها بظروف عمل قبرات القمامنة؛ فمياه المجاري التي شكلت مصدر رزق لمنقبي المجاري كانت تختلط ب المياه جارية.



بعد من أطلق عليهم «قبرات الوحل»، حسب قول هنري مای هیرو «ولفَّوا نظرهم، أكثر الأشخاص الذين قابلتهم خلال تحقيقه احتراماً»

السامير وقطع الزجاج. لكنه يعود - مجرد الانتهاء من تضميم جراحه - غرس قدميه في الوحل قبل حدوث المد. «فإن جاء المد قبل أن أجد شيئاً، فإنني سأجوع حتى ينحصر المد»، وقد يتركه انفاس مسمار نحاسي في قدميه مقعداً ثلاثة شهور.

رُبما ظنت هنا أنها قد انتهت بنا المطاف في قاع العمالة الفيكتورية، فقد يكون الموضع حافي القدمين عبر مياه المجاري رهياً، لكنه ليس كاستخدام كلتا يديك عاريتين في عمل مقرز. فإن صدف أن قابلت جامع روث الكلاب، فلا تصافحه بيده.

جامع روث الكلاب (Pure Collector):

تأتي الكلمة (pure) حسب قاموس تشارمبرز (Chambers) صفة لها المعانى الآتية: نظيف، وغير مغبر، وغير مخلوط، وعنيف؛ وقد تأتي اسمًا يعني روث الكلاب أو أي مادة مشابهة. وبشكل القسم الثاني من هذا التعريف المادة الخام جامع روث الكلاب. وقد يكون استخدام هذه الكلمة بهذا المعنى نكبة، بادئ الأمر، غير أن الكلمة تعنى فضلات الكلاب. وبقى جامع فضلات الكلاب بالتجوال في الشوارع، حاملاً دلوًّا يضع فيه فضلات الكلاب (والقيام بهذا العمل لا يعني بالضرورة أنهم استخدموها بحرفة)، ومن المؤكد أن هذه الوظيفة مؤهلة لأن تكون أسوأ الأعمال على الإطلاق، ولكن لا، فجامع فضلات الكلاب لم يكن يكره لفضلات الكلاب، إن لم يكن هناك من يريد أن يدفع له أجراً مقابلها، بل إن فضلات الكلاب قد يطلق عليها اللقب نقى «Pure» إذا ما قورنت باستبعادات عمل آخر. وقد يكون جامع فضلات الكلاب أسوأ عمل له علاقة بالتفايات، غير أن رائحة فضلات الكلاب المقرزة ليست سوى جزء من خليط شديد القنامة من الروائح والمخارات التي قد تجسّد أسوأ عمل إطلاقاً، وعلى مر الأزمان؛ وهو العمل الذي قد يتلقى وسام شرف أسوأ عمل: جائزة الأوسكار لأسوأ عمل في التاريخ.

أسوأ مهنة في التاريخ

قد تكون قد ذهبت مباشرة إلى نهاية الكتاب لترى المهمة الأسوأ، لكنني على يقين أنك إذا قمت بدورك على أكمل وجه، وتبعت التسلسل التاريخي لأسوأ المهن عبر الفترات التاريخية المتلاحقة، محاولاً التخلص من رواسب العمالقة المتراءكة في القاع، ستكون لديك فكرة جيدة لمكامن الفطاعة التي قد توسم بها أسوأ الأعمال على الإطلاق.

هناك خمس صفات متكررة ظهرت في أسوأ الأعمال التي ذكرت، ولكن بدرجات متفاوتة، فهناك العمل القاسي والمضني كقلب التربة الأنجلو-سكنونية باستخدام محرك خفيف، وعمل حاملي كراسي الركاب المتنقلة، أو شق خطوط السكك الحديدية خلال العصر الفيكتوري.

وهناك الأعمال القذرة الشنيعة على اختلاف أنواعها سواء كانت الغوص في أحشاء الأغنام للحصول على أوتاركمان، أو الغوص حتى الكاحل في حوض القصارمة. أما إن كان المقياس هو الراتب المتدني، فإن قبرات الوجل هي الوظيفة الأكثر تنافساً هنا، إلا إن كنت عبد سلك التقدور، الذي كان يسلك التقدور بلا أجور يذكر.

والخطورة في العمل تأتي على شكلين: أولهما احتمال الموت المفاجئ المحزن في حرب، كلّم الموت الذي قد يواجه مساعد المفجر أو قرد ملح البارود؛ إما ثانياًهما فهو الخطير الغادر المتمثل في المهن المرتبطة بالأمراض، ككلث التي عانى منها صانعو الكريت أو الغلمان المثلوثون الأمرؤين.

وأخيراً، هناك السلام، وهو الجانب الذي يشكو منه معظم الناس هذه الأيام في وظائفهم. غير أن العمل كمحاسب في إحدى المتاجر الكبيرة، أو التحقيق في شاشة كمبيوتر، يعدان أقل سأساً من مهنة ناسخ اللفائف الأنبوية أو مهنة الناسك.

وليست أسوأ مهنة على الإطلاق سوى خليط فريدٍ من تلك الخصائص الأربع التي تم ذكرها. وعدت هذه المهنة -إذا نظرنا للأمر من الناحية الإيجابية- ذات دخل جيد، غير أن المردود المالي لم يكن ذات قيمة عند مقارتها بالخلافة التي كانت تتصف بها هذه المهنة في جوانبها الأخرى. فقد كانت مهنة قدرة وملة ومتعبة، وقد تسبّب بمشاكل صحية طويلة

الأمد، وتضمنت أيضاً خليطاً غريباً من الروائح المفرزة، التي قد تجعل من ليس له أدنى مناسباً للقيام بها. وعken عدّ شاغلي هذه الوظيفة كالبرازيليين، إن كان هناك كأس عالم لأسوا المهن. سيداتي وسادتي أرجو منكم لا تفكروا بحجر تسمير البشرة، ونحن نحاول أن نستكشف عالم دابعي الجلود غير الاعتيادي.

دابع الجلود / الدباغ (Tanner)

قد تكون مهنة دابع الجلود مؤهلاً كي ترشح كاسوساً مهنة في أي فصل من فصول هذا الكتاب السابقة. غير أن هناك أساساً وجيهة لظهور هذه المهنة في نهاية الفصل الفيكتوري. فالدباغون يصنعون الجلود، التي أحرزت مكانة فضلى خلال العهد الفيكتوري بالمقارنة مع غيره من العصور. وكانت الجلود، قبل ظهور المواد الصناعية، تستخدم في صنع مازر الحفارين، وأخذتهم، وأخذتنيهم، وكذا بالنسبة إلى منفي المخاري وصائدى الجرذان، وعمال المصانع. كما صنعت منها أيضاً أسرجة الخيل المزخرفة، وأرسانها، والجتمتها، وغمامات أعینها، وجميع الأدوات المتعلقة بالخيول والعربات. ودخل الجلد ضمن الأحزمة المستخدمة في الآلات البخارية التي مدت جميع المصانع والمعامل، مجسدة الاقتصاد العالم الصناعي.

لطالما كانت دباغة الجلود وظيفة يحاول الجميع تحبها؛ فقد أشار المؤلف الإيطالي الطبي راندي رامترزيني إلى وضع الدباغين غير الصحي في أوآخر القرن السابع عشر.

ويطبق هذا الكلام على الدباغين الذين يتلقون جلود الحيوانات في حفر مليئة بالجمر والعفus، ويدوسونها بأرجلهم، ومن ثم يغسلونها، وينظفونها، ويقطخونها بالشحم الحيواني، لأسباب متعددة. وأقصد هنا أنهم مصابون بالأكتاب بسبب الرائحة الدائمة والأنفاس القفرة. ويستطيع كل من يراهم أن يشاهد بشرتهم الشديدة الشحوب، وأجسامهم المتفسخة، ونظراتهم المخيفة، وأنفاسهم المكبوتة، وكان جميعهم عابسين. وقد

لاحظت تقشى مرض الاستسقاء بين العديد منهم، وكيف لا، وهم يقضون كل وقتهم في مكان رطب، وفي جو أفسدته الانبعاثات الفظيعة الصادرة عن الجلود المتعفنة. وهنا يراودني السؤال الآتي: كيف لزرائب الحيوانات والبيوت المجاورة ألا تتأثر بهذه الظاهرة؟ وكيف

لل الاقتصاد ألا يتدهور؟
فأردن هذه النحرة التي تصور عمل الدباغ في القرن السادس عشر مع فقد لاحظت أن الصورة المقابلة لتكشف انعدام تطور العمل عبر فترة دامت 500 عام أو الخيول ترفض المرور - غريب.

مهما حاولت، وبأي



طريقة كانت - بالقرب من هذه المعامل، وعمجرد أن تشتم هذه الرائحة العفنة تجري بأقصى ما تستطيع نحو زرائها، دون أن تغير اللجام أى انتباها. ربما لهذه الأسباب، كانت البناءيات التي يتم فيها التعامل مع الجلود، كما هي الحال مع الأعمال القدرة الأخرى، موجودة بالقرب من أسوار المدينة، أو - كما هي الحال في ميدونا - خارجها، لمنع تلوث الهواء.

بيرناردينو راماتريني، حول أمراض العاملين، 1700



تظهر هذه الصورة رجال من بيرمونتساي في لندن، وهم يقومون بإزالة الشعر وكشط الأنسجة الملبة بالدهن من جلد البيران. وما زالت هذه الوظيفة أكل الرطائف قبولاً في كوليون تانيري في ديفن، وهو المكان الوحيد، الذي ما زال يستخدم الطرق الغليدية التي استخدمت في العصر الفيكتوري. اكتشفت - عندما جربتها - أن السكين تنزلق فوق الجلد، وأن الدهن يعلق بها، ويجب أن تم إزالته من على النصل، مما قد يجعل يديك تشرب رائحة الكريهة. وبالطبع قد تصبح يداك زاقفين، لكنه عملية الإمساك بالسكين صعبه جداً.

لكن، رغم احتلال الجلد مكانة متميزة خلال العصر الفيكتوري، إلا أن مكانة الدابغين أكلت إلى الانحطاط. فالعملية التي يتم خلالها حفظ الجلد من التعرق كانت مقرضة على الدوام. ولطالما كانت دباغة الجلد إحدى الوظائف التي يتم إقصاؤها إلى أطراف المدينة، بل -أجر الدماغون - كما هي حال ناضجي الحفر الامتصاصية، وصابغي النيلج، والقصارين - على البحث عن دابغين أو دابغات، لإقامة علاقة عاطفية معهن أو الزواج منها، غير أن مكانتهم كمنبوذين قد أصبحت متلقمة خلال العصر الفيكتوري.

تعززت مكانة الجلد الفريدة - كما كانت على الدوام - بشدة عن طريق العامل الإنجليزي، حتى أصبحت تحمل مكانة مشابهة للماعناتشارتا -المبات - الإنجليزي العظيم - أو مكانة بعض الهاتفات كـ «بيت الرجل الإنجليزي قلعته» و «حفظ الله الملكة». وينظر الرجل الإنجليزي للجلد بالثقة العماء ذاتها التي ينظر فيها إلى بيته. ولن يقبل بعد الآن استخدام مطاطية بديلة عن الجلد، كما أن استخدام الخمور الفرنسي أو عصير الليمون بدلاً عن البييرة الإنجليزية غير مقبول. وبغض النظر عن الشكل الذي قد يظهر فيه الجلد، إلا أنه يعكس مقداراً مكافئاً من الاحترام. ويظهر شغف الإنجليز بالجلد بوضوح، عندما نعلم أن الجلد أحد الأحلام التي تداعب عقول الشباب. وقد يبدأ حلم الغلام بامتلاك سوط حقيقي ذي أشارة جلدية، أو أن يختار بين هذا، وارتداء بعض الأعمال الجلدية المقيدة ذات اللون الطيني، قبل أن يتخلص من متزر الطفولة والأحداث ذات الطوق. ويتحقق لهن تزيين قبعة الأولى بقمة جلدية، عوضاً من هيئة وضعية من الكرتون المطلي بالورنيش، أن يمشي رافعاً رأسه عالياً. وعلينا أن نعترف أنها رغم انفكاكنا عن العادة القديمة بخطية أطراقتنا السفلية بجلد الغزال، فما زلتانا نظير شوؤاً عارماً إلى تلك الحالة، وذلك عبر تسمية المواد التي تصنع منها البناطيل بجلد أثني الظبي، أو لف سيقاننا حتى الركبة بمزيج رفيع ومتانق من جلد الحصان أو البقرة؛ حتى إن بائع الفاكهة المتوجول ذا الفكر المنحط الذي

عذت أحذية ويلغتون بالنسبة إليه موضع احتقار وازدراء، وربما ضحك ساخراً من البناطيل الفضفاضة أو تلك التي قد تصل للركبة، كان يظهر عليه الميل الذي احتاج الأمة نحو الجلد، وذلك عبر اشتراطه ارتداء أحذية مرتقطة الساق ذات السنة طويلة لتفاوط مع الرباط، مما لا يقل عن ثلاثة إنشات. وليس هناك من شيء قد يضمن لك حرية المرور إلى أفضل غرفة في الحانة أفضل من حقيبة ذات لون بني تقليدي، مختوم عليها الكلمات «جبل مكفول»؛ وإذا ما كانت تحمل التوصية الآتية: «قاسٍ»، فإن الدرجة الرفيعة التي ستلقاها سترسخ إلى الأبد.

جيمس غريبورد، رحلات غير وجدانية أو طرق بابيلون المترية، 1867

وقد أصبح لكل مدينة في بريطانيا الفيكتورية، نظراً للحاجة الماسة إلى الجلد، مدعايتها، وحيثما توافت المواد الخام بزيارة، تم إنشاء أكثر من مدينة. فعلى سبيل المثال، يعرض سوق أوكسفورد شاير في مدينة واتنج أكثر مما تحتاجه تلك المدينة من جلود. وقد بلغ عدد ساحات الدباغة في إحدى المراحل ثلاثة، تقوم بضم بعض روائحها العارمة، وبث حجاب قاتمة في المجتمع.

أقصى الدباغون إلى الشرق من لندن خلال العصر الفيكتوري، ويقع سوق برموندزاي للجلود، أو لنقل سوق جلود الحيوانات في شارع ويستون، ويعد عن جسر لندن مسافة عشر دقائق مشياً من جهة ساري. إن الحي الذي يقع فيه هذه السوق مكرس بأكمله للسلامخين (Fleshers) والدباغين، والهواء يمع برؤاه سينه. وسكان هذا الحي ميزون. ويا له من منظر عندما تدق الساعة الثانية عشرة، ويأخذ الرجال بالرجوع من أعمالهم، فملابسهم ملطخة بالكثير من البقع، وبناطيلهم فقدتألوانها بسبب القطران، وارتدى بعضهم مازر، وطحاقات مصنوعة من الجلد غير المعالجة، وتحولهم تجور رائحة الدم... ومتلئ المخازن المحيطة بالجلود

المدبوغة، وجميع الساحات خلف الجدران المرتفعة ليست سوى مداعب، تتعج بعشرات الآلاف من الجلود المنقووعة في الحفر. وعلى كل زائر يود الذهاب إلى سوق الجلود في بيرمنغهام الحصول على أمر مسبق لزيارة واحدة من أعظم منشآت الدباغة. وما لم يتم ذلك، فإن الزيارة في حد ذاتها لن تكون جديرة بعناء السفر، ولن تكون بدليلاً حسناً لخلاق الطروان الشiture التي تسود المكان.

شارلز ديكنز، الأصهار، قاموس ديكنز لمدينة لندن، 1879.

ويحصل الدباغون على جلودهم مباشرة من الجزارين المحليين أو من المسلح، وقد ثبت منذ عهد المصريين القدماء دباغة جلود الأبقار، والعجول، والثيران، والخيول، والأغنام وحتى الكلاب. وكان لكل جلد خصائص المميزة. فجلود العجول مصدر للجلدين (كرفاقات الكتابة المستخدمة في أناجيل ليندينيرفارن)، أما الثيران والأبقار فقد مصدرأ للجلود القاسية المستخدمة في الأحذية والملابس القاسية.

ولم يكن جلد الإنسان بلا خصائص أيضاً. فقد تحدثنا عن سارق الجثث المشهور إدموند بيرك، الذي انتهي به الأمر كمحفظة معروضة في متحف إدنبرة. وقد ورد عن البطل الإسكتلندي ويليم والاس (قلب شجاع) أن قام بسلخ جلد أحد أعدائه الإنجليز وحوّله إلى حزام.

ومع هذا، حاول الدباغون تجنب الانقياد للإغراء بدباغة جلود أصدقائهم وأقربائهم، وتركزوا عوضاً من ذلك على جلود الحيوانات. وُخلب، في بداية الأمر، كمية ضخمة من جلود المسالخ، التي تكون حينها تقطر دماً، ويقوم الدباغ بقصصتها، وتلميحيها، وغسلها ومن ثم توضع في حفرة ذات رائحة كريهة للتخلص من الشعر، وتطرية الأنسجة. ويتكور محلول الموجود في هذه الحفر من الجير المطفا والماء. وقد يكون دباغو العصور الوسطى قد استخدمو البول، الذي عد - في تلك الفترة وكما هي الحال هذه الأيام - مادة يسهـل الوصول إليها، ومتوفـرة في كل مكان. وقد تبقى الجلود في حفر الجير أسابيع، فتتـفنـخـلـلـوـنـ وتصـبـحـلـيـةـ وتحـتـاجـ إـلـىـ رـفـقـ شـدـيدـ. وـمـنـ ثـمـ يـقـومـ الدـبـاغـ،ـعـنـدـمـاـ يـعـتـقـدـ أـنـ الجـلـودـ قدـ أـصـبـحـ



دبابير من العصر الفيكتوري يحملون أدوات عملهم. ولنا أن نفترض أن الصبية الظاهرين في الصورة هم الجيل القادم من الدباغين، لكنهم لم يعوا حينها أنهم قد ولودوا الممارسة أسوأ مهنة في التاريخ.

جاهزة، باخراجها ووضعها على كرسي مقوس عظيم يسمى «عارضة السلاخة»، حيث تم عليه إزالة الشعر، واللحم المتغصن من الجهة الداخلية. وكان العمل أقسى مما يبدو، فقد كانت الجلد المغموضة بالجير ثقيلة وزلقة جداً. وما إن يأخذ الدباغ بنشرها، حتى تأخذ كل ضخمة من الشعر، تعج برائحة الجير اللاذعة، بالتشكل على يديه.

ومجرد وضع الجلد على الأريكة، يبدأ الدباغ عمله الممل في إزالة الشعر باستخدام سكين مقوسة ذات مقابضين. ولقد حفظت هذه المهمة مكانة استثنائية، لأنها مزجت بين العمل الجسدي الحالب للسام والتركيز الشديد. فيجب - خلال هذه المرحلة - إزالة جميع منابت الشعر بالكامل، لتعذر إزالتها في حال دُبّع الجلد. فأحدنا لا يريد أحذية أو حقائب يد، وقد توشحت بباقي شعر هنا وهناك.



لم يحمد المهاجرون على جامع فضلات الكلاب لترويدهم مما يحاجرون منها، بل قاموا بتربيه كلاب ضخمة ليأمكرون عملهم كانت تُثليهم على ثلاثة صعد: الحراسة، وصيد الحمران، ومصدر لا يحاجرون إليه من الفضلات.

وعند الانتهاء من إزالة الشعر كله، يُقلب الجلد، ليقوم الدباغ - باستخدام السكينة ذاتها - بازالة جميع الأنسجة الدهنية التي قد تكون - بعد غمرة فترة طويلة - قد انتفخت وتهيجت بسبب السائل الجيري. ويتم حفظ هذا الدهن، ويرسل ليصنع منه الصابون. ورغم أن الأمور سينتهي إلى هذا الحد، فإنها تأخذ - عند الوصول إلى هذه المرحلة - بالمرىء من الانحدار؛ فهي المرحلة التي يتم خلالها استخدام فضلات الكلاب، فيجب وضع الجلد المزال عنها الشعر والدهن في حفرة أخرى للتخفيف من حدة الجير، وللتقطيرية الجلد بشكل أفضل. وتصر تعليمات الصحة والسلامة هذه الأيام على استخدام بديلٍ صناعي. غير أن المادة المخففة في العصر الفيكتوري كانت مزيجاً مقرزاً من الماء، وفضلات الكلاب الموجودة على الدوام في إحدى جوانب غرفة إزالة الشعر.

ولكن لماذا فضلات الكلاب؟ قد تحوي هذه الفضلات عناصر متبقية من معدة الكلب، وتتصف هذه الأحماض والأنزيمات بقدرتها الطبيعية على تحليل اللحم والجلد وهضمها. إن غمس الجلد لفترة وجيزة في محلول فضلات الكلاب، يزيل الجير عن الجلد، ويبيعها بما يكفي من البكتيريا والإنزيمات لجعلها لينة ومرنة.

ورغم أن الجلد لا تمكث في الحفارة سوى فترة وجيزة جدًا، إلا أن الفضلات قد تبقى في الحفارة لتختمر أسابيع. ويفضل الدباغون الفضلات القديمة على الجديدة، ويقوم الدباغون، كما تلو أن رائحة الجير العفنة، وحرق التخفيف لم تفهم سوءاً، بإضافة تخسيساتهم الخاصة بهم على هذه العملية. فقد قاموا، لتسريع عملية الدباغة، بتسخين المحاليل المختلفة مستخددين أنابيب بخارية ثم مدها تحت الحفر. لهذا أصبح خليط فضلات الكلاب حساء دافئاً، ينشر سحابة من الغانط. قد تتدفق المدبعة والمنطقة المحيطة.

وتكمن مهارة الدباغ في إبقاء الجلد في محلول التخفيف وقتاً مناسباً، قبل أن يقوم بإعطائها المعالجة الأخيرة، وهي نقعها في سائل الدباغة مدة عام كامل. وتحتاج عملية الدباغة مادة التين كثلث الموجودة في الشاي. والاستثناء الوحيد هنا أن أوراق الشاي المستخدمة في عملية الدباغة هي شظايا من لحاء البلوط بحجم اليد. ويتم نقع الجلد في سائل معتق قوي من هذا الشاي، حتى يتم تصفية السائل عنها، وتجفيفها ببطء، وحرص نحت غطاء مباشر.

ولإبقاء الجلد في جو جاف، يتم إشعال النار على الدوام، ولهذا امترج في هذا المكان الدخان الصادر عن النار، وروابع حفر الدباغة، والروابع العطنية لحر الجير، ورائحة محلول المخفف المنتقى. وأدى هذا الخليط من الدخان والبكتيريا، والمواد الكيميائية إلى جميع أشكال التدهور الصحي، وحدوث أمراض انتهاص الحال. لا بد أن هؤلاء العمال كانوا مرنين إلى حد غير طبيعي، وينطبق هذا التعريم على زوجاتهم، اللواتي كن يجهزن أنفسهن كل ليلة لشم رائحة كريهة.

وقد منحتنا عملية الدباغة -نظرأً لتعدد مراحلها- اسمى عائلتين بريطانيتين هما تاجر وباركر. ولقد ذكرنا سابقاً أن الدباغين كانوا بحاجة إلى كميات كبيرة من لحاء الشجر في الدباغة، والفقرة التالية إعلان من جريدة ديربي ميركورى عام 1793:

بحاجة إلى مبشرى لقاء الشجر - نقشير كميات ضخمة لمصمم هذا العام 1793، من أخشاب البلوط في برادلي بالقرب من آشبرن. ونظرًا لأن شجيرات البلوط مزروعة في سطور من خمس، فإن من يرغب بنقشير واحدة فقط، أو الصف كله، فعليه التقدم بطلب إلى السيد بكتسون، الدباغ في آشبورن، أو للسيد فيرن، تاجر الأخشاب في برادلي.

وتحسد مهنة الدباغة مفهوم الوظيفة الأسوأ. فقد كانت عملاً شاقاً يحقّ، كما أنها - إن نظرنا إليها من منظور أبناء القرن العشرين السريع التقدّر - منفرة إلى أبعد حد. ليس هذا وحسب، وإنما تُبذّل الدباغون من مجتمعاتهم، ورغم كل هذا، كانت الدباغة مهنة تتطلّب الحذق، فلقد وفرت فرص عمل لآلاف الأشخاص خلال العصر الفيكتوري. والأهم من ذلك، فلو لا الدباغون والجلد الذي قاموا بصناعته، لما كان هناك محاريث تجرّها الخيول، ولا خوالة، ولا فرسان، ولا خيول حرب، ولا مخطّرات مصورة، ولا لفائف أنبوية، بل إن المجتمع والتاريخ سيتوقفان تماماً.

غير أن هذا الأمر ينطبق على معظم الوظائف المبيئة في هذا الكتاب، فلو لا حافظ الفارس، وقد ملح البارود، وناضح الحفر الامتصاصية، لما كان هناك في التاريخ معارك تسمى آجنكورت، وترافلغار، ولما كان هناك قصر هامبتون. نحن ندين بالكثير لஹولاء الناس، الذين لم يحمل التاريخ أسماءهم، والذين قاموا بأداء أسوأ المهن عبر التاريخ. فقد أسهموا كثيراً في تكوين عالمنا وفق ما نراه الآن.

سابعاً

ما المهن التي عدت ألقاب عائلات؟ هل لديك سلف أو جد قام بإحدى أسماء المهن؟

بدأت أسماء العائلات بالظهور في بريطانيا بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، وكانت هناك أربعة أنواع رئيسية من أسماء العائلة، أولها الذي يصف ارتباطاً بعائلة أو فرد كاسم روبنسون (Robinson) على سبيل المثال، وثاني هذه الأنواع ما كان لقباً يصف حالات جسدية أو عاطفية، كاسم براون (Brown) (اللون أو الشعر) أو رووت (Root)، الذي يعني مبهج أو سعيد، وثالث هذه الأنواع ما كان مرتبطاً بمكان كـ «لندن» (London)؛ ورابعها ما كان يصف وظيفة ما.

قد تكون بعض الأسماء المرتبطة بعمل ما، واضحة ب نفسها، ومن هذه الأسماء باربر (الأخلاق)، ويلمر (البشك)، وبيكر (البazar) وما كان على شاكلتها. غير أن بعض الأسماء قد يكون مرتبطاً ببعض الأعمال التي اختفت متذكرة ليست بالقصيرة. وبعض أسماء العائلات المرتبطة بهن واضحة، على الأرجح، لم تكن واضحة تماماً. ففارمر (مزارع) لم يكن يعمل في الزراعة، بل كان يعمل في جمع الضرائب، وكلمة بانكر (موظفي بنك) لم تكن اسم عائلة مرتبطاً بعمل ما، بل كانت تعني «أحد الساكرين على أطراف التلة». وكان لبعض الأسماء ككلمة سلوتر (نديم حيواناً) وغلاس (زجاج) الاشتقاتها المزدوجة. فقد تعني أنه كان هناك جراراً أو صانع زجاج في عائلتك، أو أنه انحدرت من إحدى القرى السبخية المعروفة بـ سلو (Slough)، أو أن للك أقارب إسكتلنديين لهم عيون غلاسية أي زرقاء، ويندو هذا الأمر مخادعاً إلى حد ما. وليس هناك طريقة مؤكددة تستطيع عبرها أن تخرم بها، لكن على الرغم من هذا المأخذ، إليكم قائمة بعض أسماء العائلات البريطانية التي اشتقت من مهن كان أجدادنا يقومون بها، قد يكون بعضها مشهوراً، وأخرى غامضة، وقد أشرت إلى بعض التغيرات الواسعة التي حدثت على الأسماء، وكانت التغيرات في التهجئة هي الأكثر شيوعاً، ومنها كلمة (Smooth) التي قد تكتب (Smyth) أو (Smythe)، وتركها لتقدير القاريء. وقد لا تكون جميع المهن السائنة قد اخترعت عندما بدأ تداول هذه الأسماء، ولهذا لن

بعد شخصاً اسمه جورج ميل سكافنجر (جورج نقاب الغزل)، أو زو سيدان تشار كارير (زو حامل الكرسي المتنقل). ومع هذه، فإبني أشرت إلى أسماء العائلات القروسطية التي أصبحت فيما بعد إحدى المهن في القرون اللاحقة:

- أركر (Archer) - البال / رامي السهام.
- أركرايت / هاتريك (Arkaright / Hattrick) صانع الصناديق
- باچلور (Bachelor) فارس شاب، أو شخص متبدى بالسلاح، وقد يكون حافظ الفارس.
- بакون (Bacon): جزار الخنازير.
- بادجر (Badger): بائع منجول، أو قبيسي، أو صانع حقائب.
- بالي (Bailey): حاجب المحكمة وكيل أراض.
- باکر (Baker) والصيغة المستخدمة للأثنى باکستر (Baxter): خباز
- باترمان (Bannerman): وهي كلمة إسكتلندية الأصل وتعني حامل الراية.
- بانیستر (Bannister): صانع السلال / السلاال
- باربر (Barber/ Barbour): الجراح الحلاق
- بارکر (Barker/ Barkes): الدباغ
- بوکر (Booker): ناسخ أو القصار
- بومان (Bowman): البال
- بویر / بوورز (Bowyer/ Bowers): صانع أو تاجر الأقواس.
- برینر (Brenner): حارق الجير أو الفحم.
- برویر / والصيغة للأثنى بروستر (Brewer/ Brewster): تخته شراب المزر.
- بکمان (Buckman): مالك الماعز، أو مشتقة من (books) الكتب، بمعنى عالم.
- بولنجر (Bullinger/ Pullinger): خباز مشتقة من الكلمة الفرنسية

.(Boulanger)

بولمان (Ballman): مالك ثيران

بظر (Butcher Bowcher Bowker): جزار / لحام

بتلر (Butler): خادم مسؤول عن قبو الخمر

بايرز (Byers): العامل في حظيرة الأبقار

كانلندر (Callender): شخص يرق ويلس القماش الصوفي

كانتور (Cantor): القائد أو رئيس جماعة المرتلين في دير أو كاتدرائية.

كاربنر (Carbaner): صانع وبائع الفحم

كارل (Carl): فلاج (مشتقة من Churl)

كاربنتر (Carpenter): نجار

كارتر (Carter): سائق العربة

كارترایت (Cartwright): صانع العربات

كارفر (Carver): نااحت الخشب (وفي بعض الأحيان الحجر)

كاش (Cash): صانع الصناديق

تشافر (Chafer): حارق الجير

تشامبرلان (Chamberlain): ضابط مسؤول عن الحجرات الخاصة بالملك

أو السيد (وهو الدور الذي لعبه فيما بعد موظف الحمام المتنقل).

كاندلر (Chandler): صانع الشمع

تشابلن (Chaplin): قسيس

كارمن (Charman): سائق عربة نقل أو حمال

تشوسر (Choucer): صانع أحذية (مشتقة من الكلمة الفرنسية Chauces،

وتعني غطاء للقدمين. انظر الكلمة الفرنسية الحديثة Chaussures).

تشكر (Checker): كاتب يعمل في نضد الحساب.

تشيزمان / تشيرايت (Cheese man/ Cheese wright): بختان

كلارك (Clark): رجل يعمل في مرائب دينية ثانية عالم، أو مسجل.

كليفر (Cleaver): الفصّام، شخص يقوم بقصيم الخشب إلى نصفين
باستخدام الأوتاد بدلاً من نشرها
كوكيريل (Cockerell): بائع الديوك، موزع الدواجن
كولمن / كوليير (Coleman / Collier): الرجال الذين يقومون بحرق الفحم
وبيعه.

كونر (Conner): مفتش شراب المزور
كونستابل (Constable): المسؤول عن أمن بيت، أو قلعة أو حي
كوك (Cookce / Cock): طباخ
كوبر (Cooper / Cowper): صانع البراميل، والدلاء، والأحواض
كوارد (Coward): راعي الأبقار
كريك (Creek): صانع سلال / سلالاً مشتقة من الكلمة (Creke) في الإنجليزية
القرون الوسطى، وتعني سلة
كرييس (Cripps): صانع الأكياس ومشتقة من الكلمة (Crippes) في
الإنجليزية الوسيطة
كروبر / كرابر (Copper / Crapper): الحصاد
كُرير (Currier): مطري المجلد
كتلر (Cutler): صانع السكاكين، أو مصلحها، أو يابعها
دوبر (Dauber): المحضر، باني البنيات من طين ومتابلث
ديكون (Deacon): الشمامس
ديلفر (Delver): عامل المحجر
دورو (Dower): عَجَان، خباز
درابر (Draper): صانع وبائع القماش الصوفى
دروفر (Drover): الراعي
داير (Dyer): الصباغ
إيور (Ewer): الخادم الذي يزود الضيوف بالماء لغسل أيديهم.

- فولكر (Falkner): صياد يستعين بالباز
 فيشر (Fisher): صائد أسماك
- فلaksman / فليكسر (Flaxman / Flexer): ملن وبائع الكتان.
- فليتشر (Fletcher): صانع النبال وبائعها
- فورستر / فورستر / فوستر (Forster / Foster) حراج أو خطاب
- فوروارد / فورمان (Foreward / Foreman): راعي خنازير مشتقة من الكلمة (Fur) في الإنجليزية القديمة وتعني خنزير.
- فولر (Fowler): صائد الطيور البرية
- فرير (Frear / Frier): راهب
- فولر (Fuller / Voller): قصار
- فيرميج / فيرمونجر (Furmage / Firminger): صانع الجبن أو بائعها (مشتقة من الكلمة الفرنسية (Formage).
- غاردن / غاردينر (Garden / Gardiner): بستاني
- غارليك (Garlic): بائع الثوم
- غارنر (Garner): حارس مخزن الحبوب
- غيلدر (Gilder): طالب المعادن
- غلاس / غلازير / غلاشير (Glass / Glazier / Glaisher): صانع الزجاج / زجاج.
- غلاسمان (Glassman): تاجر الزجاج
- غليمان (Gleeman): مغنٍ
- غلوفر (Glover): صانع القفازات
- غوتر (Goater): راعي ماعز
- غولدميث (Goldsmith): صانع ذهب
- غرانش (Grange): المسؤول عن مزرعة
- غراسمان (Grassman): بائع الدهن

- غرافز / غريفز (Graves/Grieves): مشرف
غرينسميث (Greensmith): صانع نحاس / نحاس.
- غروم (Groom): خادم / خدام
هول (Hall): عامل في بيت المزرعة
- هامر (Hamer/Hammer): صانع المطارق
هانجر (Hanger): جلاد
- هاستر / هاستلر (Haster/Hastler): غلام السفود، مشتقة من الكلمة
الفرنسية القديمة (haste) وتعني السفود.
- هاتر (Hatter): صانع القبعات أو يابعها
هوكر (Hawker): مربى الصقور
- هالبرد (Hayward): الرجل المسؤول عن بناء السياج حول أكواخ التبن لمنع
قطعان الماشية من الاقتراب
- هاربرد / هوردر (Heard/Hurd/Horder): راعي
هيكلر (Heckler): ملبس الككان
- هيفر (Heffer): راعي الأبقار
- هينمان (Henman): الشخص المسؤول عن الدجاج
- هيرميست / آرميت (Hermite/Armette): الناسك
- هيلور (Hewer): قاطع الحجارة
- هوغارد (Hoggard): راعي الخنازير
- هولستر (Hollister): المسؤول عن بيت دعارة
- هومر (Homer): صانع الخوذ
- هود / هودر (Hood/Hodder): صانع القنصلسات
- هوكر (Hooker): صانع الكلابات
- هوبر (Hooper): صانع أطواق أغطية البراميل
- هورنبلوور (Hornblower): نافخ البوق، الرجل المكلف بنفخ البوق

لاستدعاء الناس للعمل.

هورنر (Horner): صانع الملاعق والأبواق من قرون الحيوانات

هوروكس (Horrocks): لقب للإشارة لصانع السفن / سفان

هنت/هنتر/هتسمان (Hunt/Hunter/Huntsman): صائد

هسبند (Husband): مزارع

هسي (Hussey): سيدة البيت

إنمان (Inman): قيم التزل

جاغر (Jagger): حمال

جنز (Jenner): مهندس، صانع الآلات العسكرية

جوويل (Jewell): صانع الجوواهر أو صانع الذهب

جوينر (Joiner): نحّار

كيت (Keat): راعٍ

كيبيل (Keeble): صانع الهراءات

كيلوغ (Kellogg): جزار / لحام

كدمان (Kidman): الشخص المسؤول عن العناية بالأطفال

كشن/كشنر (Kitchen/Kitchener): عامل في المطبخ

نایت (Knight): خادم الفارس

لاست (Last): صانع قوالب الأحذية

لافندر (Lavender): القصار

ليچ (Leach): طيب

ليچمان (Leachman): خادم الطيب

ليدبتر (Leadbetter): سائق أو حامل العربة

ليدر (Leader): سائق أو حمال

ليغات (Legat): سفير

ليمير (Limmer): ناسخ المخطوطات

ثامناً دليل أسوأ المهن

يقدم لنا القرن الحادي والعشرون تنوعاً فريداً من الخيارات المهنية. وأظن ملياً أن كل مهنة قد تمتهنها - إن كنت تعيش في العالم المتحضر - سواءً أكنت طالباً، أم قادك الزمن إلى أن تاجر بأمعاء الخنازير، أو كنت عالمآتاً بأجر متدين، ستكون بشكل - لا يدع مجالاً للشك - أفضل من مهنتنا التاريخية السيئة التي تم ذكرها. ولكن، ماذَا عَسِيَ أن تكون مهنتك إن كنت قد ولدْت قبل مئة، أو خمسة، أو ألف سنة؟ إن الاستبيان الآتي، الذي تم تصميمه بدقة شديدة، قد يخولك إيجاد المهنة السيئة المناسبة لك بشكل تام.

1. دخلت محل بيع الصحف المحمد لديك لشراء صحيفة، وبعض حبوب النعناع. فرأيت غير شاكِ المحل، بعض الرجال المقنعين يخرجون من المبني المجاور. كيف ستصرّف؟
 - أ. تخرج مسرعاً من المحل، متقدضاً على الرجل الذي شاهدته يطلق الرصاص من بندقيته، فتثال جداً لا سابق له.
 - ب. تطلب من يابع السجائر الاتصال بالشرطة، بينما تقوم أنت بتدوين رقم السيارة الهاوية.
 - ت. تنظر إلى الأسفل، متظاهراً بالاستغراب في مجلة «آنجيلينغ تايمر».
 - ث. تجذبك مجلة «آنجيلينغ تايمر» بحق، وبخاصة صورة سمكة الشبوط، التي فازت بجائزة نظر الـلـكـرـ حـجمـهـاـ، فقد بلـغـ وزـنـهـاـ 64 رـطـلاـ.
2. افترج عليك مديرك أن تقضيا عطلة نهاية الأسبوع بالمشي في الجبال الويلازية. ماذَا سـأـخـدـ معـكـ؟
 - أ. أحذية سميكـةـ ذات بطـانـةـ صـوفـيـةـ، وـجـمـيـعـ لـواـزـمـ الجـوـ، وـشـاكـلـ التـلـقـ، وـنـقـارـ الثـلـجـ.
 - وكـيـكـ كـنـدـلـ بـطـعـنـ النـعـنـاعـ، وـمـئـةـ مـتـرـ منـ الـحـبـالـ القـابـلـةـ لـالـشـدـ.
 - بـ. سـتـرةـ ضدـ المـطـرـ، وـبعـضـ أحـذـنـةـ الـمـشـيـ، وـقـارـورـةـ قـهـوةـ، وـدـلـيلـ أـرـ.ـإـسـ.ـبيـ.ـبيـ.
 - (RSPB) لـطـيـورـ أـورـوـبـاـ.

ت. حذف زيادتها ورجامن بناء على جلطة القديمة في حال أن اضطررت للازلاق
فقلاً من مكانه من نوع، ونسخة من «دليل الحالات الجيد».

ث. نسخة من «دليل الحالات الجيد»، ومالاً يكفيك، بينما يقوم صديقك بالمشي في
الجبال.

3. بينما كنت تقوم برمي عصاً لكيلك في المتنزه. استقرت العصاً وبشكل عائلي الخط الشهود في
الاستبيانات - في بركة ماء آسن غير مستخدم. تبع الكلب العصا، وتورط في محنة قوامها الطين الكربـة
الرائحة، وفضلات الإوز، والوحـل. كيف سيكون رد فعلك؟

أ. لا شيء، لأنك تعتقد أن الكلب يصلح لعيد الميلاد لا للحياة العملية.

ب. تخرج عباب هذه الأوساخ دون أن يكون لديك أدنى فكرة فيما إن كنت ستعلق فيه
أم لا.

ث. تخرج عباب هذه الأوساخ بعد أن تخلع ببطال الليفس، وقميصك.
ث. تستدعي مراقب المتنزه، وتقوم بشجاعته، بينما يقوم هو بشق طريقه إلى الكلب.

4. تم وضع دليل هاتف جديد على عتبة بابك. كيف سيكون رد فعلك؟
أ. قد لا تلاحظ أي تغيير نظراً لراكم الفواتير، والصحف المجانية، والبريد غير المرغوب
فيه على باب بيتك.

ب. تقوم بوضع دليل هاتفك القديم مكانه على الفور.
ث. تقوم بوضعه فوق الدليل القديم الذي يحوي بعض أرقام الهاتف الضرورية المؤشر
عليها بعلامة.

ث. تقوم بنقل أرقامك المهمة إلى الدليل الجديد، ومن ثم تقوم بقراءة الصفحات الأولى
لترى الميزات الجديدة التي ضممتها الدليل الجديد، وحفظ جميع الأرقام المجانية عن
ظهور قلب.

5. قامت حماتك بتمرير اسمك إلى البرنامج التلفزيوني: «ما مدى نظافة منزلك؟» وقامت إحدى باحثات
البرنامج بطرق بابك لترى فيما إذا كنت ملائماً لأن يقوم آفي وكيم بزيارة قلبك. وكانت مخطتها الأولى

مرحاضك وحمامك. كيف سيكون رد فعلها؟

أ. قد تضطرب المفتشة ويغير لون وجهها حرجاً، وقد يتطلب إقناعها تناول بعض الويسيكي.

ب. قد تفضي لك أنك مناسب تماماً للبرنامج، لكنها تصحح بأن تقوم بترتيب بعض الأمور.

ت. تقوم برفضك على أساس أنك غير قذر مما يكتفي.

ث. تحاول أن تسجلك في برنامج آخر مشابه ل البرنامج يسمى «هايدجين هتلر».

٦. تحاول هر كشك أن تعاشرني مع وضع إضافي جديد فرضه أحد الزبائن المهمين، وقد أدى إلى تراكم العمل أمام الجميع. كيف ستصرف؟

أ. تخبر رئيسك في العمل أنك ستعمل ليل نهار حتى يتم إنجاز العمل.

ب. تغوص في العمل كالآخرين، لكنك تأخذ بعض العمل معك إلى البيت دون أن تقوم بعمل إضافي في المكتب.

ت. تواصل عملك كالمعتاد، فالمشكلة ليست مشكلتك، وليس هناك حافز للقيام بعمل إضافي.

ث. تحضر معطفاً إضافياً للعمل، وتضعه على مسند كرسيك ليعتقد الجميع أنك في مكتب آخر، تقوم بإنجاز عملك على أكمل وجه، في حين أنك تقضي استراحة غداء طويلة.

٧. تجري حانتك المحلية مسابقات ليلة الجمعة. كيف سيكون رد فعلك؟

أ. ترفض الاشتراك في أي شيء له علاقة بمسابقة الهجنة.

ب. تشارك مرة واحدة كل نوع من التسلية، ولكن تفضل لا يقاطع تناولك للمشروب بأسئلة حول اسم جون ولين الحقيقي وهو ماريون موريسون.

ت. تشكل فريقاً، قد تسميه بشكل مشير للسخرية «الأوغاد الفاشيون»، وتحري المنافسات بشكل منتظم.

ث. تقوم بالانزواء على نفسك في كل أسبوع، وتقضي الليالي الستأخرى بقراءة كتب سخيفة.

8. قررت وقد أصابتك نوبة انفاس في إحدى الحالات أن تقوم بأداء فقرة اليوغى (القفز المطر من مكان مرتفع، بينما تكون قدماك مربوطة بحبل) كوسيلة لجمع البرعات. كيف سيكون رد فعلك؟
أ. تضي قدمًا، فهي سبب وجيه للضحك، دون أن تقلق بشأن الحصول على الكثير من الراعين.

ب. تشعر بالالتزام تجاه ما قلته. وتحاول خلاله أن تجمع أكبر مبلغ من المال، وأن ترتدى بناطيل مطاطية في حال أصابك الرعب.

ت. تهافتهم لثيراً من التزامك، على أساس أن الوعود المقطوعة في حالة السكر لا يمكن تقديمها كدليل في المحاكم.

ث. تغير اسمك وتهاجر.

9. هناك وظيفة تريدها، ولكن أمرها مرهون بإرادة رئيس المباحث؟ إلى أي مدى قد تذهب للحصول عليها؟
أ. تعلم جاداً معتقداً أن سجل عملك سيؤهلك للحصول عليها.

ب. تدعوا رئيسك لتناول مشروب معك، وتذكره أو تذكرها بالأوقات الخوايى مع التأكيد أن يتذكر سجلك الوظيفي.

ت. تدعوا رئيسك لتناول مشروب، ومن ثم تقوم، مدركاً أنه يشاركك التوجهات الجنسية ذاتها، بعرض جسدي عليه.

ث. كل ما تم ذكره، إضافة إلى وجية مكونة من خمس مراحل في مطعم أنيق، والتزلف له، والخسارة أمامه في الغولف عن قصد، عارضاً نفسك وشريك عمرك للمشاركة في مشهد جنسي عبودي خسيس.

10. لسوء حظك، سقطت إحدى الجواهر الثمينة من زوج أفراد لمن حافظت عليه عائلتك من أجيال خلت في غشاء الكلب الذي سارع ليلعها. كيف ستصرف؟

- أ. تقتل الكلب، ومن ثم تقوم بزرع أحشائه للحصول على جوهرتك.
- ب. تدعها تذهب، فهذه هي الحياة، ومن ثم تراجع التأمين فيها، وتحفظ بالقرط الآخر لأسباب عاطفية.
- ت. تعيش فضلات الكلب للبيدين التاليين بعصا، يحدوك الأمل خاللهما بأن تجد الجوهرة.
- ث. تقوم بجمع براز الكلب كهواية، ولهذا كان قيامك بغرس أصابعك في برازه بحثاً عن الجوهرة أمراً سهلاً.

النتائج:

إن كنت قد اختربت الإجابة (أ) للسؤالين الثالث والعالى، فلا تواصل قراءة النتائج، فانت ملائم جداً لأن تكون قاتل الكلاب والقطط في فترة الطاعون. وإن كنت قد اختربت الجواب (ث) للسؤال العالى، فلا تبحث إلا عن جامع فضلات الكلاب. أما إن كانت إجاباتك غير ذلك، فسجل النقاط الآتية:

5.(ث.)	0.(ت.)	5.(ب.)	10.(أ.)
5-(ث.)	0.(ت.)	5.(ب.)	10.(أ.)
0.(ث.)	10.(ت.)	30.(ب.)	.3
10-(ث.)	0.(ت.)	5.(ب.)	.20(أ.)
10-(ث.)	0.(ت.)	20.(ب.)	40.(أ.)
10-(ث.)	5-(ت.)	5.(ب.)	0.(أ.)
20-(ث.)	10-(ت.)	0.(ب.)	5.(أ.)
5-(ث.)	0.(ت.)	5.(ب.)	10.(أ.)
30.(ث.)	10.(ت.)	0.(ب.)	5.(أ.)
	10.(ت.)	0.(ب.)	

ماذا يجب أن تفعل؟

النتيجة 100 فأكثر: ليس هناك ما تخشاه، وخاصة الأشياء الموحّلة. إن كنت قد تساءلت يوماً عن مصدر رائحة غريبة، فقد تكون أنت مصدرها. وأنت مناسب للقيام ببعض أقسى المهن وأكثرها فتامة كالقصارة، وبناء بيتك من البراز كما كان يفعل الفلاح القروسطي، والعبث بأحشاء الأغنام كما كان يفعل صانع أوتار الكمان، أو التنقيب عن بيوس القمل، أو الدباغة، أو الاعتناء بالحمام المتنقل كنوع من النقلة النوعية.

النتيجة 70-100: أنت واثق في نفسك جداً، وشجاع كالأسد، لكنك لا تتصف بالكثير من الفوضوية. فقد تكون ملائماً لأن تعمل حافظاً للفارس من أجل أن تصبح فارساً في المستقبل، لكنك ملائم أيضاً لأن تقوم ببعض أسوأ الأعمال التي تطوي على خطورة عالية، كمهنة المعلين، وقردة الخنازير، والحمالين، والضباط الراكيبين، ومساعدي المتفجر، وجامعي بعض الغلوتوم.

النتيجة 30-70: لا يمانع بالقيام بما يتم إسناده إليك من أعمال كسب غير مشروعة وخطرة، لكنك لا تفضل أن تلقى حتفك في أثناء قيامك بهذه الأعمال. إن كنت جلداً بما يكفي، فعليك أن تجرب عمل حامل الكرسي المتنقل، أو عمل الباحث عن العظام أو أعقاب السجائر، أو متنقبي شبكات الصرف الصحي، أو العاملين في مناجم الذهب في العهد الروماني، أو مشغلي عجلة الرافعة، أو الماهرين.

النتيجة: صفر-30: لا يستطيع أحد أن يقول إنك خجول من القيام بأي عمل، غير أنك مناسب للقيام بعمل يستدعي الجلوس كثيراً، حتى لو كان ذلك العمل سخيفاً ومملأ. وعلى الرغم أن مهنة الجلاد تسم بالقدارة، إلا أنها لا تستهلك الكثير من وقتك، وإن كنت لا يمانع أن تبتلي أو تخلس فترة طويلة، فعمل مرشدك يات، أو عارض الفنان هو ما يناسبك. وإن كنت لا تشعر باضطراب عند رؤيتك الدم، أو القبح، أو طعم البول الغريب، فحاول أن تقدم طلباً لبعض الأعمال الطيبة: كجامع العلق، أو الحلاق الجراح، أو مساعد جراح السفينة.

النتيجة: أقل من صفر؛ يا مسكين، كم أكره أن أقول إنك مقدر لحياة سمعتها السام. إن بعض الأوصاف التي قد يتعذر الناس بها في غيابك هي: ممل، ومغرق بالتفكير، وغير ملهم. إن المهن التي تناسبك هي تلك الانفرادية، ولكن لا تقلق حيال ذلك، فأنت معتمد على قضاء الوقت وحيداً، وبخاصة في المناسبات الاجتماعية. وقد يكون عمل زخرفة المخطوطات نعيمَاً بالنسبة إليك. وقد يناسبك أيضاً عمل ناسخ المخطوطات الأنبوية، أو صانع الدبابيس، أو الفحام، أو جامع نكبات الحبال. أما إن كنت مجدأً في وحدتك، فما رأيك في الترام طريق الناسك الطويل الأمد.